الدكتور أبو القاسم سعد الله

تجارب في الأدب والرّحلة

المؤسسة الوطنية للكتاب

يضم هذا الكتاب مجموعة من التجارب في الأدب والنقد والقصة والشعر وآراء في الحركة الأدبية في الجزائر والمغرب العربي ثم الوطن العربي على العموم ، بالاضافة الى رحلة لأحد الأمراء الألمان عنابة مترجمة عن الأنجليزية ورحلتين شخصيتين الى كل من المغرب والجزيرة العربية .

فالكتاب يحتوي على اربعة أقسام وملحق :

* أبحاث ونصوص من تاريخ الأدب الجزائري والثورة الجزائرية في الأدب العربي .
* مراجعات في الكتب وأطروحات في الأدب .
* مناقشات لبعض القضايا الفكرية والأدبية .
* رحلات شخصية ومترجمة .

السعر في الجزائر 29،98 د.ج

الدكتور أبو القاسم سَعد الله

تجَارب في الأدب والرّحلة

الاضرع

المؤسسة الوطنية للكتاب
3 ، شارع زيروت يوسف
الجزائر

رقم النشر 82/1073
©المؤسسة الوطنية للكتاب
الجزائر 1983

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدّمة

يضم هذا الكتاب مجموعة من التجارب في الأدب والنقد والقصة والشعر وآراء في الحركة الأدبية في الجزائر والمغرب العربي والوطن العربي على العموم . كما يضم أخبار رحلتي إلى المغرب وإلى الجزيرة العربية ، بالإضافة إلى رحلة أحد الأمراء الألمان إلى عنابة مترجمة عن الانكليزية . ولذلك قسمت محتوى الكتاب إلى أربعة أقسام وملحق . فالقسم الأول يشمل أبحاثا ونصوصا من تاريخ الأدب الجزائري ، والثورة الجزائرية في الأدب العربي ومقالة عن محمد العيد ألح على بعض الأصدقاء ، وخصوصا الدكتور دودو . في نشرها رغم أن وجود كتابي عن محمد العيد قد جعل هذه المقالة غير ضرورية الآن .

ويشمل القسم الثاني مراجعات لكتب وأطروحات في الأدب يعود بعضها إلى الخمسينات عندما كنت شاديا في النقد الأدبي مثل كتابتي عن «مع حمار الحكيم» للمرحوم أحمد رضا حوحو ومجموعة ألحان الفتوة للأستاذ محمد الصالح رمضان ، ويعود بعضها إلى الستينات مثل رأيي في مسرحية التراب وبحيرة الزيتون للدكتور أبي العيد دودو ومصرع الطغاة والقصة القصيرة للدكتور عبد الله ركيبي ، وآخر ما قدمت من كتب في السبعينات هو ما كتبته عن ديوان ألم وثورة للشاعر الأستاذ مصطفى الغماري .

وتناولت في القسم الثالث من هذه المجموعة مناقشات كنت قدمت بها في الخمسينات لعدد من قضايا النقد الأدبي . ومن ذلك ردي على نفسي بعد أن نشرت مقالتي أرض الملاحم ومناقشتي للمرحوم رابح بونار حول النهضة الأدبية في الجزائر . وكذلك ردي على الأستاذين هنري صعب الخوري اللبناني وعلي الحلي العراقي دفاعا عن قصيدتي (المروحة) التي كانت مجلة الآداب قد نشرتها لي . ويحتوي هذا القسم أيضا على أربعة أحاديث حول قضايا الادب والنقد في الوطن العربي ووضع الأديب من أمته ومن سياسة زعمائها ونحو ذلك . وكنت قد ادليت بهذه الأحاديث إلى الأساتذة : محمد الصغير بن الاعلام والمرحوم محمد طاع الله والشاعر محمد ابي القاسم خمار وأبي القاسم بن عبد الله .

اما القسم الأخير فهو ثلاث رحلات اثنتان منها لي والثالثة مترجمة . وقد أضفت الى ذلك انطباعاتي عن خنقة سيدي ناجي أثناء زيارة لها ، وكذلك مناقشة حول رحلة ابن طوير الجنة ، والواقع انني سجلت ، كما ذكرت في غير هذا المكان . أخبار رحلاتي في جميع البلدان التي عشت فيها أو زرتها مثل تونس ومصر وليبيا وسورية والعراق والأردن ولبنان والجزيرة العربية والكويت والمغرب من البلاد العربية ، واسطانبول من البلاد الإسلامية ، وأمريكا وفرنسا وبريطانيا ومعظم بلدان أوروبا الغربية. ولكن لم يتح لي أن أصوغ رحلاتي في هذه البلدان ، كما فعلت مع رحلتي إلى المغرب والجزيرة العربية . وقد ذكرت في هاتين الرحلتين أنني اكتفيت فيهما بما يمكن أن ينشر الآن . وأرجو أن يتاح لي من الوقت والجهد ما أتمكن به من صياغه رحلاتي كلها واخراجها في كتاب .

وأما الملحق فهو جدول تفصيلي بالكتب والمقالات والقصص والقصائد التي كانت قد نشرتها مجلة الآداب البيروتية عن الجزائر منذ نشأتها سنة 1953 إلى صيف 1962 تاريخ استقلال الجزائر . وكنت قد أرسلت هذا الملحق إلى الدكتور سهيل إدريس لنشره في آخر مقالتي (الثورة الجزائرية في مجلة الآداب) ولكنه لم ينشره لضيق مجال المجلة عنه . وأعتقد أنه سيكون مفيدا كمرجع للباحثين في تاريخ الأدب الجزائري من جهة وفي وقع الثورة الجزائرية على الأدباء العرب من جهة أخرى .

وقد أصبحت أفكار هذه المجموعة تراثا في حياتنا الأدبية خلال الربع قرن الماضي . وفيها ما في التراث من الباهت والمشع . وأغلبها كان قد نشر في مجلات جزائرية وعربية . وفي بعضها ادعاءات ضخمة ووعود واسعة لا شك أنها كانت أضخم وأوسع من امكانيات صاحبها . وقد أثبت التاريخ أنه ليس كل ما يتمناه المرء يدركه ولا كل ما يمليه الشباب والحماس يتحقق ، ولكن يكفي المتمني والشباب أن يرسما علامات بارزة في طريق الأهداف التي قد تتحقق ذات يوم على يد جيل آخر . ومن حسن الحظ أن ما بشرت به أفكار هذه المجموعة منذ ربع قرن قد تحقق أكثره . ويكفي أن تكون في جميع أعمالنا مدفوعين بالأمل وهادفين إلى الخير . وهذه هي رسالة هذا الكتاب .

أبو القاسم سعد الله القماري

آن آربر (أمريكا)، 6 أبريل ، 1979

دراسَات وَمقالات

الثورة الجزائرية في مجلة الآداب

العودة إلى مجلة الآداب (*) في الخمسينات تعني العودة إلى شيئين عزيزين على نفسي : الشباب الذي كان حقيقة فأصبح حلما والثورة التي كانت حلما فأصبحت حقيقة . فقد عدت الى انتاج هذه المجلة ابحث عما نشرته عن الثورة الجزائرية فإذا بي أعيش من جديد الأيام التي كانت الآداب تصلنا فيها ونحن طلاب بتونس نبحث ، كجزائريين ، عن منبع للثقافة العربية التي حرمنا منها الاستعمار في بلادنا . وكانت الآداب عندئذ في نظرنا تمثل تيارا جديدا تقدميا قوميا لايؤمن به اساتذة الزيتونة ولا طلابها المتزمتون . وكان من يقرأ الآداب عندئذ كمن يقرأ موسوعة ديدرو في القرن الثامن عشر .

ومن حقي أن أكتب عن الآداب لأنني قد عاصرتها قارئا وكاتبا منذ عهد الطلب الى اليوم . فرغم أنني كنت طالبا في السنة الأخيرة من الثانوية العامة (التحصيل) نشرت فيها أول مقالة بعنوان (أرض الملاحم) . ومع هذا العنوان عنوان فرعي يقرأ هكذا (في طريق الياذة جزائرية) وهذا العنوان وحده كان كافيا لتحديد علاقتي بالثورة وعلاقة الآداب بالجزائر . ذلك أن المقال المذكور قد نشر قبل انفجار الثورة الجزائرية ، التي كرست لها الآداب صفحات كثيرة من اعدادها ، بستة شهور . وكانت هذه الثورة هي (الالياذة) الحقيقية التي تحدث عليها المقال .

(*) نشرت في مجلة (الآداب) ديسمبر ، 1977 .

وقد ازددت ارتباطا بالآداب يوم نشرت فيها بعض القصائد التي تنوه بكفاح الجزائر وتربط بينه وبين كفاح فلسطين وكفاح الأمة العربية في جميع اجزائها ، ثم عندما نشرت فيها ابحاثا عن الأدب الجزائري في جميع اشكاله ، محاولا تعريف القراء العرب به ، وخصوصا المثقفين منهم . وقد نشرت ذلك كله بينما كنت ما أزال طالبا في جامعة القاهرة . وكما شعرت الآداب بواجبها القومي نحو المعركة العربية في الجزائر شعرت أنا بواجبي الوطني في النضال القومي من أجل هذه المعركة . وهكذا التقت إرادة الآداب وإرادتي فكانت هي تكمل ضعفي الذي يعود أحيانا إلى عدم النضج بحرارة إيمانها بالمعركة القومية، وكنت أثبت إيمانها بما أقدمه لها من نماذج حية للأدب الجزائري باعتباره مكملا للأدب العربي حيثما كان .

وهذا البحث الذي أكتبه بمناسبة العيد الفضي للمجلة لا يغطي في الواقع سوى فترة الثورة الجزائرية ولا يمتد عبر سنوات صدور الآداب الطويلة ، وهي الفترة التي اشتدت فيها فورة شبابي بحدة المعركة في الجزائر.وانعكس كل ذلك على صفحات الآداب التي أصبحت ديوانا يضم عن الجزائر فصولا كتبت ليس فقط عن الأدب ولكن عن السياسة والاقتصاد والمواقف الانسانية أيضا .

ـ 1 ـ

صدرت الآداب في يناير، 1953 والحالة السياسية في منطقة المغرب العربي في اضطراب شديد وعلاقة بلدانها ، وخصوصا تونس ومراكش (المغرب) بفرنسا متوترة إلى أقصى الحدود . فلا غرابة حينئذ أن تبدأ الآداب اهتمامها بأوضاع المغرب العربي . ولكن صورة هذا المغرب لم تكن قد تبلورت بعد في اذهان كتاب المجلة . ذلك أن هؤلاء الكتاب كانوا يستعملون عبارات جغرافية غير محددة نقلا عن المصادر الفرنسية غالبا ، مثل (افريقية الشمالية) . وكان أول عنوان اختاره مراسل الآداب في باريس لمراسلته هو (الأدب الافريقي بالفرنسية). وقد تحدث فيها عن روايتين لكاتبين جزائريين وهما (الربوة المنسية) لمولود معمري و (البيت الكبير) لمحمد ديب . وقد حلل الروايتين وأظهر مفهومهما السياسي المعارض للاستعمار رغم انهما كتبتا بالفرنسية . وفي المراسلة الموالية عاد الى نفس

العنوان وهو (عود إلى الأدب الافريقي) حيث تحدث عن نيل محمد ديب لجائزة عن روايته السابقة وعن قرب صدور رواية مولود فرعون (الأرض والدم) وعن كون (الربوة المنسية) لمولود معمري قد حصلت أيضا على جائزة ، الخ . ولكن الآداب سنة 1953 كانت ما تزال تتحدث عن الأدب الافريقي بدلا من الأدب الجزائري ، وكان مصدرها في ذلك (باريس) وليس (الجزائر) ولا حتى المغرب العـربي .

غير أن هذا الغموض الجغرافي بدأ يزول بدخول سنة 1954 . ففي العدد الأول من هذه السنة خرج الدكتور سهيل ادريس بمقالة عن (القصة العربيـة في افريقيـة الشماليـة) التي لفتت الانتبـاه إلى أدب المغرب العربي ، كما اثارت بعض التعاليق . وقد ركز الدكتور ادريس على أدب تونس ، وخصوصا انتاج محمود المسعدي . أما فيما يتعلق بالجزائر (التي لم تكن الثورة قد وقعت فيها بعد) فقد اشار الى ضعف مستوى الثقافة العربية فيها ، وحكم بانعدام القصة العربية في الجزائر ، وعد من أدبائها بالفرنسية محمد ديب ومولود فرعون . ومما يلفت النظر انه أضاف الى هذين ادباء الفرنسيين المولودين بالجزائر مثل البير كامو وعمانويل روبلس ، غير أن الدكتور إدريس ربط في مقالته بين نهضة الادب العربي في المغرب العربي وبين تحقيق الاستقلال والحرية . لذلك تمنى في النهاية حصول « افريقية الشمالية » على استقلالها السياسي حتى تغني الادب العربي بطاقة جديدة .

وسرعان ما بدأ اسم (المغرب العربي) يظهر على صفحات الآداب . فقد فتحت بابا بذلك العنوان في قسم النشاط الثقافي في العالم العربي . واستقبلت مراسلات من تونس عن الحركة الأدبية في هذا القطر ، ومن مراكش (المغرب) عن القصة العربية في هذا القطر أيضا . وقد استمر هذا الاهتمام بالمغرب العربي في تصاعد . وفي هذه الفترة كتبت في الآداب مقالتي (أرض الملاحم او في طريق الياذة جزائرية) المشار اليها . كما نشرت بعد ذلك فيها ، باسم رشيد الخولي ، تعليقا حول أرض الملاحم . ولكن اهتمام الآداب بالجزائر كان ما يزال ثانويا . فقد كانت اخبارها تأتي من باريس كما أشرنا وليس من المغرب العربي ، يضاف إلى ذلك أن كلا من تونس والمغرب كانا في انتفاضة سياسية تجلب اليه

الأنظار ، بينما كانت الجزائر ما تزال في هدوء ، ولكنه الهدوء الذي يسبق العاصفة. وقد هبت هذه العاصفة في فاتح نوفمبر 1954 . ومع ذلك فقد انتهى عام 1954 من حياة الآداب دون تعلق يذكر على هذا الحدث الكبير .

ـ 2 ـ

وفي السنة الموالية كان هذا الاهتمام ما يزال ضعيفا أيضا . فإذا استثنينا إنتاج عثمان سعدي فإن الآداب لم تنشر شيئا عن الجزائر جديرا بالذكر . ففي العدد الثالث (1955) نشر سعدي مقالة بعنوان (مشكلة الثقافة في الجزائر) عرف فيها بالحياة السياسية والأحزاب وعلاقة الجزائريين بالفرنسيين ونوه بالثورة. وتحدث عن زعماء الجزائر . وانتهى في بحثه إلى أن الثقافة في الجزائر قد اتجهت ثلاثة اتجاهات : الاتجاه الشعبي (لغته العامية ـ البربرية) والاتجاه العربي التعليمي (لغته الفصحى) والاتجاه الثقافي العام (لغته الفرنسية) . ومهما كان محتوى هذا المقال فإنه يعتبر أول تعريف بالجزائر سياسيا في مجلة الآداب .

ولم تمض فترة طويلة حتى أخرجت الآداب بحثا طويلا عن الجزائر اهتمت به اهتماما خاصا حين جعلته (بحث الشهر) وهو (الفن الشعبي في الجزائر) لعثمان سعدي أيضا . وقد ترجم سعدي نفسه قطعة لكامو بعنوان (رجوع الى تيبازة) . ولا تهمنا هنا ترجمة هذه القطعة بقدر ما يهمنا ما دار حولها بعد نشرها . ذلك أن الآداب قد اعتبرت كامو أديبا جزائريا كبيرا حين قالت في تقديم الترجمة «هذه قطعة من روائع الأديب الجزائري الكبير البيركامو» ولعل اهتمامها بكامو يعود إلى «جزائريته» في نظرها . غير أن هذا قد ينقضه عناية الآداب بكامو الفيلسوف والقصاص أيضا ، كما سنرى ، والنقطة الثانية التي أثارتها ترجمة سعدي أيضا هي أن الآداب قد اختارت لها عنوانا آخر بارزا وهو (صفحات من الأدب الجزائري الحديث) . ولا شك أن هذا يعكس اهتمام الآداب بقضية الجزائر أكثر مما يعكس اهتمامها بأدب كامو . فقراؤها في حاجة إلى اخبار الجزائر فيها أكثر من حاجتهم إلى أخبار كامو . وقد اعترض الدكتور علي سعد في تعليقه على وضع الآداب (صفحات من الأدب الجزائري الحديث) أمام قطعة كامو (رجوع إلى تيبازة) لأن كامو في نظره ليس عربيا، ومن ثمة فإن أدبه ليس

أدبا عربيا جزائريا بل هو أدب فرنسي لحما ودما . ورغم أن سعدي قد انتصر لكامو الجزائري وهاجم الموقف العربي في المشرق من ثورة الجزائر ، فإن تعليق الدكتور علي سعد كان درسا للآداب التي لا نجدها تذكر كامو مستقبلا على انه جزائري ، باستثناء المولد طبعا .

ـ 3 ـ

ولكن الآداب قد اكتشفت الجزائر ، سنة 1956 ، فقد ضمت أعدادها خلال هذه السنة أبحاثا صافية عن ثورة الجزائر وعن علاقتها بالاستعمار الفرنسي وعلاقة كفاح الجزائر بكفاح الأمة العربية . كما ضمت عددا كبيرا من القصائد والقصص والاخبار التي يتعاطف أصحابها مع الثورة ، وكان هؤلاء من مختلف أنحاء الوطن العربي ، بما في ذلك الجزائر نفسها ، كما قدمت الآداب أعمالا ترجمة لكتاب فرنسيين أو جزائريين يكتبون بالفرنسية .

فقد صدر العدد الثاني من السنة المذكورة يحمل عرضا لحياة الشهيد زيدون بن قاسم قدمه عثمان سعدي . وكان الشهيد زيدون من الشبان الجزائريين المثقفين الذين تلقوا علومهم في كلية دار العلوم بالقاهرة . وبعد انضمامه للثورة القت عليه سلطات الاحتلال في وهران القبض وحكمت عليه بالموت في الثالث من نوفبر ، 1954 .

ولكن العدد الثالث ضم خمسة ابحاث عن الجزائر ، بما فيها افتتاحية المجلة نفسها . كما ضم قصيدتين احداهما لبدر شاكر السياب والأخرى لكاتب هذا البحث ، ذلك أن الآداب قد خصصت القسم الأول من العدد المذكور لقضية الجزائر بمناسبة عرضها على هيئة الأمم المتحدة . وكان هذا الموقف من الآداب يندرج في ايمانها « بوحدة النضال العربي » من جهة وفي مشاركتها في التعريف بقضية الجزائر التي جعلتها الأمة العربية قضيتها في تلك الفترة . وانتهى رئيف خوري ، الذي كتب عن (الحل الوحيد لقضية الجزائر) الى أن الحل في نظره يكمن في « التسليم باستقلال وطني للجزائريين تنبثق منه جمهورية جزائرية عربية وطنية ديموقراطية » وحلل الدكتور عبد الله عبد الدائم (مآثر فرنسا في الجزائر) ودحض دعاوي فرنسا الحضارية هناك ، وخلص الى أن الموضوع ليس موضوع

ازدهار اجتماعي بالنسبة للانسان العربي في الجزائر ، ولكن « المسألة بالنسبة اليه قضية كرامة قومية » .

وترجمت الآداب تعليقا على رواية (نجمة) لكاتب ياسين كتبه الفرنسي موريس نادو ، وجعلت للترجمة عنوانا يناسب احداث ذلك الوقت ، وهو (نجمة رواية الجزائر المناضلة) كما وضعت صورة كاتب ياسين وعرفت بحياته وقالت انه هو مؤلف رواية (الجثة المطوقة) أيضا . وقدمت الآداب لقرائها العرب عرضا لكتاب فرنسي هام عن الجزائر في ذلك الوقت ، وهو (الجزائر الخارجة على القانون) لكوليت وفرانسيس جونسون . فهو أول كتاب يعرض لأصول الاستعمار الفرنسي في الجزائر ويوضح العلاقة بين الإنسان الجزائري والفرنسيين . وقد لخصته تلخيصا وافيا استغرق منها حوالي ست صفحات . وانتهى عرضها له بقول المترجم « فالكتاب جدير بأن يطلع عليه كل عربي ، وجدير بأن يحمل الشكر لكاتبيه ، شكر كل مؤمن بالإنسانية وبالتحرر القومي» واهتمت الآداب في نفس العدد بأخبار النشاط الثقافي في فرنسا ، فأوردت من هناك حديثا عن (الأدب وقضية الجزائر) ذكرت فيه بيانين للكتاب الفرنسيين عن حرب الجزائر ، ومهاجمة الاستعمار الفرنسي هناك من طرف الكتاب الجزائريين الذين يكتبون بالفرنسية ، مثل محمد ديب .

وافتتحت الآداب عددها الخامس من نفس السنة (بالديمقراطية والابادة) الذي تحدثت فيه بلهجة شديدة عن مساندة الأحزاب الفرنسية للحكومة ، وهي الأحزاب التي كانت من قبل تنادي بالديمقراطية ومحاربة الطغيان . كما تحدثت عن زيف الضمير العالمي ، وتفاءلت بانتصار الثورة الجزائرية ضد الطغيان والاستعمار . ومما يلفت النظر ان المجلة قد وضعت صورة على غلافها الخارجي لرجل يحمل بندقية وكتبت تحتها « تحية الى ثوار الجزائر العربية » . وهكذا يظهر جليا اهتمام المجلة الكبير بقضية الجزائر وبربط نضالها بنضال الأمة العربية .

وفي نفس العدد بحث لعثمان سعدي ، وهو (مأساة شعب وتبلد ضمير) تحدث فيه عن العلاقات الجزائرية الفرنسية منذ الاحتلال وسياسة الاستعمار الفرنسي في الجزائر القائمة على نهب الثروات وتجريد السكان من شخصيتهم العربية . كما ضم العدد قصيدة لكاظم جواد واخرى لكاتب هذا البحث بعنوان

(المروحة) التي ترمز الى احتلال فرنسا للجزائر ، واحتوى نفس العدد على بيان من العراق عنوانه « انقذوا الجزائر العربية ، نداء من المثقفين العراقيين الأحرار الى العرب الأحرار اينما كانوا » وقعه عدد من كتاب وشعراء العراق الشقيق ، منهم السياب ، والشواف ، والحلي، وجواد ، ونيازي الخ » .

ولم يفت الدكتورين سامي الدروبي ومحمد مندور ، اللذين علقا على العدد السابق ، تناول البحثين المذكورين ، وهما (الديمقراطية والابادة) و (مأساة شعب وتبلد ضمير) . واستمرارا لهذا الجو ترجمت الآداب مقالة جان بول سارتر عن (نظام الاستعمار الفرنسي في الجزائر) في عددها السادس . والمقالة هي خطبة كان قد ألقاها سارتر في باريس برعاية لجنة المثقفين للعمل ضد متابعة الحرب في شمال افريقية ، ونشرها في مجلته (الأزمنة الحديثة) وقد ترجم المقالة الدكتور سهيل ادريس بنفسه ، ووجه بهذه المناسبة تحية حارة الى سارتر وإلى جميع الفرنسيين الأحرار .

وتوالت الدراسات والمناقشات والقصائد في الأعداد اللاحقة . فاحتوى العدد السابع على أربع قصائد لعلي الحلي ، ومحمد النقدي ، ومحمد شمس الدين ، وزهير أحمد ، وعلى (رسالة إلى فتي فرنسي في الجزائر) كتبها جان سوناك وترجمتها الآداب أيضا . كما احتوى العدد على مناقشتين تعرضان للجزائر وهي مناقشة محي الدين اسماعيل لمقالة (نظام الاستعمار الفرنسي في الجزائر) لسارتر ، وتعليق كاتب هذا البحث على نقد قصيدة (المروحة) . أما العدد الثامن فقد ضم قصيدتين احداهما لعبد الرضا الطعان والأخرى لكاتب هذا البحث . ولأول مرة تضم الآداب قصة عربية تقارن بين الوضع في الجزائر وفي بلد عربي آخر ، وهي قصة مطاع صفدي (المزيفون والثورة العظيمة) التي جعلتها الآداب في باب (قصة الشهر) ، فقد قارن فيها الكاتب بين نضال الكلام في دمشق ونضال السلاح في الجزائر عندئذ . ولذلك أهداها «الى رفاق لي لم يزالوا في أرض الغبار أقدم لهم هذه القصة من أرض الدم» والعبارة الأخيرة هي التي جعلت الآداب تضيف إلى عنوان القصة عبارة «من الجزائر» .

أما الأعداد الباقية من السنة فقد ضمت قصائد لنازك الملائكة وعلى الحلي وجلال السامرائي وقصيدتين لكاتب هذا البحث . غير أن العدد الأخير قد ضم

بحثا لكلود بوريه (معركتنا في الجزائر أو الخطف المجرم) الذي ترجمته الآداب وعلقت عليه بقولها : «لا حاجة بالآداب إلى التذكير بوحدة المعركة العربية في كل جزء من أجزاء الوطن العربي الكبير . وان ضراوة المعركة في مصر لن تنسينا الجزائر المجاهدة التي ابتليت بالاستعمار الفرنسي . هذا الاستعمار الذي أصبح شعاره الأول : «الغدر» وهذا البحث كان قد كتب بمناسبة اختطاف فرنسا لعدد من زعماء الجزائر في خريف سنة 1956 .

فالآداب اذن قد اكتشفت الجزائر العربية المجاهدة خلال هذه السنة ، ولم تعد تتحدث عنها كشيء ضائع في النطاق الجغرافي « لشمال افريقية » أو في الأخطبوط الاستعماري المسمى وحدة الأمبراطورية الفرنسية ، بل أصبح للجزائر لدى كتاب الآداب ومحرريها معركتها الخاصة ضد الاستعمار ، وأن لهذه المعركة أدبها وفنها وأهدافها التي تلتقي مع أهداف النضال العربي الآنية والآجلة .

\- 4 -

وقد أظهرت السنوات اللاحقة صورة هذا التطور بشكل أكثر جلاء . فمنذ العدد الثاني من سنة 1957 كتب الدكتور محمد مندور مقالة بعنوان (زحف التحرر العربي) ربط فيها بين تحرر البلاد العربية من ربقة الاستعمار والتبعية فذكر سوريا ومصر ولبنان ومراكش وتونس ثم قال «وها هي الجزائر الباسلة في سبيلها الى التحرر بفضل جهاد أبنائها الأبطال ومؤازرة الأمة العربية كلها لها في هذا الجهاد» فالأمة العربية من الخليج إلى المحيط كانت تعتبر نضال الجزائر هو نضالها لأنها اكتشفت أن هذا النضال هو شرف لها وانه جزء من حركة التحرر العالمي ضد التخلف .

واهتمت الآداب في نفس العدد ببحث للكاتب الجزائري مالك بن نبي (أسس فعالية اقتصاد افريقي - أسيوي) . وقد صدرت البحث بصورة صاحبه بل جعلته (بحث الشهر الاقتصادي) . والملاحظ هنا أنها قد أضافت إليه عبارة «بقلم الكاتب الجزائري لفتا لنظر القاريء إلى مفكري الجزائر وإلى أبطالها معا . وفي باب النشاط الثقافي أوردت المجلة أخبارا عن حركة الارهاب والاعتقال التي تباشرها السلطات الفرنسية في الجزائر بمناسبة عرض قضية الجزائر على الأمم

المتحدة . ودخلت أسماء جبال الجزائر ومدنها في الشعر العربي وغيره مثل وهران وأوراس الخ . وفي هذا الصدد نشر الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي قصيدته (أوراس) كما نشر محمود النجدي قصيدة بعنوان (رجال من الجزائر) . وفي العدد الخامس نشر الشاعر أيوب طه قصيدة بعنوان (أوراس) أيضا .

وقد ناقش ناجي علوش في العدد الثالث[1] من هذه السنة كتاب (ثورة الجزائر) لعلي الشلقاني . ونلاحظ أن المناقش قد رفض اجتهادات المؤلف حول القضية القومية في الجزائر العربية ، وقضية ادماج الجزائر في فرنسا ، وقضية الصراع الطبقي واثره في الوحدة القومية ، وكانت للمؤلف الشلقاني تفسيراته لهذه القضايا التي لم يكن فيها ، كما لاحظ المناقش ، ملتزما بوحدة كفاح الجزائر من الداخل ولا بوجهة كفاحها القومية . وقد عاد علوش الى نفس الموضوع في العدد الخامس .

وأعطت الآداب اهتماما خاصا لموقف الكتاب الفرنسيين من قضية الجزائر ، فكنت لا تقرأ عددا منها خلال هذه الفترة الا وفيه حديث من مراسلها في فرنسا عن موقف هؤلاء الكتاب . ففي العدد الرابع حديث عن (معركة الجزائر) تناول فيه المراسل المناقشة التي دارت بين فرنسوا مورياك وجان عمروش حول القومية الجزائرية التي يؤمن بها الثاني ويرفضها الأول . وكان مورياك ينادي بالتفاوض مع فرنسا بدل المطالبة بقومية جزائرية مستقلة عن فرنسا . أما في العدد الموالي فقد دارت المراسلة من باريس حول البيان الذي وقعه 350 كاتبا وصحفيا وشخصية فرنسية والذين طالبوا فيه بوقف الارهاب في الجزائر . كما تحدث المراسل عن مقتل علي بومنجل الجزائري ووثيقة الكاتب سرجان شرايبر التي أصدرها بعنوان (ليوتنان في الجزائر) .

وهذه النقطة هي التي عاد إليها سهيل إدريس في العدد الموالي عندما كتب تحت عنوان (قضية الجزائر – التعذيب والشرف) وهو يعني بالتعذيب انتحار علي بو منجل هروبا من التعذيب ، وبالشرف موقف مورياك الذي أعلن أنه لن يكتب الرواية بعد اليوم لأن فظاعة الواقع تطرده من ميدان التأليف الخيالي . وتناول الدكتور ادريس في هذا العدد مجموعة من الكتب الفرنسية التي صدرت عن الجزائر وتتحدث عن التعذيب والارهاب هناك . ومنها كتاب شرايبر المذكور ، وكتاب

ب . هـ. سيمون (ضد التعذيب) الخ . ومما يلفت النظر أن الدكتور ادريس قد أنهى مقالته بهذه العبارات الساخنة « أيها المكافحون المعذبون في الجزائر .. لن تكونوا أبدا عراة ما دمتم ترتدون ثوب الشرف» .

وفي نطاق التعريف بالقضية الجزائرية ضم نفس العدد مقالا لعبد الحميد مهري ، مندوب جبهة التحرير الوطني في دمشق عندئذ تحدث فيه عن الجانب الإنشائي من الثورة الجزائرية وعما تبنيه هذه الثورة أثناء هدمها للنظام الاستعماري ، وخاصة انعقاد مؤتمر الصومام التاريخي الذي وضع أسسا صلبة لاستمرارية الثورة وضمانات نجاحها .

واستمرت الآداب في نفس الخط في إعدادها اللاحقة . فنحن نجد العدد الثامن قد ضم ترجمة لمقالة سارتر (مجندون يشهدون) التي حلل فيها نفسية الانسان الفرنسي تجاه قضة الجزائر ، وقد جعلتها الآداب تحت هذا العنوان (قضية الجزائر ابدا) وتحت هذا العنوان أيضا عاد الدكتور عبد الله عبد الدائم يحلل مأساة الجزائر من خلال الكتاب الذي ألفه الفيلسوف الفرنسي ، ريمون أرون . ورغم أن أرون كاتب يميني واستاذ علم الاجتماع بالسوربون فقد تحرك ضميره ازاء قضية الجزائر ويكفي العنوان الذي وضعه المؤلف ، وهو (مأساة الجزائر) . وحول نفس الموضوع تناول جليل كمال الدين كتاب (أضواء على القضية الجزائرية) الذي ألفه ابراهيم كبه في بغداد . وقد ضم الكتاب سبعة فصول عن الثورة الجزائرية ، واعتبره المراجع تعبيرا عن المساهمة العربية في التعريف بالثورة .

وقد عرف قراء الآداب خلال هذه السنة مجموعة من الدراسات عن الجزائر مكتوبة بأقلام جزائرية . وكان الفضل في تقديم هؤلاء الكتاب يعود حقا الى الآداب . فقد نشرت لأربعة كتاب جزائريين على الأقل دراسات وقصصا . من ذلك بحث المفكر مالك بن نبي (من أجل ثقافة افريقاسية) وهو الذي ترجمه عن الفرنسية الطيب الشريف ، وقدم عثمان سعدي دراسة مطولة عن (الأدب الشعبي والمقاومة الجزائرية) وهي دراسة تاريخية ووصفية للأدب الشعبي الجزائري وعلاقته بالكفاح السياسي وبالثورة . أما الدراسة الأخرى فلكاتب هذا البحث تناول فيها الشعر الجزائري المكتوب بالعربية بعنوان (تصميم للشعر الجزائري

الحديث) . أما في ميدان المسرحية والقصة فقد نشرت الآداب تمثيلية (عذابات) لأبي العيد دودو ، وهي من فصل واحد وتقع احداثها في معسكر للجيش بالقرب من بجاية . كما كتب عثمان سعدي قصته (إثنان وثلاثون طلقه) .

ـ 5 ـ

أما الشعر فقد ضعف خلال هذه السنة (1957) فلم تورد الآداب منه سوى قصيدة لحبيب صادق ، بالاضافة الى ما ذكرناه من قصائد لحجازي والنجدي وطه ، بينما ضمت سنة 1958 عددا كبيرا من القصائد عن الجزائر ، معظمها خاص بجميلة بوحيرد أثر الحكم عليها بالإعدام من قبل الفرنسيين . ومن الذين ساهموا في هذه المناسبة نزار قباني ، وشفيق الكمالي ، ونجيب سرور ، ومحمد المصري ، وعيسى الناعوري ، وسليمان العيسي ، وحسن البياتي ، وعلي الحلي ومحمد الفيتوري ، وفارس قويدر . وفي هذه الأثناء صدر في القاهرة كتاب بعنوان (جميلة) يضم احدى عشرة قصيدة وقد راجعه للآداب علي شلش .

وكان احتفال الآداب بالدراسات والأبحاث عن الجزائر أقل بكثير من احتفالها بالشعر فلا نكاد نجد في اعداد سنة 1958 سوى مقال لسارتر (الجلادون) الذي اعتبرته المترجمة عائدة مطرجي ادريس ،« اخطر مقال عن حقيقة التعذيب في الجزائر» والمقال عبارة عن التعليق الذي كتبه سارتر على كتاب (الاستجواب) لبيير اليغ . وقد ساهم جليل كمال الدين ببحث عن (الجزائر في الفن العراقي) ضم لوحتين : الجزائر لفرج عبو، ومجزرة الجزائر لمحمود صبري ، بالإضافة إلى تمثال جميلة لإسماعيل الترك . وما دمنا بصدد الحديث عن الفن فلنذكر أن صورة غلاف العدد الرابع كانت رسما لجميلة بوعزة مكتوبا تحتها بقلم الفنان ناظم ايراني «إلى المناضلة الباسلة جميلة مع اكباري العميق» .

وتحت عنوان (ثورتنا العربية في الجزائر) ناقش ناجي علوش كتاب (شروط النهضة ومشكلات الحضارة) لمالك بن نبي ، وقد عالج فيه أفكار ابن نبي بشيء من الإعجاب . وفي العدد الثاني كتب الجنيدي خليفة (رسالة من سجين جزائري) ، كما نشر كاتب هذا البحث دراسة عن (الغزل في الشعر الجزائري) . أما القصص فقد نشرت منها الآداب اثنتين احداهما (الزنزانة السابعة لم تعد

تجيب) لأحمد عكاش التي ترجمها عن الفرنسية حنفي بن عيسى . والملاحظ أن القصاص والمترجم جزائريان . ونفس الشيء يقال عن عثمان سعدي الذي كتب قصة (الشيخ حداد) .

ولم تخل الآداب من اهتمامات أخرى عن الجزائر خلال هذه السنة . فقد كانت تنشر وقائع المؤتمرات العربية وغيرها ، وخاصة ما يتعلق منها بالجزائر ، مثل برقية إلى الأمم المتحدة بشأن الجزائر ، وبيان عن الجزائر الصادرين عن مؤتمر الأدباء العرب الثالث (القاهرة ، 1958) ، ومثل الاعلان عن صدور كتاب (عارنا في الجزائر) لسارتر بمناسبة أسبوع الجزائر في البلاد الافريقية والاسيوية ، وكذلك الاعلان عن قرب صدور (انسان الجزائر) للشاعر علي الحلي ..

ـ 6 ـ

وبقدر ما ضعف الشعر عن الجزائر ، سنة 1959 بقدر ما تضاعفت الدرسات ، فاما الشعر فلا نكاد نجد منه سوى اربع قصائد لنازك الملائكة ، وصادق الصائغ ، وحسن فتح الباب ـ كلها تقريبا عن جميلة أيضا . ولكن افتتاحية الآداب للعدد الحادي عشر كانت قمة في التعبير عن إيمانها بالنصر للثورة . فقد كتب الدكتور سهيل ادريس (تحية الى الجزائر) جاء فيها على الخصوص « ليس من شك بعد في ان الشعب العربي في الجزائر قد انتصر .. فلقد انتزع بكفاحه الطويل المرير الدامي حقه المقدس في تقرير مصيره ، وارغم الاستعمار الفرنسي على الاعتراف بهذا الحق الذي سيؤدي بلا ريب إلى استقلال الجزائر . وسيادة الشعب العربي في الجزائر » . وهذه بدون شك كلمات قوية في ذلك الوقت ، وهي تعبر عن الايمان الصامد بتحقيق الاستقلال ، رغم أن كثيرين ، ومنهم بعض الجزائريين ، كانوا الى ذلك الحين غير متأكدين منه . وهناك افتتاحية أخرى للآداب تناولت (قضايانا القومية) وخصصها الدكتور سهيل ادريس للحديث عن قنبلة فرنسا الذرية وعن بترول الصحراء الجزائرية . وقد مجد فيها مجددا الثورة وأشاد بعروبة الجزائر وصمود ثوارها .

وقد ضمت ابحاث هذه السنة ثلاث دراسات عن كتب تتعرض لقضية الجزائر . احداها العرض الذي قدمه محمد وهبي لكتاب (الثورة الجزائرية)

لأحمد الخطيب ، والثانية عرض الدكتور سهيل ادريس لكتاب (مأساة انسان الجزائر حين يدخل فرنسا) لجانين أوريانو الذي وضعه في باب (كتاب الشهر) . وقد انتهى الدكتور ادريس منه بقوله أنه مهما وجد في هذا الكتاب من مآخذ فانه يعترف بحق الجزائريين في الاستقلال والحرية . وأما الدراسة الثالثة فهي لخميس شاهين (الانسان العربي ورواية دريس) الذي أبى الا أن يناقش قضية الجزائر أيضا من خلال هذه الرواية التي تبدو الى حد ما بعيدة عنها . ومن جهة أخرى نشر أحمد الخطيب بحثا عن (الأمير عبد القادر الجزائري : بطولة وشعر) .

واشترك عدد من الكتاب الجزائريين أيضا بأبحاثهم وقصصهم في الآداب خلال هذه السنة . أما الأبحاث فنذكر منها (الفلاح والثورة العربية في الجزائر) لعثمان سعدي الذي سبق له أن ألقاه محاضرة في الكويت ، وهو بحث يتناول تاريخ الجزائر مع الاستعمار الفرنسي ، وخاصة الجانب الاقتصادي الاستغلالي منه . ولنفس الكاتب مقال عنوانه (رسالة الى مناضل) . كما اسهم محمد الصالح الصديق بمقاله (الى البطل القائد عميروش) . أما كاتب هذا البحث فقد نشر في الآداب خلال هذه السنة دراستين احداهما عن (البطولة في الأدب الجزائري الحديث) والأخرى عن (رسالة الجمعيات والنوادي في الجزائر) . واما في ميدان القصة فقد نشرت الآداب قصتين لكاتبين جزائريين هما عثمان سعدي وقصته (تحت الجسر المعلق) وحنفي بن عيسى وقصته (في حي القصبة) .

وبالإضافة إلى ذلك تابع مراسل الآداب في فرنسا مدها بأخبار مواقف المفكرين الفرنسيين من قضية الجزائر ، وخاصة ما اثاره كتاب (التعفن) أو الغنغرينا من نقاش ، وهو الكتاب الذي يصف فظاعة التعذيب في الجزائر . ومن جهة أخرى أوردت المجلة خلاصة لكلمة ممثل الجزائر في مؤتمر الادباء العرب الرابع الذي انعقد في الكويت خلال سنة 1959 .

- 7 -

واحتفلت الآداب خلال سنة 1960 بعدة أبحاث عن كامو وعن الأدب الجزائري كما احتفلت بعدد من القصائد التي تغنى أصحابها بالثورة . فأما

الابحاث المخصصة لكامو فنذكر منها (كامو والتمزق) للدكتور سهيل ادريس الذي كتب بهذه المناسبة « نحن نعتقد بأن مأساة الجزائر تكمن وراء هذا التمزق» . وفي نفس الدرب سار محي الدين اسماعيل في بحثيه عن (كامو والبحث عن السعادة) الذي حلل فيه مواقف كامو العامة ، ومنها موقفه من قضية الجزائر ، و (كامو ونظرية التمرد) . وقد سبق أن لاحظنا أن الاهتمام بكامو يعود في نظر عدد من الكتاب العرب عندئذ الى اهتمامهم بقضية الجزائر ، حتى ان بعضهم قد اعتقد في « جزائريته » . ولولا ذلك لأعتبرنا اهتمامهم به مجرد دراسة للفلسفة المعاصرة ومواقف الانسان من مجتمعه .

أما الأبحاث المركزة على ادباء جزائريين بعينهم فنذكر منها (محمد العيد كبير شعراء الجزائر) لكاتب هذا البحث الذي قدم به لقراء الآداب شاعر العربية في الجزائر المستعمرة ، و (رضا حوحو ونضال الكلمة) لكاتب هذا البحث أيضا الذي عرض فيه حياة واثار الشهيد أحمد رضا حوحو ومواقفه الأدبية . ورضا حوحو من ادباء العربية أيضا في الجزائر . وكاتب هذا البحث أيضا هو الذي نشر (محاولاتنا في النقد الأدبي) تناول فيه الحركة النقدية في الجزائر ولا سيما مدرسة مجلة (الشهاب) وجريدة (البصائر) . وكانت هذه الأبحاث الثلاثة تركز كما سبق ، على كتاب وشعراء الجزائر بالعربية ، في الوقت الذي نشرت فيه الآداب أيضا مقالات تلقي أضواء على كتاب جزائريين يكتبون بالفرنسية . ومن هؤلاء مانشره عثمان سعدي عن مولود معمري صاحب روايتي (الربوة المنسية) و (سبات العادل) . وقد نشر عثمان سعدي أيضا قصة لنفسه بعنوان (الثلج والشرف) كما نشر مواطنه حنفي بن عيسى قصة بعنوان (عائدون) . وهكذا عرف قراء الآداب خلال هذه السنة عددا من أدباء الجزائر وشعرائها ، ناقدين ومنقودين ، بالعربية وبالفرنسية .

وهناك افتتاحيتان هامتان للآداب خلال هذه السنة كرستا للجزائر ، أولاهما كتبها الدكتور سهيل ادريس بعنوان (الجزائر والحرية) تحدث فيها عن الـ 120 مثقفا فرنسيا حرا الذين أصدروا بيانا دفاعا عن أعضاء منظمة جانسون) التي كانت تعين الجزائريين . وقد قال الكاتب بعد ذلك « ونحن المثقفين العرب نستطيع أن نقدر أكبر التقدير موقف هذه الحفنة من أحرار فرنسا لأننا نعيش المأساة الجزائرية

في ضمائرنا ودمائنا» ثم وجه «تحية اليهم ، وتحية إلى شعب الجزائر العظيم ، صانع المعجزات والبطولات : » أما الافتتاحيه الثانية فقد كتبها الدكتور عبد الله عبد الدائم بعنوان (الإنسان وأزمة الجزائر) وتعرض فيها لعلاقة الجزائر بفرنسا من الناحية المأساوية ، والثورة ، وموقف الفرنسيين الأحرار ، وأساليب التعذيب ضد الجزائريين . وبذلك يتجلى أن اهتمام الآداب بالثورة لم يكن أدبيا فحسب بل كان سياسيا وقوميا أيضا .

أما الشعر خلال هذه الفترة فقد اشترك فيه خليل الخوري ، ومحمود كلزي ، وسليمان العيسي ، ونجيب سرور ، وأحمد سويد ، ويظهر من هذه القائمة أن هؤلاء الشعراء يمثلون عدة اقطار عربية ، ولكن عددهم قليل بالنسبة لبعض الفترات الأخرى .

- 8 -

وقد كادت الآداب سنة 1961 تخلو من أبحاث جادة وقصائد هامة عن الجزائر ولولا ثلاث قصائد لمالك حداد (ترجمة ملك الأبيض العيسي) وقصيدة لسليمان العيسي (وكلها في عدد واحد هو الثامن) لما عثرنا فيها على أية قصيدة تتناول موضوع الجزائر خلال السنة المذكورة .

أما الأبحاث فقد كتبت الآداب افتتاحية بعنوان (وثيقة بطولة) مترجمة عن مقال للكاتب الفرنسي جان كو. وقد أغتنمت هذه الفرصة للتنويه بالثورة الجزائرية التي كانت قد دخلت عامها الثامن ، ولتحية كفاح الشعب الجزائري من جديد ، والاشادة بالمظاهرة الكبيرة التي قام بها الجزائريون في ذلك الوقت متحدين بها السلطات الفرنسية الغاشمة .

وفي هذه الأثناء تلقت الآداب مراسلة من الجزائر ، أكتفى صاحبها بحروف (ع . أ . ق) وجعل لها عنوانا مثيرا هو (الأدب العربي يحتضر في الجزائر) . وقد صور الكاتب فيها الصعوبات التي يمر بها الأدب المكتوب باللغة العربية هناك . ومن جهة أخرى ساهم الجنيدي خليفة بمقال فلسفي سماه (الوجود بلا وسيط) . كما ترجم محمد برادة مقالة مولود معمري عن (الأدب الروائي

المغربي المكتوب باللغة الفرنسية) وهو هنا يقصد أدب المغرب العربي وليس أدب قطر بعينه . أما الانتاج القصصي فلم نعثر منه سوى على قصة لحنفي بن عيسى بعنوان (الشمس لا تشرق من باريس) .

غير أننا نجد في الآداب خلال هذه السنة بعض المراجعات للكتب التي تتناول قضية الجزائر وأدبها . ومن ذلك مراسلة من باريس عن كتاب (أصوات في القصبة) لحسين بوهازر (بوزاهر ؟) وهو كتاب يضم عدة قصائد ومسرحيتين . وكتاب (حرب الجزائر) لجول روي الذي يعتبر من انتاج شاهد عيان وقد أحدث ضجة عند صدوره . وقد كتب مندوز الفرنسي (الثورة الجزائرية بالنصوص) . وبهذه المناسبة نذكر مراجعة عبد الرحمن الزناقي للكتاب الذي الفه كاتب هذا البحث عن (محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري الحديث) .

– 9 –

واذا انتهينا بسنة 1962 الى شهر يوليو ، وهو تاريخ استقلال الجزائر ، فاننا لانجد في الآداب خلال هذه الفترة أكثر من ثلاث قصائد لفاروق مردم وكاظم جواد ومحي الدين فارس . أما الأبحاث فقليلة جدا نسبيا . فقد ترجم الدكتور سهيل ادريس مقدمة سارتر لكتاب (معذبو الأرض) لفرانز فانون ، وهذا الكتاب ، كما أصبح معروفا ، وثيقة ادانة ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر ، لذلك صادرته السلطات الفرنسية في باريس فور صدوره .

ومن جهة أخرى كتبت الادآب افتتاحية جديدة (تحية الى الجزائر) بمناسبة قرب اعلان الاستقلال . وقد بدأتها هكذا « البشرى لنا أيتها الجزائر العظيمة ، يا أرض البطولات الخالدة :» وتمنى كاتبها الذي يغلب على الظن أنه هو رئيس التحرير نفسه ، ان ترد الثورة الجزائرية « القيمة للحرف العربي ، هذا الحرف الذي ما يزال يهدره كثير من التدجيل والنفاق ، وسيكون من شأن ثورتك (الجزائر) ان يرفعه من جديد الى صعيد الحرمة والقداسة » وكانت هذه التحية من الآداب أحر ما قدمته من عواطف قومية وشخصية للثورة .

ورغم ان الدكتور عبد الدائم قد نشر مقالته (الجزائر المستقلة والثورة) خلال شهر أغسطس فان ما جاء فيها يعتبر تحليلا للأحداث التي جرت بعد مارس ،

1962 . فقد راجع فيها الاسباب التي أدت الى تطور العلاقات الفرنسية الجزائرية من جهة والعلاقات بين الجزائريين أنفسهم وأرجعها الى وضع الجزائر الخاص أيام الاستعمار . وكان الكاتب متفائلا ، رغم كثرة المصدومين مما وقع عندئذ ، حين بشر بأن ثورة الجزائر ستتغلب على الصعوبات الطارئة وانها ستؤدي الى « تحرر الانسان العربي من كل صنوف العبودية واطلاق قواه وطاقات الابداع لديه وخلق الحضارة العربية الموحدة المبدعة في سبيل تقدم الانسان وغنى الانسانية » .

واحتوت الآداب على لقطات هامة عن حياة الشاعر مالك حداد والقصاص مولود فرعون . فمزيد الطاهر عرض ونقد كتاب (الشقاء في خطر) لحداد الذي ترجمته السيدة ملك ابيض العيسي . أما فرعون فقد وردت على المجلة مراسلة عن حياته وآثاره بعد مقتله من طرف منظمة الجيش السري الارهابية .

ونحب ان نختم هذا البحث بالكلمات التي كتبها الدكتور سهيل ادريس في افتتاحيته (على أرض الجزائر) حينما دعي لحضور احتفالات أول نوفمبر 1962 اعترافا بفضل الآداب على الثورة وتقديرا لموقف رئيس تحريرها . فقد كتب بتلك المناسبة « تلمس قدماي أرض الجزائر فيتحقق الحلم الأثير ، وتغيم عيناي بغشاوة من دموع حين يرف فيهما علم الجزائر فوق بناء المطار : لقد ولدت اذن بنت المخاض العسير الدامي » ان هذه الكلمات كانت في الواقع تعبيرا على ما كان يختلج في نفوس العرب الأحرار في كل مكان تجاه الثورة الجزائرية التي أعادت للإنسان العربي كرامته (*) .

ـ 10 ـ

ويمكننا أن نستخلص عدة نقاط من هذه الدراسة :

1 ـ ان اهتمام الآداب بالثورة الجزائرية كان قوميا بالدرجة الأولى . فقد نظر العرب القوميون الى هذه الثورة على أنها تعبير عن كرامتهم وتحفزهم وطموحهم في وقت كانوا يبحثون فيه عن (الفارس) الذي يحقق لهم الحلم ويرد لهم الاعتبار . ويلاحظ الدارس ذلك من افتتاحيات المجلة وفي التقديم

(*) أنظر : الملاحق .

الذي كان يكتبه قلم التحرير لهذه الدراسه أو تلك . وقد استطاعت الآداب ، من جهة أخرى ، أن تربط ، من خلال أبحاث كتابها وقصصهم وقصائد شعرائها ، بين الثورة الجزائرية ونضال الأمة العربية ، وان تربط القاريء العربي الذي كان قبل الثورة ، يجهل تقريبا كل شيء عن الجزائر ، بنضال الشعب الجزائري . وقد كانت الآداب في ذلك منسجمة كل الانسجام مع نفسها لأن رسالتها منذ البداية كانت ، على الصعيد السياسي ، رسالة قومية .

2 ـ من خلال الآداب عرف الناس الأدب الجزائري بلغتيه العربية والفرنسية . فبعد قرن وربع من الاحتلال والاستعمار المباشر وطمس معالم الثقافة العربية ، قدمت الآداب الى قرائها نماذج من انتاج الجزائريين الادبي . فعن صفحاتها عرف هؤلاء الناس ، عربا وغير عرب ، من هم أدباء الجزائر بالفرنسية (كاتب ياسين ، مولود معمري ، مولود فرعون ، محمد ديب ، مالك حداد ، مالك ابن نبي) كما عرفوا نماذج من أدبائها بالعربية (محمد العيد ، أحمد رضا حوحو ، عثمان سعدي ، الجنيدي خليفة ، أبو العيد دودو ، حنفي بن عيسى ، أبو القاسم سعد الله) . حقا أن بعض الخلط قد وقع في البداية بين كتاب الجزائريين والفرنسيين مثل كامو وروبلس . ولكن هذا الخلط ما لبث أن زال .

3 ـ ان الاداب ، بما احتوته من انتاج وأخبار ودراسات عن الجزائر ، تعتبر بحق مكتبة هامة لدراسة جوانب كثيرة من الثورة الجزائرية وتطورها ، وخاصة على الصعيد العربي . فهي لم تكتف بالنقل مما كتب عن الثورة فقط بل ضمت انتاجا غزيرا من أهل العربية ، سواء كانوا من الجزائريين أو من العرب الاخرين ، وهي لذلك تعد مصدرا لا غنى عنه لدراسة أدب الثورة الجزائرية .

4 ـ وأخيرانحب ان نلاحظ أن معرفة هيئة تحرير المجلة للغة الفرنسية قد سهلت مهمتها في الاتصال بالأدب الفرنسي المتعلق بالجزائر والنقل منه الى قرائها . وهذه الميزة لم تتيسر لمجلات أخرى . فقد حفلت الآداب ، نتيجةلذلك ، بأخبار الأدب الجزائري (جغرافيا وقوميا) الواردة من فرنسا من المجلات والمصادر الأخرى الفرنسية ، مثل ليكسبريس ، وفرانس أوبسارفاتور ، والازمنة الحديثة ، والعديد من الكتب الصادرة بفرنسا.

وبعد فان هذه الدراسة ليست الا عرضا سريعا لما نشرته الآداب عن الثورة الجزائرية منذ ظهورها إلى يوليو ، 1962 . وقد أردنا بها معرفة دور الآداب بالنسبة إلى قضية عربية كانت تملأ الدنيا دويا في فترة من فترات صحوتنا القومية . أما التوقف عند كل جزئية ، والبحث والمقارنة في الانتاج المنشور ، وتقييمه ، فهو متروك لدارسين آخرين ، ولا سيما الجيل الصاعد الذي قد يخصص أبحاثا أكاديمية مستقصية لما أكتفينا نحن هنا بجمعه وترتيبه وعرضه . وحسبنا في هذا المجال ان ننوه بخطوات الآداب في رصدها لأحداث الأمة العربية والتعبير عنها قوميا ، وحسبها هي فخرا انها أصبحت لسان حال جيل كامل من هذه الأمة ، جيل يؤمن بالوحدة العربية وبالتقدم العلمي وبالتحررمن جميع أشكال التبعية .

الأدب الجزائري الحديث

حضرات السيدات والسادة (*) :

للمرة الثالثة نلتقي في ندوة الأساتذة لتبادل الرأي في موضوع نعتقد أنه يهم الجميع . واختيار « الأدب الجزائري الحديث » موضوعا لهذه الندوة يرجع الى عدة أسباب :

1 ـ ان الحاجة واضحة وملحة الى تحديد وتقييم مفاهيمنا الأدبية على ضوء تطورنا السياسي والاقتصادي بعد الاستقلال ، لكي نعرف الفرق بين ماضينا وحاضرنا الأدبي ومدى استجابة انتاجنا الشعري والنثري الى التزامات العصر.

2 ـ ان الأدب ، باعتباره يمثل الانطلاقة الشعورية العالية في ثقافة ما ، يحتاج دائما الى الصقل والتجديد بالمناقشة والنقد ، حتى لا يتجمد ويصبح يدورحول نفسه .

3 ـ أن كون أدبنا الحاضر مزدوج اللغة يجعله فذا في بعض مظاهره وهذه الفذاذة هي التي تحتم علينا أن نتدارس قيم ومواقف هذا

(*) خلال سنتي 1967 ـ 1968 أشرفت على ندوة تسمى (ندوة الأساتذة) تعالج خلالها عدة قضايا تهم الجزائر والوطن العربي. وقد انعقدت منها عدة حلقات، ومنها واحدة كان موضوعها (الأدب الجزائري الحديث) وقد قدمت اليها بهذه المقدمة ثم تولى الأساتذة المشاركون فيها إلقاء موضوعاتهم . وتاريخها هو 16 مارس، 1968. وقد نشرت هذه الكلمة، مع غيرها في مجلة (المجاهد الثقافي) في نفس السنة .

الأدب حتى نعرف ما الذي منه يمثل حقا حضارتنا العربية الاسلامية وما الذي منه يمثل حضارة دخيلة ووجودا مزيفا .

4 ـ أن كون الأدب الجزائري امتدادا طبيعيا للأدب العربي عامة ، وكونه ، في جملته أدب كفاح ، يفرض علينا أن نعرف الى أي مدى استجاب ويستجيب الى قضايا العروبة من ناحية والقضايا الانسانية من ناحية أخرى .

إننا اذا استثنينا الأدب الشعبي ، يمكننا تعريف الأدب الجزائري بأنه الانتاج النثري والشعري الفني الذي كتبه الجزائريون بلغتهم القومية . وعلى هذا الأساس فان كل أدب انتسب الى الجزائر دون أن يتوفر له هذا الشرط ، يعتبر أدبا شاذا غريبا ، أومولودا غير طبيعي ، يمثل مأساة صاحبه وليس حضارة أمته .

ورغم اختلاف النظرة ، فانه يمكننا أن نقول أن الأدب الجزائري الحديث هو وليد العشرينيات من هذا القرن . ونعني به هنا ذلك الضرب من الأدب الذي مازلنا نستصيغ ونستعمل تعابيره وصوره وموضوعاته . على أنه من المؤكد أن دفعة الثورة وتوثيق الصلة الآن بين الأدب الجزائري والأدب العربي في جميع أصقاعه قد أضافا ألوانا جديدة وحررا أدبنا من كثير من مفاهيمه التقليدية .

ونظرا لقلة التمردات والطفرات في أدبنا ، ونظرا لأن الأديب الجزائري يبدو تقليديا بطبعه ، فان المدارس والتيارات وتنوع الموضوعات قليلة « في الأدب الجزائري » ولعله في الامكان حصر المدارس في ثلاث : مدرسة الشهاب ، مدرسة البصائر ، ومدرسة ما بعد الاستقلال التي ماتزال غير واضحة المعالم . كذلك يمكن حصر التيارات في اثنين التيار التقليدي ، والتيار المتطور . أما موضوعات الأدب الجزائري فهي في الغالب سياسية اجتماعية مرتبطة بالتطور البنائي للبلاد ، وقلما كانت عاطفية ذاتية تعبر عن احساس داخلي للأديب .

مما يلفت النظر اذن أن الأدب الجزائري في عمومه أدب راكد ولا يتطور الا في اطار ضيق وببطء شديد لعله ممل . فنحن لا نجد فيه تمردات وانتفاضات خلاقة كما يحدث في الآداب العالمية ، ولا نجد لأدبائنا مواقف مستقلة هجومية « خارجة عن القانون » . كلنا نعرف تقريبا مواقف بعض أدباء فرنسا أثناء حرب

التحرير الجزائرية . وكلنا نعرف تقريبا مواقف أدباء روسيا في السنوات الأخيرة من نظم بلادهم . ولعل جميعنا نعرف عن مواقف أدباء أمريكا اليوم من قضايا الساعة كحرب فيتنام .

لقد كنت أقرأ أخيرا أن الشاعر الأمريكي روبير بلاي قد أعلن في حفلة تسلمه جائزة الشعر على ديوانه «الضوء حول الجسم» . «انني لا أشعر براحة في حفلة تركز على حالة ثقافتنا العليا الحالية . لقد أصبح في امكاننا ان نخمد ثورة كما فعل الروس في بودابيست ، وان نحطم مدينة كما فعل الألمان في ليديس » ثم أعلن منح جائزته التي تبلغ ألف دولار الى حركة معارضة التجنيد .

انه من الواضح ان التمرد ضرورة للخلق الفني . ونعتقد انه لكي يكون الأدب العربي أدبا خلاقا ، يجب أن يكون أصحابه مستقلين في مواقفهم وأحكامهم . ان أسوأ ما يتعرض له الأديب هو التوجيه من الأعلى واحتكار أفكاره من السلطة ، أيا كان نوعها . كيف يمكن أن نخلق في الفكر اذا لم يكن هناك تمرد ؟ وكيف يتسنى الاصلاح الديني اذا لم تكن هناك ثورة عقائدية ؟ وكيف يمكن أن نصل الى الديمقراطية اذا لم تكن هناك معارضة ؟

ان الخروج من هذا الركود الذي نعانيه يتوقف على عدة عوامل :

1 ـ ايمان الأديب برسالته وقدسية الكلمة التي هي شعاره وسلاحه .

2 ـ استقلالية الأديب ، حتى لا يصبح آلة في يد فرد أو حزب ، أو سجين مذهب ما .

3 ـ تضامن الأدباء وتعاطفهم لأن ما يضر بواحد منهم يضر بالجميع .

4 ـ تسامح السلطة مع الأديب والنظر الى انتقاداته وثوراته لا على أنها خطر يجب القضاء عليه ، ولكن على أنها علامة ميلاد شيء جديد ودليل على حيوية وخصوبة المجتمع .

واذا كان هناك موضوع يشعر معظم الحاضرين انهم مرتبطون به ارتباطا كليا ، فهو موضوع هذه الندوة بالذات . ان « الأدب الجزائري الحديث » موضوع جدير بالطرح والمعالجة واتخاذ المواقف بشأنه . ومن حسن الحظ أن هذه الندوة تنعقد يوم انعقاد مؤتمر الأدباء العرب في القاهرة الذين اتخذوا « أدب المقاومة »

موضوعا للمناقشة . ولاشك أن ما يشغل اخواننا الأدباء هناك يشغلنا نحن هنا في الجزائر.

ان هناك جوانب كثيرة تبدو جديرة بالاثارة الآن ، فما مدارس ومراحل وموضوعات الشعر ؟ وما قيمة القصة ؟ وما علاقة ما ينتجه الجزائريون بالفرنسية بالأدب الوطني ؟ ثم ما مكانة الأدب الجزائري في مجموعه بالمقارنة الى الآداب الأخرى ؟

هذه هي بعض القضايا التي سيعالجها أعضاء الندوة ، واني مرة أخرى أدعوكم للمشاركة الفعالة بمناقشة خصبة بناءة ومسؤولة ، وشكرا .

جامعة الجزائر ، 1968/3/16.

محمد العيد
كبير شعراء الجزائر

تمهيد :

محمد العيد شاعر معاصر خدم الأدب العربي في الجزائر ونهض به بعد أن كادت موجة التفرنس تبتلعه أثر الزحف الذي قامت به الثقافة الفرنسية على معالم تراثنا القومي ابان الاحتلال .

وهنالك عوامل كثيرة جعلت محمد العيد كبيرا لشعراء الجزائر أو أميرا لشعرائها كما كانوا يطلقون عليه : منها أنه جاء بعد أن نضج الشعر العربي في المشرق وكثرت مدارسه ومذاهبه ودخله كثير من التجديد والتلوين على يد شعراء المهجر والمتأثرين بالشعر الغربي من المشارقة أنفسهم . ومنها ان أكثر تجاربه كانت مستوحاة من صميم الحياة الشعبية بما فيها من صراع وهدوء وشقاء وامل . ومنها انه جاء بعد فترة ركود ثقيلة في الحركة الأدبية والشعرية على وجه الخصوص .. حتى لقد غلب على ظن المتشائمين انها لن تستطيع النهوض ثانية واستعادة نشاطها وصلتها بتيار الأدب في المشرق لاسيما بعد ذلك الكابوس الرهيب الذي شل حركة الفكر عموما في الجزائر وحركة الأدب بوجه خاص اثر العهد الطويل الذي مكثه الاحتلال والوسائل التي لجأ اليها للقضاء على كل ما هو عربي .

فقد بقيت الحركة الأدبية متجمدة متخذة من وسائل التعبير القديمة غذاء لها في تاريخها مدى العهدين التركي والفرنسي لم تحاول أن تضيف جديدا أو تلقح قديما أو تسرع الخطى الى ما هو أفضل واجمل . وكان ادباء هذا العهد من ناثرين وشعراء

لا يحسون بما حولهم من ضجيج الحياة وصخب الزمن بل صموا آذانهم وغالطوا حواسهم حتى لا تشعر بما حولها . من هؤلاء مثلا المولود بن الموهوب الذي كان ينظم في الصبر والصلاة وفي المودات وأهل القرابة وفي الفقه والمتون ومنهم ابراهيم أبو اليقظان الذي كان ينظم في الأقليمية الضيقة ويتحدث عن الشريف ابن العفيف فلان وعن سيرة الشهيد بن سلسلة الذهب صاحب المقامات وغير هذين من الشعراء الذين كانوا بعداء عن الواقع المر الذي يحياه الشعب الجزائري وعن العصر الذي يتقلبون فيه .

وتأتي بعد ذلك مرحلة أخرى كان لا بد لحركة التطوران تمر بها وهي المرحلة التي ظهر فيها شعراء حاولوا الاتصال بالحياة العامة فوفقوا الى حد في اختيار الموضوعات على الأقل ولكنهم ظلوا متأثرين بالماضي السحيق يجرجرون خلفهم التعابير الجاهزة ويلوكون صيغ الاقدمين ومن هؤلاء أحمد الغزالي ومحمد اللقاني وسعيد الزاهري فقد وجدنا في شعرهم وشعر من سار في دربهم حديثا عن الصراع بين الثقافتين : العربية والفرنسية ووصفا للسياة الاجتماعية بما فيها من فقر وجهل وحزبية وتخلف ولكننا لم نجد في شعرهم اصالة التعبير ولم نحس بحرارة العاطفة أوروعة الموسيقى خلال تجاربهم المختلفة .

مع الحياة :

وقد يكون من الصدف أن يولد محمد العيد في الجزائر في نفس السنة التي توفي فيها البارودي في مصر فقد ولد عام 1904 في مدينة (العين البيضاء) من أسرة دينية سلفية وتعلم العربية وفروعها على والده والمثقفين من أسرته . ثم انتقل منها الى (بسكرة) على أبواب الصحراء حيث تابع دراسته المعروفة في ذلك الوقت . وفي عام 1922 تاقت نفسه للذهاب الى تونس للحصول على شهادة (التطويع) من جامع الزيتونة الذي كانت له شهرة دينية وثقافية في المغرب العربي كمعقل اسلامي عربي قديم . وقد زاد من شوق محمد العيد لتحقيق هذه الأمنية أن بشائر النهضة القومية كانت قد أخذت تروج وتبعث الامال في النفوس التي ظل يساورها اليأس حوالي قرن من الزمان .. فقد نشط السياسيون من جهة يدافعون عن الحقوق السياسية والاجتماعية ونهض من جهة أخرى من دعاة الاصلاح

القومي بزعامة الشيخ عبد الحميد بن باديس ينادون بتحرير الدين من فرنسا وانقاذ اللغة العربية وثقافتها ووسائلها التي كادت تتلاشى بفعل الاحتلال البغيض.

وفي جامع الزيتونة حاول العيد أن يكون شخصية مثقفة راسخة المعلومات تجمع بين القديم والحديث ، بين الحياة الدينية التي ورثها أبا عن جد وبين الحياة المادية التي يعيش تحت شمسها ويتنفس هواءها صباح مساء ولكن هذه المحاولة لم يقدر لها ان تتم حتى تحقق النجاح فقد عاد الشاعر بعد نحو عامين الى الجزائر لأسباب عائلية فأستقبلته الحياة الجديدة التي فرضها الوعي السياسي الذي أخذ يعم أرجاء البلاد على الخصوص في المدن الكبيرة حيث تنتشر الثقافة وتقرأ الصحف وتعلن المذاهب السياسية المتنافرة . ولم يجد الشاعر بدا من الاندماج في هذا الجو والمشاركة في الحياة التي كأنما أعدت له أوأعد لها ،حياة المدرسة والتعليم وتربية النشء الجديد (*) .

وقد كان للشيخ ابن باديس أثر كبير في هذا الاختيار الذي يبدو في الواقع اضطرارا فقد رشحه الشيخ لادارة (مدرسة الشبيبة) التي كانت مدرسة شعبية أنشأها الخيرون من أبناء الجزائر لكي تؤدي رسالة تربوية وثقافية ولهذا أطلقوا عليها (مدرسة الشبيبة الإسلامية) وقد رجا أولئك المصلحون من الشيخ ان يختار لهم أكفأ رجاله العاملين في الحقل الثقافي فكان محمد العيد . ونحن لا نجد في شعره أية اشارة الى هذا الاختيار أو هذه الظروف فهل كان للشاعر يد في هذا الاختيار؟

وقد يتساءل الباحث عن الأسباب التي جعلت محمد العيد يرضى بالبقاء في هذه المدرسة أكثر من أثني عشر عاما فهل كان هذا الرضى تحت ضغط الحياة المادية وحدها أوكانت هناك عوامل أخرى ؟ الواقع أن الشاعر أجاب عن هذا السؤال بكل صراحة وذلك حين سمع بعض أصدقائه يتهامسون بازدراء وظيفته وينتقدونها بأنها مجلبة للهموم والأوجاع ويزعمون أنه انما يضيع وقته مع هؤلاء الصغار الذين لا يفقهون ما يلقى عليهم فقد أجاب الشاعر أولئك الأصدقاء بأنه راض كل الرضى

(*) نشرت في مجلة الآداب البيروتية عدد مايو ، 1960 انظر : كتابنا (محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث) دار المعارف ـ مصر ـ الطبعة الأولى سنة 1961 والثانية (منقحة ومزيدة) سنة 1976.

عن مهنته وأنه يعلق على تلاميذه الصغار آمالا فساحا ! فهم سيروون عنه الشعر وسيجعل منهم طلائع تذود عن الوطن والاسلام والعروبة وسيكون منهم الخطيب المصقع والاديب والشاعر المبدع والزعيم المناضل وذلك اذ يقول :

أرى جل أصحابي أزدروا بوظيفتي ... وقالوا هموم كلها ووجائع
وقد زعموا عمري مع النشء ضائعا ... وتالله ما عمري مع النشء ضائع
سيروون عني الشعر والعلم برهة ... وتطلع للاسلام منهم طلائع
فمنهم خطيب حاضر الفكر مصقع ... ومنهم أديب طائر الصيت شائع
ومنهم ولوع بالقوافي لفكره ... بدائه في ترصيفها وبدائع
ومنهم زعيم للجزائر قائد ... له في مجالات الجهاد وقائع

لقد مكث الشاعر طويلا في هذه المهنة دون أن يعتريه سأم أو يطمح الى ترقية حتى قيام الحرب العالمية الثانية تقريبا . وفي هذه الأثناء تكدر الجو بينه وبين من لم يقدروا جهاده وفنه فخاب أمله واعترته أزمة أثرت عليه تأثيرا حادا جعله يصمت حينا ثم يتجه بشعره اتجاها صوفيا ويختار الهروب من الناس ومن الأصدقاء فيقول في الأولين :

ظننت في الناس خيرا ... فخاب ظني وخبت
كم قلت شيئا كثيرا ... في مدحهم وكتبت
لقد كذبت فحسبي ... في شأنهم ما كذبت
وليت نحوك وجهي ... وتبت يا رب تبت

وفي الاخرين يقول :

وبين حشاي بربي رفيق ... صددت على الرفاق به اكتفاء
ان صادقوا فادعاء ... أو صاحبوا فانتفاعا

لأنهم لا يخلصون في صداقتهم ولا يصاحبون الا لمصلحة ذاتية .

وتقسو عليه هذه الأزمة حتى تكرهه على ترك العاصمة والعودة الى بسكرة حيث الطبيعة مجردة صافية وحيث الناس البسطاء والهدوء الشامل فيقضي بها مدة لا ندري بالضبط أمدها أو العمل الذي اداه أثناءها وكل ما يمكن استخلاصه من

المعلومات التي لدينا عنه انه بقي هناك مدة الحرب العالمية الثانية وانه قد يكون مارس التجارة مع اخوته الذين يحترفونها منذ زمان وانه قد امسك عن قول الشعر أو على الأقل لم ينشر ما نظمه في هذه الظروف .

وعلى كل فقد عاد الى مهنته (التدريس) حين ذهب الى باتنة المدينة الساحرة التي تجمع بين روعة الشمال وبساطة الجنوب وبقي بها مدة مديرا لمدرستها العربية. وقد حدثنا بعض رفاقه والمتصلين به بأنه قد عانى من قسوة الحياة وجفاء الأصدقاء ما جعله يزداد شكا في الانسان وفي قدرته على تحقيق رسالة الخير والحق والفضيلة في هذا العالم ومع ذلك فلم يطاطىء رأسه للعاصفة بل استمر في كبريائه وشموخه يكافح في جبهتين : الأولى جبهة الياس والجحود لكي يعيش والثانية جبهة الاحتلال الثقافي للغته وقوميته لكي ينتصر .

ومن باتنة انتقل بأسرته وكبريائه وأفكاره الى (عين مليلة) حيث بها يناضل بإيمان الواثق بالنصر :

كما شئت فامطل يا زمان ببلغتي ... أو أبخل بها عني فما أنا يائس
أتحسب أني للحوادث راضخ ... واني منها جازع القلب بائس
سيأتي زمان للجزائر زاهر ... يطيب الجني فيه وتنمو المغارس

وفي أحضان هذه القرية الصغيرة الجميلة عاد محمد العيد الى الشعر بعد ان شاقه الفجر الجديد وجدد آماله بالناس وبالمستقبل وبعد أن تساءل عنه أصحابه وتلاميذه والمعجبون بفنه فقال يجيبهم جميعا معتذرا بأنه كان قد فقد جذوة الشباب مشيرا الى تلك الرحلة المريرة التي قطعها يصارع الأخطار وحيدا من غير أن يجد مسعفا واحدا يواسيه أو رفيقا مخلصا يضمد جراحه ويشد من أزره فأستسلم للقدر وفوض أمره للقضاء :

ولي عن الصبوات عزمي مدبرا ... ونبا عن الندوات والأشعار
وعدلت متئد الخطى عن رحلة ... في طيها استهدفت للاخطار
وفقدت فيها المسعفين فلم أجد ... سلوى سوى التسليم للاقدار
وجنحت للحرم الذي فارقته ... زمنا جنوح الطير للاوكار

ويتأسف على هذا الطائر الحزين الذي كان يملأ الآذان شعرا والقلوب طربا كيف يدعوه الناس والأصدقاء الى الغناء فلا يحس برغبة ولا يهزه النداء ويتساءل هل كان يخشى الصائدين المترصدين له أو أنه قد تعرض الى عاصفة هوجاء صيرته لا يلتذ بالغناء ولا بالهديل الموقع .

فيا أسفا يـدعى الحمام عشيـة ... ليسجع لكن لا يميل ليسجعـا
ترى خاف بعض الصائدين يصيبـه ... فيسقط مكسور الجناح مضعضعا
أم التاث من بعض الحوادث لوثـة ... بها لم يعد يدري الهديل المرجعـا

واستقبل قومه في احدى المناسبات الكبيرة بقصيدة منها هذه الأبيات المتحمسة :

نحن الجبال بنو الجبـال ... صدى الجبال بنا حـدا
مـن سامنـا باذايـة ... فعلـى الجبـال قـد اعتـدى
ومـن استهـان بنـا ... استهـان بهـا فحـل به الردى

وهكذا خرج الشاعر من عزلته الراكدة ومضى محلقا في الآفاق الواسعة يصف أحاسيسه بشعر عاطفي رقيق أو يتحدث عن آماله وآمال الشعب ومظالم الغاصبين بشعر رصين هادىء حينا وثائر حينا آخر وعندما قامت الثورة الوطنية الكبرى (نوفمبر 1954) كان محمد العيد ما يزال في عين مليلة وقد كتبت الصحافة عام 1955 أنه قد تعرض الى اضطهادات ومحاكمات قاسية وانه لجأ مرة أخرى الى بسكرة لعله يجد مكانا بلا لهيب ولكنه سرعان ما طاردته النيران وكادت تحرقه لولا العناية الالهية . وقد حالت الكثافات التي اصطنعها الاحتلال دون تتبع أخبار هذا الشاعر بل دون معرفة مصيره في أرض يترصد الموت فيها كل شريف .

ثقافته وتأثره :

من أنواع الدراسة التي باشرها محمد العيد نستطيع أن نحكم على لون ثقافته ، تلك الثقافة التي أثرت في إنتاجه واتجاهه . وقبل أن ندخل في تفاصيل هذه الدراسة نحب أن نقول أن الطابع العام لثقافته كان الطابع العربي القديم الذي كان سائدا في الجزائر بصفة خاصة وفي الوطن العربي بصفة عامة . فمراكز التعليم العربي لم تكن تتعدى الكتاتيب المنتشرة في القرى والمدن لتعليم القرآن ووسائل فهمه وتذوقه من

نحو وصرف يضاف اليها قليل من المنطق والتاريخ وربما شيء من الرياضيات الأولية ويمكن أن نسمي هذا النوع من الدراسات القرآنية اذ تشمل الى جانب تلك الفنون دراسات أخرى في الفقه والأصول والكلام الحديث والقراءات .

وينتقل الطلبة عادة من تلك الكتاتيب الى الدراسات المسجدية التي تكون في الغالب أوسع وأرقى أسلوبا ومادة من الدراسات الأولى ثم ينهون مراحل تعليمهم بالحصول على شهادة تشهد لحائزها بالحذق والاتقان ففي مصر كان الطلبة ينتقلون من الكتاب الى الأزهر مثلا وفي تونس يذهبون الى جامع الزيتونة وفي مراكش يقصدون القرويين أما في الجزائر فقد قضى الاحتلال على الدراسات المسجديـة باستيلائـه على المسـاجد نفسها ولم يبق الا على دراسـات الكتاب في بدائيتها الأولى ولذلك أضطر الجزائريون الذين أتيحت لهم الفرص ، إلى الاغتراب في سبيل التعليم العربي الذي صادره الاحتلال في بلادهم فكان بعضهم يذهب الى الأزهر ويتوجه آخرون الى القرويين ولكن أغلبهم ولا سيما منذ الحرب الأولى ـ كانوا يؤمون الزيتونة بتونس لعدة أسباب : منها قرب هذا الجامع الكبير منهم ومنها المساعدات المادية التي لا يجدونها في غير تونس اذ ذاك ومنها ، وهو عامل هام ، ان انتشار التعليم العربي الأولي كان أكثر في مقاطعة قسنطينة أي في الجهة الشرقية المجاورة لتونس بخلاف الجزائر الوسطى والغربية فقد كانت متخلفة نسبيا اذا استثنينا تلمسان من مقاطعة وهران .

وقد سار محمد العيد في هذا الطريق الذي وصفناه فدرس أولا على أبيه الذي كان من المتفقهين في الدين على النمط القديم وكانت له شهرة باعتباره أحد الرجال الذين ينتمون إلى فرق دينية ذات رواسب تاريخية ومذهبية عتيقة . وفي بسكرة توسع في التعليم على رجال اصلاء في الفقه والعربية اذ كانت هذه المدينة عريقة في عروبتها منذ فجر التاريخ العربي وحين قصد الزيتونة لم يبق بها أكثر من سنتين كما مر غير أنه خلال هذه المدة يمكن لشاب متوقد الذكاء شغوفا بالثقافة أن يكتسب خبرة واسعة ، والا يقضي أوقاته في غير الدرس والتحصيل خصوصا وهو يعلم أنه لم يفارق أهله وأرضه إلا لأداء هذه المهمة ثم يعود ويعلم أيضا أن من ورائه أباه يراقبه ويصرف عليه وينتظر عودته ربما ليحمل نفس الرسالة ويدخل في الزمرة التي يشرف عليها والده باسم آل خليفة (لقب العائلة) ولم يتفرغ للدراسة وحدها حين

رجع الى الجزائر ولم يجد متنفسا في الأرض الطيبة التي ولد على ثراها ليستوحي شعره من طبيعتها الساحرة وأهلها الكادحين بل وجد الواجب الوطني ينتظره . ومنذئذ دخل الحقل الوطني من أوسع أبوابه وهو باب الثقافة .

ولسنا ندري هل كان من الخير لمحمد العيد الشاعر أن يبقى طليقاينتقل من زهرة جميلة الى أخرى أجمل ويقتطف من ثمار الحياة ما يلذه دون أن يفرض عليه أحد ألوان الثمار التي يطعمها أو أن دخوله إلى المعركة الحامية بسلاحه الرقيق الوحيد كان أجدى عليه ؟ لسنا ندري أيهما كان الأفضل بالنسبة له وان كان هو من المؤمنين بأن دخوله الى خضم الحياة على النحو الذي وصفناه قد طبع شعره بطابع خاص سنذكره حين الحديث عن شعره وصلته بالواقع العربي في الجزائر . وأحس أنه لم يشبع نهمه من الدراسة وان السلاح الذي منحه له كتاب أبيه أولا وجامع الزيتونة ثانيا لا يمكنه من خوض معركة الثقافة والأدب بالذات في عصر يدين بالفكر و بين جيل يعتز بالمعرفة وفي بلد يتطلع الى عهد أفضل .

ولذلك عكف على دراسة أمهات كتب الأدب العربي القديم ممثلة في الأغاني والكامل وبيان الجاحظ ودواوين كبار الشعراء العرب في عصورهم المختلفة فقرأ من الجاهلي إمرأ القيس والنابغة وزهيرا ومن الاسلامي حسانا ، ومن الأموي جريرا والفرزدق وابن أبي ربيعة ، ومن العباسي المعري والمتنبي والبحتري وأبا تمام وأبا العتاهية ولم ينس موشحات الأندلسيين وروائع ابن زيدون ثم الاطلاع على مدارس النثر الأدبي في عصورها المتعاقبة ومن هنا لن نعجب حين نقرأ لمحمد العيد شعرا يستمد جذوره من أعماق التاريخ قالبا وموضوعا وعلى وجه التحديد من العصر العباسي . أما في الأدب المعاصر فقد قرأ شوقي وحافظا والرصافي وكان تأثره بحافظ بالذات كبيرا لاتفاق أوجه الشبه بينهما في أسلوب الحياة اذ كان كل منهما يستمد من الشعب وسائل قوته وموضوعات شعره ولعلنا نعود الى هذه النقطة حين نعرض لشعره الاجتماعي ومصادره .

وأثناء ذهابه الى الزيتونة وتوليه مدرسة الشبيبة أو فلنقل في الوقت الذي بدأ يدرس الأدب ويتذوقه كانت الى جانب مدرسة شوقي ورفيقيه التقليدية مدرسة أخرى جديدة في ادبنا العربي المعاصر وهي مدرسة جبران ورفاقه وكانت مباديء

هذه المدرسة وفلسفتها وانتاجها تصل الى الجزائركما تصل الى بقية الوطن العربي ويتأثر بها الأدباء المعجبون من الجزائركما يتأثر بها المعجبون من أبناء الوطن الآخرين. وكان محمد العيد في طليعة من تأثر بجبران ومدرسته وفلسفته وان كان هو ينكر أنه تأثر به في فنه وثورته على اللغة وأسلوب التعبير شعرا ونثرا ويزعم أنه لم يتأثر به الا في فلسفته عامة ونظراته في الحياة والأحياء وقد كان من الممكن أن يتمرد محمد العيد نتيجة تأثره بمدرسة المهجر كما تمرد الشابي زميله ومعاصره ولكن لأسباب وراثية واجتماعية اكتفى محمد العيد بالتأثر الهاديء دون أن يرفع السلاح في وجه القديم والقدماء كما فعل زعماء هذه المدرسة واتباعها .

ومع أن الصورة التي تكاملت أمامنا عن ثقافة هذا الشاعر ومصادرها توحي بأنه لا بد أن يكون متأثرا بهاتين المدرستين المتعاصرتين أو باحداهما وأنه لا بد أن يهتدي بمعالم القديم الذي أطال في دراسته وتشبع من اجوائه ، فانه ينكر ويصر على انكاره أنه قد تأثر بأحد أو اقتفى أثر كاتب معين أو عانى الم الدرس وعذاب البحث ولا يعترف بسوى (كتب الله) مصدرا يستمد منها المعرفة ويستوحي منها أغراضه الشعرية وقوته الروحية ويزعم أنه يقف وحده متعففا من أن يمد يده لكأس تتجاذبها الاف الأيدي وذلك في قوله :

يقولون هل نقبت في الكتب باحثا	فقلت لهم لم أقف آثار كاتب
وعفت فلم أشرب من الكأس فضلة	يزاحمني في رشفها الف شارب
ومن كان للاسفار في العلم راغبا	فاني للاسفار لست براغب
فحولي كتب الله من كل شارق	تزودني علما ومن كل غارب
غنيت بها عن كل درس معذب	وعن كل بحث في المراجع ناصب

والحق أننا لا ندري ماذا يفهم الشاعر من اقتفاء الأثر والاقتداء بالكتاب فان كان يعني التقليد المحض فقد نوافقه على أنه لم يضع على عينيه عصابة سوداء ويسير في الطريق الوحل بغير دليل وان كان يعني مجرد التأثر والاقتباس الخفيف نتيجة الاشتراك الثقافي أو الاتفاق الموضوعي فهذا مالا نستطيع أن نوافقه عليه مهما تغالى في الانكار.

ولعل الأبيات السابقة كافية لأن تنفي عنه الاصالة لو اننا اقتصرنا عليها كدليل .

أربع رسائل بين باشوات الجزائر وعلماء عنابة

ما تزال نصوص العهد العثماني الأدبية والتاريخية مجهولة أو ضائعة (*) . ولكن الحظ يسعدنا من آن الى آخر فنعثر على بعض الرسائل أو القصائد أو الاجازات أو العقود أو التقاريظ أو نحوها . وقد سبق لنا أن نشرنا قصيدة لمحمد بن ميمون في تهنئة ابن عبدي باشا بانتصاره على أحد الثوار في الغرب الجزائري (1) ،واجازة أحمد بن عمار لمحمد خليل المرادي (2) . كما نشرنا بعض مقامات وأشعار لابن حمادوش الجزائري . واليوم نود أن ننشر أربع رسائل تاريخية وأدبية تبادلها يوسف باشا في القرن الحادي عشر الهجري (17م) ومحمد بكداش في القرن الثاني عشر (18م) مع عالمين من علماء عنابة ، وهما محمد ساسي البوني وحفيده أحمد بن قاسم البوني . وقد كنا استفدنا من هذه الرسائل في كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) ولكن أهميتها الأدبية والتاريخية جعلتنا نقدم على نشرها كنصوص كاملة لعل الباحثين المهتمين بتاريخ وأدب الجزائر خلال العهد العثماني يجدون فيها أيضا الفائدة والمتعة معا .

1) **تقديم الرسائل :**

وجدت هذه الرسائل في المكتبة الوطنية بباريس رقم **6724** مجموع . ويحتوي هذا المجموع أيضا على كتاب (سحر البلاغة وسر البراعة) لأبي منصور

*) نشرت في الثقافة . 51 ، 1979 .

1) الثقافة، 15، 1973، وهي منشورة أيضا في كتابي (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) الجزائر، ط 2 ، 1982 .

2) الثقافة، 45، 1978 .

الثعالبي (1) . وتوجد الرسائل في أوله من ورقة 4 ظهرا الى ورقة 9 ظهرا أيضا . وتحتوي كل صفحة على حوالي 19 سطرا وليس هناك تاريخ لنسخ الرسائل ولا اسم لناسخها . غير أن خطها جميل وبعض العناوين والانتقالات مكتوبة بالأحمر والحروف البارزة . ويبدو أن المجموع كله كان في حوزة أحد علماء قسنطينة ، لأننا وجدنا عليه تملكا لمحمد بن حسن نعمون سنة 1221 . ثم انتقل هذا التملك الى أحد انجاله سنة 1229 . وكانت أسرة ابن نعمون من الأسر العلمية في قسنطينة (2). ولعل المجموع كله قد انتقل الى هذه الأسرة من عنابة حيث عائلة البوني المشار اليها والتي يبدو أن الرسائل كانت من محفوظاتها . والرسالة الثانية في المخطوط هي الرسالة الرابعة في ترتيبنا . ذلك أننا رأينا أن تكون الرسائل الثلاث المتبادلة بين يوسف باشا ومحمد ساسي مرتبة منطقيا وزمنيا . هذا وقد كنت نسخت هذه الرسائل من المخطوط المذكور بتاريخ 18، 19، 20 يوليو سنة 1978، ولم استطع تصويرها في الحين للروتين الشديد الذي تتمسك به المكتبة ، فلجأت الى النسخ رغم ما فيه من العناء وضياع الوقت (3).

2) الأشخاص الواردون في الرسائل :

والشخصيات المشار اليها في هذه الرسائل تحتاج الى بعض التوضيح فيوسف باشا قد تولى حكم الجزائر عدة مرات بين سنوات 1044 و 1064 . ومن الأسباب التي كانت تؤدي به الى الصعود تارة والسقوط تارة أخرى طبيعة الحكم العثماني في الجزائر الذي كان قائما على العنف والغلبة وتأييد أو سخط الانكشارية . ومن جهة أخرى واجه يوسف باشا ثورة عظيمة كادت تعصف بالنظام العثماني كله، ولا سيما في شرق الجزائر . وهي الثورة المعروفة بثورة ابن

---

1) نسخة محمد سعيد الشباح التنسي الأصل التلمساني المنشأ سنة 1051. وفي آخره ختم غير مقروء. وكان الشباح من الشعراء المجيدين أيضا.ولعل المخطوط قد انتقل من تلمسان (أو من مدينة الجزائر) حيث كان يقيم الشباح الى عنابة ومنها الى قسنطنة .

2) في (منشور الهداية) لعبد الكريم الفكون أخبار عن علماء هذه الأسرة في قسنطينة خلال القرن العاشر والحادي عشر (16م ـ 17م) .

3) طلبت تصوير الرسائل فقيل لي عليك أن تترك الطلب . وحين يأتي دورك ، الذي قد يكون بعد عدة أشهر، نرسل اليك تقدير التكاليف . وعندما تدفع التكاليف ننجز لك التصوير . فعدلت عن الطلب أصلا .

الصخري (1). وقد كانت هذه الثورة من أسباب المكاتبة بين يوسف باشا ومحمد ساسي البوني .

وخلاصة الثورة ان مراد باي ، والي قسنطينة ، قد أحس باستقلال شيخ العرب ، محمد بن بو عكاز الصخري ، شيخ الذواودة والحنانشة ، فأمسكه عنده متهما له بالتمرد والعصيان . وبعث الى الباشا والديوان في الجزائر يستشيرهم في قتله فأشاروا عليه بذلك وقد نفذ الباي الحكم في محمد بن الصخري وابنه أحمد وعدد آخر من أعيان العرب . وعلقت رؤوسهم على أبواب قسنطينة . وكان ذلك سنة 1047 . فما كان من أحمد بن الصخري وهو أخ القتيل ، الا أن أعلن الثورة . وقد أمتدت من الزيبان والصحراء شرقا وجنوبا الى حدود أقليم الجزائر (أو دار السلطان ، كما كانت تسمى) . وشملت رياح الثورة بسكرة وعنابة وقسنطينة . وسطيف وحمزة وغيرها من المدن والقرى . وتأثرت التجارة وتعطلت الطرق وشاعت الفوضى . ودارت المعارك الضارية ، وهذا ما جعل يوسف باشا يعدل ـ كما قال في الرسالة ـ عن الجهاد في وهران الى التوجه بنفسه لمحاربة الثوار في الشرق الجزائري .

وكان من أساليب الحكم العثماني في الجزائر الاعتماد على المرابطين والعلماء وقت الشدة باعتبارهم كانوا يمثلون الرأي العام ويؤثرون بالنصح والموعظة والنفوذ الروحي على العامة وقد عرف عن يوسف باشا أنه كان من الحكام الذين يقربون العلماء ويعفون المرابطين والأشراف من دفع الضرائب ويهادونهم ويكرمونهم . ومن الذين قربهم يوسف باشا واستصفاهم المفتي سعيد قدورة ، وعلي بن عبد الواحد الأنصاري السجلماسي الذي استوطن الجزائر ، وعيسى الثعالبي المحدث الشهير ، وعبد الكريم الفكون شيخ الإسلام بقسنطينة (2) ، ومحمد ساسي البوني (3) ، عالم عنابة ومرابطها الذي تبادل معه الرسائل التي نحن بصددها .

---

1) عن هذه الثورة ، أنظر : فيرو (المجلة الافريقية) ، 1966 ، 179 ، وفايسايت (روكاي) 1867 ، 333 ، وبير بروجر (المجلة الافريقية) 1866 ، 337 .

2) ترجمنا لهؤلاء العلماء الأربعة في كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) .

3) توجد أخباره في (منشور الهداية) للفكون، وفي (اجازة) أحمد البوني لابنه أحمد الزروق. وكلاهما مخطوط .

ومحمد بن ابراهيم ساسي البوني كان مرابطا وعالما بارزا في عنابة خلال النصف الأول من القرن الحادي عشر (17م). وقد تحدث عنه معاصره عبد الكريم الفكون القسنطيني في كتابه (منشور الهداية) واتهمه بالمبالغة في التصوف باستعمال الحضرة وانشاد الأشعار والرقص الصوفي بالآلات الموسيقية . وكان محمد ساسي من أتباع الشيخ طراد الذي كان أيضا من المبالغين في ادعاء التصوف في عنابة ونواحيها . واتهم الفكون أيضا محمد ساسي بأنه كان يأخذ أموال الناس بالباطل ويفرض ضريبة على فقراء الأندلسيين . ومهما كان الأمر فان محمد ساسي كان له صيت في زمانه في عنابة ونواحيها . وله مؤلفات معظمها في علم التصوف تحدث عنها حفيده أحمد البوني . وكان محمد ساسي أيضا كثير الشعر . وتشهد رسالته الى يوسف باشا بأنه كان أيضا أديبا منشئا .

أما محمد بكداش (1) فقد تولى حكم الجزائر سنة 1118هـ . وبقي حوالي أربع سنوات ثم قتل على يد خصومه . وقد أمتازت سيرته بعدة أمور جديرة بالذكر . من ذلك أن في عهده استرجعت وهران من اسبانيا ، وكان قائد الحملة هو أوزن حسن (2) ، صهر محمد بكداش ، مع الباي مصطفى بوشلاغم (3) . وكان محمد بكداش قد جاء الى الجزائر من أناضوليا صغير السن سنة 1086 ودخل الجندية كعادة الشبان الاتراك . وظل يترقى في المناصب الحكومية فتولى سنة 1107 وظيفة حامل راية العسكر (أو سنجق دار الجيش) ، وسنة 1112 تولى تقسيم خبز العسكر ، وهو منصب هام في بلاد كان فيها الانكشارية هم كل شيء تقريبا . وفي سنة 1117 أصبح بكداش دفتر دار الحكومة أوكاتبها العام ، ومن ثمة أضيف الى اسمه لقب « خوجة » أيضا ، ثم توج ذلك كله بتولى باشوية الجزائر سنة 1118 ، كما أشرنا .

---

1) ترجم له محمد بن ميمون في (التحفة المرضية في الدولة البكداشية) تحقيق محمد بن عبد الكريم، 1972 وتوجد أخباره في (شرح الحلفاوية) لعبد الرحمن الجامعي، مخطوط باريس رقم 5113 .

2) قتل أيضا مع صهره محمد بكداش الذي كان قد رشحه لخلافته. وتوجد بعض الأخبار عنه أيضا في (التحفة المرضية) لابن ميمون .

3) حكم أقليم الغرب الجزائري حوالي خمس وعشرين سنة، وبعد فتح وهران الأول نقل مقر الحكم اليها. وقد جمع ثروة طائلة. وتوجد أخباره في كتب الرحالة الأجانب، ولا سيما، لافاي وخيمينيس .

وكان محمد بكداش ، بالاضافة الى ذلك ، من « مثقفي » باشوات الجزائر فقد كان أبوه نور الدين بن علي من المهتمين بالتصوف . وهو الذي قيل أنه تنبأ له بتولي ولاية الجزائر . وأثناء وجوده في الجندية أنضم محمد بكداش الى طريقة قاسم بن محمد ساسي (1) البوني في عنابة ، وتردد عليه . ولعل أسمه نفسه (بكداش) يذكرنا بمؤسس الطريقة البكداشية الشهيرة (2) في بلاد الترك على عهده . وهي التي كان لها السلطان الروحي على الجيش الانكشاري . وكانت محل اجلال سلاطين آل عثمان وأتباعهم . كما أن محمد بكداش ، خلافا لكل الباشوات تقريبا كان يقرأ العلم وينظم الشعر بالعربية ويخطب بها ويتقرب من العلماء . وقد قيل انه صعد ذات مرة المنبر فوعظ الناس وحذرهم ، وكان ذلك سنة 1104 أي قبل توليه الحكم بأكثر من عشر سنوات . ومهما كان الأمر فان محمد بكداش كان على صلة قوية بعائلة البوني ، ولا سيما أحمد بن قاسم ساسي الذي تبادل معه الرسائل ، ومنها الرسالة التي سنتحدث عنها . ومما يلاحظ أن هذه الرسالة قد كتبت عندما كان بكداش ما يزال متوليا على خبز العسكر .

وكان أحمد البوني من كبار علماء الجزائر في وقته (3) . وقد ولد سنة 1063 وتوفى سنة 1139 . وترك أكثر من مائة تأليف جمعها في رسالة سماها (التعريف بما للفقير من التأليف) . وكتب في كل العلوم تقريبا من طب وفقه ونحو وتاريخ ورحلة . وكان البوني قد درس في عنابة وتونس ومصر والحجاز ، ومن شيوخه يحي الشاوي وبركات بن باديس . وقد ذكر عددا آخر منهم في اجازته لابنه أحمد الزروق ، وفيهم المغاربة والمشارقة . وقد حج وكتب رحلة حجازية وممن نوهوا به

---

1) قاسم ابن ساسي ، هو ابن محمد ساسي ووالد أحمد البوني الآتي ذكره ، ولا يعرف أنه من المؤلفين ، غير ان بروكلمان 691/2 نسب له عملا في الحديث بأسم (المنحة الالهية في الآيات الاسرائية). وكان قاسم كوالده من أصحاب الطرق الصوفية (الشاذلية) والعلم أيضا .

2) تنسب إلى الحاج بكداش (قيل توفي سنة 738 هـ) أنظر : عن أثر هذه الطريقة في الحياة العسكرية والسياسية العثمانية في كتاب جيب وباون (المجتمع الاسلامي والغرب) المجلد الأول، القسم الثاني ، فصل الدراويش .

3) أخباره في (فهرس الفهارس) للكتاني 170/2 . وفي اجازته هو لابنه أحمد الزروق . مكتبة زاوية طولقة ، وفي رحلة ابن حمادوش، مخطوط مصور عندي. وقد استوفينا ترجمته في كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) .

عبد الرحمن الجامعي في (شرح الحلفاوية) ومحمد بن ميمون في (التحفة المرضية) .

3) **محتوى الرسائل** :

أ) الرسالة الأولى موجهة من يوسف باشا الى محمد ساسي البوني . وقد أخبره فيها أنه كان عازما على الجهاد ضد الأسبان في وهران ، ولكنه عدل عن ذلك لوقوع الثورة في شرق الجزائر لأن الحكمة ، كما قال تقتضي تقديم الأهم على المهم . وانه قرر التوجه شخصيا الى قسنطينة وبسكرة ونواحيهما لاخماد نيران الثورة وتفقد أحوال الرعية . وقد ركز الباشا على ابراز دور العلماء في مثل الظروف التي كانت تمر بها البلاد من وجوب طاعة أولي الأمر ونصح الرعية وتفادي الفتنة وذلك بالاشارة الى حرب أبي أيوب الأنصاري تحت راية اليزيد وصلاة عبد الله بن عمر خلف الحجاج بن يوسف ومبايعته لابن مروان ، وبكون الدولة لا تقوم الا على « سنان الولاة ولسان الهداة » ، وهي رسالة هامة تكشف عن مفهوم دور العلماء عند الولاة العثمانيين وتاريخها هوأوائل ذي الحجة سنة 1050 .

ب) الرسالة الثانية (وهي الثالثة في المخطوط) ، بعث بها محمد ساسي البوني إلى يوسف باشا جوابا على رسالته السابقة ، وهي بدون تاريخ ولكن من الواضح انها كتبت في أواخر الشهر المذكور أو أوائل شهر المحرم سنة 1051 . وقد طلب الشيخ محمد ساسي العفو لأهل عنابة ونواحيها وأشار فيها الى تأثره لما جرى من أحداث ومعاناة الباشا منه ، ونصح الباشا بالصبر والثبات قائلا ان الرجال الأشداء لا تهزهم العواصف وان ما بعد الشدة الا الفرج ، وان ما عليه الناس من الخير والشر انما هو مظهر من مظاهر وجود الله سبحانه وتعالى . و وعد محمد ساسي الباشا بأنه لا ينكث له عهدا ولا ينسى له ودا . والرسالة مليئة بألفاظ المدح والثناء للباشا ، ويظهر عليها طابع الضعف أمام شدة الموقف ، والخوف من مغبة الحوادث .

ج) الرسالة الثالثة (وهي الرابعة في المخطوط)رد بها يوسف باشا على رسالة محمد ساسي السابقة وتاريخها هو أوائل صفر سنة 1051 . وبعد أن خاطب

الباشا محمد ساسي بألقاب الاطراء العلمية والصوفية أشار الى أن العامة قد تفسر العفو عنها بالضعف لأنها لا تعرف حقائق المذاهب ، ولا تنظر العواقب . ثم انهم قد أساؤوا الى السلطة والنظام في البلاد بتمردهم فاستحقوا العقاب الشديد . غير أنه ، مع ذلك ، سيعفو عنهم تقديرا للشيخ محمد ساسي ولكن الباشا لم يؤخر الجهاد في وهران الا للقيام باعادة النظام في البلاد ، والقضاء على الفتنة . فعلى محمد ساسي وأمثاله من العلماء والمرابطين ان يقوموا بدورهم نحو الباشا ونحو الأمة الاسلامية ، لأن طاعة السلطان من طاعة الله والرسول .

د) الرسالة الرابعة (وهي الثانية في المخطوط) بعث بها محمد بكداش، عندما كان ما يزال مسؤولا على خبز الجيش ، الى أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني ، وذلك في جمادي الآخرة سنة 1115 . وقد أشاد بكداش بأحمد البوني وعائلته في العلم والولاية وأخبره أن رسائله تصل اليه ، وانه ما زال على العهد ، وانه مسرور بما أنجزه الشيخ من التآليف الكثيرة التي فرح بها أيضا أهل الأدب والعلم في مدينة الجزائر حين اطلعوا عليها ، وانه يطلب منه النصح والدعاء وتبليغ السلام له ولأهله ولمن يلوذ به . وهذه الرسالة بالمقارنة الى الرسائل الثلاث الأولى ، ليس لها موضوع سياسي محدد ، ولم تكن الا واحدة من بين عدد كبير من الرسائل والأراجيز ونحوها مما كان يتبادله الرجلان والذي أورد بعضا منه محمد بن ميمون في (الحفة المرضية) .

4) القيمة التاريخية والأدبية للرسائل :

لهذه الرسائل قيمة تاريخية كبيرة . فهي تكشف عن علاقات بعض الباشوات العثمانيين في الجزائر بالعلماء في وقت الشدة . ومع أن محمد بكداش قد حكم ، وهو في منصب الباشا على المفتي أحمد بن سعيد قدورة بالاعدام (1) بدون ذنب واضح ، فإنه كان على صلة قوية بعائلة البوني في عنابة وأغلب رجال العلم في

1) أنظر: عن قصة إعدامه ابن المفتي (المجلة الافريقية)، 1866، 292. وكان أحمد قدورة قد تولى الفتوى المالكية بعد أخيه محمد الذي توفي سنة 1107. وكان والدهم هو المفتي سعيد قدورة (توفي سنة 1066) من كبار علماء الجزائر كما سبقت الاشارة .

قسنطينة وتلمسان والجزائر . وكان انتصار جيشه في وهران على الأسبان قد رفعه في أعين العلماء والعامة . ولكن ذلك لم يمنع من قتله حين عجز عن دفع مرتبات الجيش بفرار باي قسنطينة الى تونس آخذا معه كل المال الذي كان سيصبه في الخزانة أثناء الزيارة المعروفة بزيارة الدنوش (1) .

أما يوسف باشا الذي لا نعرف الآن كيف توفي فقد كان في صراع مع خصومه ، مرة يعزلونه ويضعونه في السجن ومرة يظهر ويتولى الحكم رغما عنهم ، وهكذا . وقد كان الجهاد ضد الأسبان هو ورقة الحكام العثمانيين الرابحة لجلب الرعية واكتساب تأييد العلماء . فاذا توقف الجهاد ثارت الرعية وتحرك العلماء وكثرت الفوضى في البلاد . والحاح يوسف باشا في الرسائل على أنه كان يستعد للجهاد في وهران فحولته عنه ثورة ابن الصخري فيه اثارة لحماس العلماء ورجال الدين ودعوتهم الى ارشاد العامة والثوار على الخصوص بضرورة طاعة أولي الأمر . أليسوا قائمين للجهاد وحماية بيضة الاسلام ؟ وتكشف الرسائل أيضا عن خطورة ثورة ابن الصخري واتساع نطاقها . وقد دامت عدة سنوات واضطر يوسف باشا إلى الإقامة سنة في قسنطينة بسببها والذهاب بنفسه إلى منطقة الزيبان محاولا القضاء على الثوار .

وتظهر القيمة الأدبية لهذه الرسائل في أسلوب انشاء الدواوين في الجزائر خلال العهد العثماني . ذلك أنه من المؤكد أن يوسف باشا ومحمد بكداش لم يحررا شخصيا رسائلهما ، فهناك خوجات (أو كتاب اداريون) يقومون بهذه المهمة . واذا حكمنا من أسلوب هذه الرسائل فان الكتاب كانوا على درجة عالية من المعرفة التاريخية واللغوية وأساليب المخاطبة . فرغم ثقل بعض العبارات على آذاننا اليوم فان الرسائل مكتوبة بسجع مستصاغ وأسلوب رشيق وألفاظ انيقة ، بالاضافة الى استعمال الحكم والأمثال والآيات والأحاديث والأشعار . وقد تميزت رسائل يوسف باشا إلى محمد ساسي بتنوع الأسلوب من اطراء ووعد ووعيد وتذكير بدور العلماء نحو الأمة والحكومة كما اشتملت رسالة محمد ساسي إلى الباشا على التماس العفو واظهار الضعف والنصح بالصبر واستعمال العبارات الدينية

1) أنظر: فايسات (روكاي) 1868، 287. وقد قتل بكداش سنة 1122هـ (1710م). وعن زيارة الدنوش وأهميتها أنظر: (مذكرات الشريف الزهار) تحقيق أحمد توفيق المدني، الجزائر، 1974، 35 .

والصوفية والوفاء والاطراء أيضا . أما الرسالة الأخيرة فقد تماشت مع أسلوب الرسائل الاخوانية من كثرة المدح والاطراء والسؤال عن الأحوال والأهل وتبادل الأخبار السارة والاستشهاد بالشعر الرقيق ونحو ذلك من الأساليب البلاغية .

وليس لدينا من الرسائل الديوانية الأخرى في العهد العثماني الا القليل . ومن ذلك الرسالة التي بعث بها الشيخ محجوب الحضري على لسان باشا الجزائر سنة 1064 إلى سلطان المغرب (1) . وهي قطعة أدبية جديرة بأن يدرسها أساتذة الأدب اليوم . وهناك رسائل بعض البايات الموجهة إلى باشا الجزائر أيضا (2) . أما الرسائل الاخوانية فكثيرة نسبيا . وقد اشتهر من كتابها أحمد المقري وأحمد بن عمار (3) . وكان ابن عمار نسيج وحده في هذا المجال في عصر ساد فيه الفقه والتصوف على الأدب والفن . ومهما كان الأمر فان دراسة هذه الرسائل ونحوها من النصوص تدل على أن العهد العثماني في الجزائر لم يكن كله جدبا يبابا بل كان في صحرائه الواسعة كثيرا من الواحات المظلة الجميلة . ومن بحث وجد .

يوم 7 فبراير ، 1979 م

---

1) اطلعنا من هذه الرسالة على نسيخة المكتبة الملكية بالرباط رقم 4485 مجموع. ونص الرسالة منشور أيضا في (الاستقصا) للناصري السلاوي 22/7. وقد درسنا نحن في فصل النثر الفني من كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) أنواع الرسائل في العهد العثماني وأساليبها .

2) من ذلك رسالة الحاج أحمد باي قسنطينة الى حسين باشا ورسالة حسن باي وهران الى نفس الباشا. أنظر: بريسنيه (فن الكتابة العربية)، الجزائر وباريس، 1867، 144، 166 .

3) ترجمنا لأحمد المقري وأحمد بن عمار في كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي)، الجزء الثاني .

5) الرسالة الأولى : من يوسف باشا الى الشيخ محمد ساسي البوني :

مراسلة يوسف باشا بعث بها الى الشيخ سيدي محمد ساسي نفعنا الله به آمين. بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

من عبد الله ، الموفق بالله ، الغالب بعزته ، أبي الجمال يوسف باشا ، فتح الله له من أمكن التمكين ماشاء . الى سيادة الفقيه الصالح الناصح الولي العارف بالله المخلص اليه السريرة ، الدال على الله الداعي اليه على بصيرة ، أبي عبد الله سيدي محمد ساسي قوى الله مدده ، وأكثر حزبه وعدده ، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته على الخير والعافية ، والتوجه إلى الله تعالى في إصلاح حال هذه الأمة بألسنة ضارعة وقلوب صافية ، والتوسل في ذلك بجاه إمام حضرة الصفا ، ومقدم أهل الاصطفا ، ومخدوم من في الأرض والسماء والمنفرد من بين أهل الاختصاص بجلائل الاسماء ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . ثم بدعوات أمثالكم من الأولياء ، ولخطاب اشباهكم من الاتقياء .

هذا والمراد اعلامكم أناكنا أولا برمنا عقد العزم على الجهاد لوهران(1)، واستخلاصها من أيدي حزب الشيطان ، وانقاذها من ورطة الكفر والضلال . وانارتها بنور الايمان والاسلام وصالح الأعمال ، حتى عرض لنا ما حال بيننا وبين هذا الغرض وصد وجوه عزائمنا عن إزالة ذلك المرض ، وهو ما لا يخفاكم من

1) احتل الاسبان وهران سنة 914هـ وظلوا فيها الى سنة 1119 حين فتحها الجيش الجزائري بقيادة أوزن حسن والباي مصطفى بوشلاغم. ثم عاد الاسبان اليها ولم تفتح ثانية ونهائيا الا سنة 1205 في عهد حسن باشا وبقيادة الباي محمد الكبير .

انحلال أمور المسلمين بذلك الصقع (1) ، وكثرة الخلاف والشنآن ، وسائر أنواع الاختلال المذمومة بالشرع ، الممجوجة بالطبع ، واندراس آثار الطاعة السلطانية التي هي طاعة الله ، ومحو مراسمها وتشييد قواعد البغي والتسويلات الشيطانية وايضاح معالمها ، وتنكير المعارف وتعريف المنكرات ، ورفع المخفوضات (كذا)، وخفض المرفوعات (2) .

فتركنا مكنون العزم الجهادي في صدفه ، واخرناه الى أن يحل بدر ظهوره منازل سعوده وشرفه . ورأينا بصائب النظر . وما أوجبته صحائف الأثر ، أن تقديم الأهم فالأهم (3) هو المحمود العواقب . المحصل لجميع المقاصد والمطالب . فجردنا العزم بحسب ما أقتضاه الحزم بعد اعمال سنتي الاستخارة والاستشارة واستنجاح قضايا الرياسة والإمارة . بأن نتوجه نحو قسنطينة ومن (4) اليها ، وبعدها ، ان شاء الله ، بسكرة ومن لديها ، لامعان النظر في مصالح الرعايا ، واخماد نيران الفتنة ودفع البلايا وسماع الشكوى ، والقضاء بما تحتويه أحكام التقوى وتوفيق الكلمة ، وجمع الأمة المسلمة ، واظهار الحق ومحو الباطل ، وتوقير العالم وارشاد الجاهل ، وتمهيد القواعد وتشييد المقاصد ، وضبط الفوائد ، واصلاح الفاسد وتفقد أحوال الجباة (كذا) ، والحكام والولات (كذا) ، وايضاح معالم الهدى ، واعفاء مراسم الردي .

ورأينا أنه لا ينحي مع الله فيما قلدنا من أمور خلقه ، إلا أن نباشر ذلك بأنفسنا (5) طلبا لمرضاته وقياما بحقه . وكاتبناكم بجميع هذا . رضي الله عنكم ، لتعلموا حقيقة أمرنا ، وتطلعوا على خبية (كذا) سرنا ، ولتخبروا من هنا لكم بالمرام ، وما عولنا عليه من اصلاح أهل الاسلام . فلتخولوا ، رضي الله عنكم ، الخاصة

---

1) الاشارة هنا الى عنابة ونواحيها حيث الشيخ محمد ساسي. لكن الثورة قد عمت اقليم قسنطينة وهو المقصود بعبارة «ذلك الصقع» .

2) تدل هذه الأوصاف على اتساع ثورة ابن الصخري .

3) أي القضاء على الفتن الداخلية (ثورة ابن الصخري) قبل مواجهة العدو الخارجي (الاسبان) .

4) هكذا «من» والمراد «ما» . والظاهر ان ذلك لم يكن خطأ في الرسم وانما المقصود به ملاحقة الثوار في قسنطينة وبسكرة ونواحيهما .

5) باستثناء باشوات القرن العاشر فان باشوات الجزائر كانوا يكلون اخضاع الثورات ونحوها الى البايات في الأقاليم، وقد يرسلون اليهم نجدات بقيادة الأغا وأمثاله. وقلما كانوا يباشرون ذلك بأنفسهم .

والعامة بالذكرى والموعظة الحسنى ، كدأب العلماء في طريقتهم المثلى ، وسيرتهم المستحسنة ، فإن الملة الإسلامية لا يستقيم دينها ودنياها ، في قصوى مقاصدها ودنياها ، إلا بسنان الولات (كذا) ، ولسان الهدات (1) (كذا) . فردوا شاردهم إلى الله تعالى بالدعاء والدعوة ، ولكم في نبيكم صلى الله عليه وسلم وأصحابه أسوة ، وقد قاتل أبوا (كذا) أيوب الأنصاري (2) تحت راية اليزيد وأمثاله من الأعيان وصلى عبد الله بن عمر خلف الحجاج ، وبايع لابن مروان (3) ، وإنما فعلوا ذلك ليلا ينزعوا يدا من طاعة ، أو يخرجوا قيد شبر من السنة والجماعة ، ولا يشاقوا الله ورسوله لمنازعة سلطان ، ومعاونة على اثم وعدوان (4) ، رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون . ولوكان الخطاب مع غيركم لهديناه إلى نقول ، وألقينا له حجج المعقول والمنقول ، لكن أنت اليوم ، والحمد لله ، سيد المسلمين في تلك الأقطار ، وسيخ السنة والجماعة الذي عليه المدار ، أبقاكم الله بركة في البلاد ، ورحمة للعباد ، آمين .

وكتب بتاريخ أوليات ذي الحجة الحرام سنة 1050 ، عرفنا الله تعالى خيره ، وما بعده كملت بحمد الله تعالى ، وحسن عونه .

6) الرسالة الثانية : من الشيخ محمد ساسي البوني إلى يوسف باشا :

الحمد لله ، مراسلة بعث بها العالم العلامة القطب الرباني سيدي محمد ساسي للمعظم أبي الجمال السيد يوسف باشا يستشفع في أهل بلد بونة ، وهذا لفظها :

---

1) المقصود بالولاة الحكام مطلقا ، والهداة العلماء والمرشدين . وهذا مبدأ سار عليه الولاة العثمانيون في الجزائر .

2) حينما ولى معاوية أمر ابنه يزيد على الجيش وأرسله في غزوة الى القسطنطينية . وذهب أبو أيوب الأنصاري تحت رايته وقال «وما علي ان أمر علينا شاب» فمرض أبو أيوب وتوفي سنة 50 للهجرة ودفن قرب القسطنطينية.

3) يشير بذلك الى موقف الصحابي المحدث عبد الله بن عمر بن الخطاب حين أبي قبول البيعة لنفسه والعصيان على حكم بني أمية ، بل أنه قبل زعامة الحجاج بن يوسف الثقفي ، عامل بني أمية ، بالصلاة خلفه ، كما بايع لعبد الملك بن مروان بالخلافة ، حقنا لدماء المسلمين ومحافظة على وحدة الأمة .

4) في هذا أيضا تهديد واضح خوفا من انضمام العلماء الى ثورة ابن الصخري .

الحمد لله الذي أجرى بين الكاف والنون الطافا ، وجعل البرايا لسهام البلايا أهدافا ، فطوقهم تحمل أعباء صعوبتها فادا (1) (كذا) منهم أسود رجال لا تستفزهم الآلام بخطوبها ، كما أن متون الجبال لا تهزها العواصف بهبوبها ، حمدا يستنزل رحمة تجلي عن القلوب أدران كؤوبها ، وتستكشف غمة أشجان كروبها ، فهو الذي لا يخلي عباده من صنع تنطوي عليه أثناء النكبات إذا طرقت بضروبها ، ولطف بهم يلين لهم صعوبات الخطوب إذا جمحت بغروبها والصلاة والسلام الاكملان الاتمان على من فتحت بذكره الدعوات وانكشفت بالصلاة عليه البلوات ، فاستسهلت شدائد صعوبها ، سيدنا ومولانا محمد المالك زمام الهدى والتقى ، والدال على ما هو خير وأبقى ، الذي به اشراق شمس الانتظار بعد غروبها ، وعلى آله وأصحابه مقاليد قصد أولى الضير ومفاتيح نيل مطلوبها ، ومناهج عزائم أولي الصبر ومفاتيح بلوغ مرغوبها .

هذا ، وقد اختلس العبد هذه الكلمات ، والله يعلم منه كيف الحال، هاربا بضعفه لنزول رحمته ، وهبة عطفته ، سبحانه الكبير المتعال ، بأن يزيل ما ألم بنا من ألم ، ما نتلقاه من أخبار عنكم تنسد لها المسامع ، وترتج لها الاضالع ، نسأل الله سرعة تبدلها بأنباء تقربها العينان ، وتلتذ بها الأذنان ، وتنشرح بها الاذهان ، الجناب الأرفع المرغوب له من الله تعالى تعجيل شمل مسرته بلا توان ، وشمول نصرته بأقرب أوان ، الصدر الشهير والقدر المنير المعظم الأجل ، محبنا لله ورسوله عز وجل ، المطلوب منه له تيسيرما شاء ، سيف الدين أبو الجمال يوسف باشا ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

موجبه اليكم ، قد بلغ العبد ما أنفذه الله وقضاه ، وقدره بحكمه في خلقه وأمضاه ، وألزمنا التمسك بعصمة الصبر ، والتعوذ من الاعتراض عن مالك الأمر . وجعل فسحة لذوي الابتلاء ، في التوسل بجاه صدوق الأنبياء ، في سرعة الانقضاء فآه ! ثم آه ! أعيدها مترجعا متأسفا ، وارددها متوجعا متلهفا ، ولتعلم ، أعزكم الله ، ان كل شدة مآلها الى الارتخاء ، وان كل غمة انتهاؤها الى الانجلاء ، وغاية كل متحرك الى السكون ، ونهاية كل متكون دنيا الى أن لا يكون . وكم كربة

1) والصواب «فاذا» .

أورثت خيرا ، وكم مرشوكة اجتنيت ثمرا ، وما المحن إلا سيل بليل ، والسيل إذا وقف انصرف ، وإن بعد الكدر صفوا ، كما أن عقب المطر صحوا ، وكما أن الله ينزل قدره من حيث لا يرتقب ، كذلك يرسل لطفه من حيث لا يحتسب . والشمس بعد كشف نورها تستضاء ، والبدر أثر الخسوف يستزاد صفاء (1) .

نعم ، ان ما عليه العباد من التلوينات (2) ، إنما هي لأسمائه الحسنى مستظهرا ، وهي منه اليهم تعريفات ، فمن تعرف اليهم بأسمائه الجمالية الفضلية فمقتضى الحق منهم الشكر ، ومن تعرف اليهم بأسمائه الجلالية القهرية فمقتضاه منهم الصبر . نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن كمل فيهما بمشاهداته حتى لا يلتفت الى سواه عند تنقيص مراداته بمنه وكرمه ، آمين يا رب العالمين .

وها هو العبد الفقير ، ليس بناس لكم ودا ، ولا بناكث عهدا ، لا يزال سائلا لكم من الله قابل التوب ، وغافر الذنب ، تليين صعاب القلوب ، وتسهيل الصعوب بجاه أكرم الوسائل ، لكل سائل ، تحصيل كل مطلوب ، وبلوغ كل مرغوب ، سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم ، الذي به الغنى عند كل محبوب ، واختمه مصليا عليه مسلما صلاة منجية من جميع الأهوال والآفات ، مطهرة من جميع السيئات قاضية جميع الحاجات ، رافعة أعلى الدرجات مبلغة أقصى الغايات من جميع الخيرات ، في الحياة وبعد الممات ، وعائدة عليكم ورحمة الله وبركاته ، وعلى كل من أضحى بحضرتكم أنيسا ، وفي أرباب الصدور رئيسا ، ممن تقدم له الكتب (3) اليكم قبل هذا بمثله ، العبد الفقير الى مولاه الغني ، محمد أساسي (4) بن ابراهيم ، وفقه الله بمنه ، آمين آمين آمين .

7) الرسالة الثالثة : من يوسف باشا أيضا الى محمد ساسي البوني :

وهذا جواب المعظم يوسف باشا :

الدوحة التي طابت فروعها وأصولها ، والنبعة التي زكت أجناسها وفصولها

1) أراد محمد ساسي بهذه التعابير التخفيف من غضب الباشا بعزو كل ما حدث الى إرادة الله .

2) يشير بذلك الى التمرد والثورة ونحوهما .

3) يعني انه كان قد راسله من قبل برسالة أخرى .

4) في مصادر عائلة البوني ، وجدنا الكلمة تكتب «ساسي» و «أساسي».

والسيادة التي أسست على قواعد الولاية مبانيها ، والمجادة التي طابقت مناهج الاستقامة ألفاظها ومعانيها ، سيادة الولي الصالح البركة العارف بالله المسارع في مرضات (كذا) الله ، أبي عبد الله سيدي محمد ساسي ، أدام الله بركته ، وأعلى في مدارج الاكمال رتبته ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، عن الخير والعافية والتماس صالح دعوات أمثالكم من أولياء الله بتضرعات صادقة ، وقلوب صافية ، والسؤال عنكم وعن أحوالكم ، يسر الله لنا ولكم أسباب السعادات وبلغنا وايا كم من مرضاته جميع المرادات (1) .

هذا ، ولقد انتهى الينا كتابكم البهي ، وخطابكم الشهي ، وما احتوى عليه من طلب العفو عمن ظلم ، والتجاوز عمن أساء واجترم ، فلتعلم رضي الله عنكم ، ان العامة لا تعرف حقائق المذاهب ، ولا تنظر عواقب المثالب والتجارب ، وقد علم من كلام الحكماء وأمثال العلماء : مكن موضع رجليك قبل مشيك ، وتأمل عاقبة فعلك قبل سعيك . فإن من استضاف الأسد قراه أظفاره . ومن حارب الدهر أراه اقتــداره ، ومنازعة الملوك تسلم (2) النعم ، وتوجب لصاحبها فضيع (كذا) النقم ، ولا يخفاكم ما اساوء (كذا) به من فضول الكلام (3) ، الموجب لشنيع الملام ، لأن من قال ما لا ينبغي ، سمع ما لا يشتهي ، ومن فعل ما شاء ، لقي ما ساء ، وقد استوجبوا بفعلهم ذلك الأدب (4) الشنيع ، والتعزير الفضيع (كذا) ، لولا مراقبة الله تعالى في وجوهكم .

فالآن الأمر هو ما شفهناكم به من ترك ما تركنا ، وتأخير ما أخرنا (5) ، والواجب عليكم ، رضي الله عنكم ، ان تكون أحوالنا منكم ببال ، وان لا تدعونا في زوايا الاهمال ، وان لاتنسوا أمة نبيكم ، صلى الله عليه وسلم ، من دعاء الخير في الخلوات ، وأعقاب الصلوات ، والتعريف بما يجب عليكم من حقوق

1) هذه الجموع «السعادات ... المرادات» ونحوها تدل على تأثر الكتاب باللغة التركية. وقد وردت أيضا في رسالة محمد ساسي .

2) لعل صوابها «تسلب» .

3) هذا دليل على أن النقمة على العثمانيين كانت بالسلاح وبالكلام أيضا، أي السب ونحوه .

4) المقصود التأديب والعقوبة .

5) الاشارة الى ما جاء في الرسالة الأولى من تأخير الجهاد في وهران ضد الاسبان وتقديم القضاء على الثورة .

السلطان ، وان طاعته من طاعة الرسول وطاعة الرحمن ، فأليكم ، معشر أهل العلم ، يتوجه هذا الفرض بالخصوص ، وأنتم أجدر بما فيه من مقيس مستنبط ومنصوص ، والدين النصيحة . قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولايمة المسلمين وعامتهم . والله الموفق لما فيه رضاه ، لا رب غيره ولا معبود سواه .

وكتب بتاريخ أوليات صفر الخير ، سنة 1051 .

8) الرسالة الرابعة : من محمد بكداش الى أحمد بن قاسم البوني :

أقر الله تعالى بطلعتكم السنية العيون ، وزادكم علما الى علمكم الفاخر المصون ، وأشرق أشعة شموس الولاية ، على جدرات خيامكم حين تريحون وحين تسرحون ، وزادكم معنى فائقا الى معناكم وقربكم من حضرته القدسية وادناكم وجعلكم في رياض محبته تمرحون ، وغذاكم بغذاء منحة معرفته وألبسكم من جلال فضله ورعايته ، وأهلكم لمحبته وولايته ، وجعلكم في خان حضرته تنعمون ، أعني بذلك قدوة أرباب الكمالات ، حاوي رتب العز والمجد والسعادات ، مولانا المحب الأمثل ، الأعز الأكمل ، نهج الأفاضل وروضة الأماثل ، كنز العلوم السنية وجوهرة الألفاظ الذهبية ، جمال الاسلام ، عمدة الأنام ، شمس سماء الكمال ، وبدر سناء الجمال ، مولانا وسيدنا ووسيلتنا إلى ربنا الأمجد الأنجد ، يتيمة الدهر وفريدة العصر الشيخ الحاج أحمد :

أحبتنا نلتم من الفضل رتبة	وكم كلت الأحبار ، والله دونها
فما ذاك الا من كريم تفضلا	وكم طمع الألباب ان يدركونها (كذا)
فجودوا اذا ما الليل أرخى سدوله	بهمتكم نصحا لنا تبذلونها
لعل اله العرش جل جلاله	سيد خلنا في رتبة تحمدونها (1)

هذا ، وان محبتكم في قلوبنا رسخت ، وشموسها في أفكارنا بزغت ، والحب جددته ، والسوى (كذا) نسخته ، وماذلك الا من حسن تحسيننا فيكم الظنون

1) رغم ما قيل من أن محمد بكداش كان ينظم الشعر فاننا لا نعتقد أن هذه الأبيات والتي بعدها من انشائه

والله يعلم وأنتم بذا تعلمون، فلعمري ان حمدت أوصافكم وحسن سيرتكم وانصافكم وأعجبني حسنكم وأعطافكم ، مما حزتموه أصلا عن نهج أسلافكم العارفين الأولياء / الاتقياء العلماء العاملين ، وان وقع منا قصور في مدح شأنكم ، وتقصير في خدمتكم ورعايتكم ، فبضلكم قولوا مقالة يوسف الصديق يوم الوصل والتحقيق : لاتثريب عليكم يغفر الله لكم . فلا عجب ان كان الجود وصفكم وشيمتكم ، والعلم مهمتكم وسجيتكم ، فعلى الأصول تبنى القواعد اللطيفة ، وبقدر الهمم ترتقي المنازل المنيفة ، فانتم وايم الله دار العلم والولاية ، والمنزلة الشامخة والرعاية ، أخذتم نهج القوم عن اسلافكم ، فصار الحسن من بعض أوصافكم :

فان قيل لي من ذا الذي قد وصفتــــه أقول دعوني هو ذا الخـل أحمـــد
ونجـل لقطب قد تحقق مجـــــده أبو قاسم (1) لازال ، والله يحمد
عليه سلام من محب وعـاشــــق سلام كريم كل حين يجـــــدد

السلام عليكم ، سيدي ، ما اختلف الملوان ، وتعاقب الجديدان ، عبقري الشذا بمسك وكافور وروح وريحان ، وما طلعت الشمس وما غربت ، وما تمايلت الغصون وما اعتدلت ، يخص ذاتكم البهية ، ويعم من لاذ بشريف جنابكم والأهل والذرية ، ثم السلام التام المتحوف بالمبرة والاكرام ، على النجل الأوحد ، والهلال الفرقد ، سيدي التومي محمد (2) ، ثم السلام الزكي العبقري الهني ، على الكوكب الدري ، والمنهل الروي ، سيدي علي (3) ، وعلى جميع أهلكم وعيالكم ومن لاذ بجنابكم وتعلق بشريف أذيالكم ، صانهم الله وأعزهم عزا راجح (كذا) وجعلهم من بعدكم خلفا صالح (كذا) .

أما بعد ، سيدي،لا زائد بحمد رب البرية سوى السؤال / عن ذاتكم السنية وأحوالكم الراضية المرضية ، اجراها الله تعالى على نهج السنة النبوية ، فلقد بلغنا كتابكم الموفق ، بحسن ألفاظ خطابكم المشرق ، فآنستنا محاسن ألفاظه

---

1) قاسم بن محمد البوني هووالد أحمد البوني. وكان بكداش قد أخذ الطريقة الصوفية عن قاسم .
2) الظاهر أن محمد التومي هو أحد أبناء أحمد البوني . أما ابنه الثاني فهو أحمد الزروق الذي أشرنا اليه والذي كان في مقام والده علما وورعا .
3) لا نعرف عنه الآن شيئا . ولعله أحد أفراد أسرة البوني .

وأطربتنا معاني ألحاظه ، فأخذناه بالقبول والرضى ، وذكرنا عهدا قديما مضى (1) .

أحن الى تلك المرابع كلمـــــــــــــا	يهب نسيم الشرق والقلب شائـــــق
عليكم سلام والتحية والرضـــــــــى	وروح وريحان وعنبر عابـــــــق
فلما رأينا خطكم وخطـابكـــــم	وعلمـــا اذعتـــم بالمبـــرة لائـــق
تأججت الأشواق واضطـرب الهوى	ومن ذاك صار القلب بالوجد خافق

فأنتم الأحبة على الدوام ، وأنتم محل الجود والفضل والاكرام .

ثم لا يخفاكم ، يانعم السادات الأجلة ، والشموس التي أخجلت الأهلة . اننا لما اطلعنا على (2) حب الجميع أخونا الحاج قاسم (3) على تقييد ما من الله تعالى به عليكم من التواليف (4) ، فحمدنا الله تعالى بحسن الثنا . وشكرناه بالحس والمعنى ، وأريناه لبعض الفحول ، فتلقوه بالرضى والقبول . نسأل الله تعالى ان يزيدكم من مواهبه السنية ، بجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خير البرية .

ولقد بلغنا ما تفضل به مجدكم من الفخار (5) . فجازاكم الله خيرا وشكر فضلكم وقبل سعيكم وزادكم فخارا على فخار ، فما نحن الاطالب لدعواتكم . وراغب الى مرضائكم وكذلك الأهل والعيال كلهم يسلمون عليكم بأتم السلام وأعمه .

كتبه الفقير الى الله تعالى ، عبدكم الأصغر . ومحبكم الاكبر . محمد بكداش تاب الله عليه ولطف به آمين بمنه وكرمه في جمادي الأخيرة ، سنة 1115 .

---

1) في ذلك اشارة الى الوقت الذي قضاه بكداش في عنابة عند قاسم البوني وولده احمد .

2) الظاهر أن(على) هنا زائدة في الرسم لان المعنى يقتضي ذلك.

3) لا نعرف عنه شيئا الان، ولعله أحد التجار الذين كانوا يترددون بين عنابة والجزائر. وقد ورد في رحلة ابن حمادوش ان أحد التجار العنابيين قد جاء اليهم ببعض مؤلفات أحمد البوني .

4) يبدو أن ذلك نسخة من كتاب البوني الذي سماه (التعريف بما للفقير من التآليف) .

5) من الواضح ان أحمد البوني قد بعث الى بكداش هدية. ولكننا لا ندري نوعها : هل هي أواني فخارية أو شيء آخر مرموز اليه فقط .

اجازة ابن عمار الجزائري الى محمد خليل المرادي الشامي

قليل هم العلماء الذين جمعوا بين الفقه والأدب . وعلى رأس هؤلاء المفتي أحمد بن عمار الجزائري (*) ، عاش ابن عمار في القرن الثاني عشر للهجرة (18م)، وهو عصر شهد حركة علمية نشيطة في الجزائر شارك فيها أمثال محمد بن ميمون وعبد الرزاق بن حمادوش والمفتي الشاعر ابن علي ومحمد أبو رأس الناصر ، وعبد القادر الراشدي ، وغيرهم . تولى ابن عمار فتوى المذهب المالكي من سنة 1180 الى 1184 وجلس للتدريس في الجامع الكبير بالعاصمة وانتصب للخطابة والامامة بحكم وظيفته ، ولكن السياسة أبعدته عن هذه الوظيفة فأستفادت من ذلك الحركة العلمية ، ذلك أن ابن عمار قد تفرغ بعد الفتوى ، للتدريس والتأليف والرحلة .

تنقل ابن عمار في تونس والمشرق العربي عدة مرات . فقد حج سنة 1166 وجاور بالحرمين حوالي اثني عشرة سنة وأقام بمصر فترة ، كما ذهب الى تونس للاستيطان بها سنة 1195 . وأخذ العلم ، كعادة علماء الوقت ، خلال هذه الجولات على مشائخ جلة من المشرق والمغرب ، كما ذكر في الاجازة التي نحن بصددها ، وتخرج على يديه تلاميذ كثيرون ، منهم محمد أبو راس الناصر من الجزائر ، وأحمد الغزال من المغرب ، وابراهيم السيالة من تونس ، ومحمد خليل المرادي من الشام ، وعمر بن عبد الكريم من مكة ، وغيرهم . وقد برع ابن عمار في الأدب فكان نسيج وحده في عصره يعرف أسلوبه مهما تخفى ، وهو الأسلوب

(*) أنظر : التعاليق في آخر البحث . وقد نشرت المقالة في (الثقافة) ، 45 ، 1978 .

الجزل الجذاب المسجوع بدون تكلف . وقد قيل انه سار فيه على طريقة لسان الدين بن الخطيب والفتح بن خاقان كما برع في الشعر والموشحات فكان هو وابن علي وأحمد المانجلاتي فرسان الحلبة عندئذ ، أعادوا للجزائر صفحة مشرقة من أدب الأندلس الغض . واشتهر ابن عمار أيضا في الحديث الشريف وروايته . وله في ذلك ثبت يسمى (منتخب الأسانيد) .

ألف ابن عمار مجموعة من الكتب والرسائل وديوان شعر ضاع كثير منها ، وقد رأينا ذكر مؤلفاته ، ما بقي منها وما ضاع ، ليعلم الباحثون قيمة ابن عمار(1) .

1 ـ لواء النصر في فضلاء العصر (تراجم) .
2 ـ نحلة اللبيب بأخبار الرحلة الى الحبيب (رحلة حجازية)(2) .
3 ـ تاريخ في سيرة علي باشا ، باي تونس (3) .
4 ـ حاشية علي الخفاجي (4) .
5 ـ رسالة في مسألة وقف (5) .
6 ـ ديوان شعر .
7 ـ رسالة في تفسير قوله تعالى « اني أريد أن تبوء باثمي واثمك » (6) .
8 ـ رسالة في وصف قصر عبد اللطيف مع قصيدة طويلة في نفس المعنى .
9 ـ ثبته المسمى (منتخب الأسانيد في وصل الأجزاء والمصنفات والمسانيد) (7) .
10 ـ مجموعة من الاجازات والتقاريظ والقطع الشعرية .

وقد تناولنا هذه المؤلفات وبينا قيمتها وحددنا مصادرها في كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) . ولكننا أردنا من هذه المقدمة الوصول الى الأجازة التي أجاز بها ابن عمار مفتي الشام في وقته الشيخ محمد خليل المرادي صاحب كتاب (سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر) (8) .

فقد عثرنا على هذه الأجازة ، التي لا نعلم ان أحدا قد أشار اليها ، في رقاع كبير يضم اجازات محمد خليل المرادي بالمكتبة الظاهرية بدمشق . وتأتي اجازة ابن عمار الثانية في هذه المجموعة . وهي بتاريخ آخر سنة 1205 بالرقم والحرف ، ولكن بدون ذكر المكان . وبأسفلها خاتم ابن عمار المكتوب فيه ، حسبما تراءى لنا ، عبارة « الواثق بالجبار ، عبده أحمد بن عمار » وقد توفي الشيخ المرادي سنة

1206 في حلب (9). ولكننا مازلنا في حيرة ازاء هذا التاريخ . ذلك ان كل الذين ترجموا لابن عمار لم يحددوا سنة ولا مكان وفاته . فهل كان عندئذ (سنة 1205) في الحجاز حيث التقى بالشيخ المرادي واجازه ؟ أو هل كان في دمشق ؟ وهناك احتمال آخر وهو أن الرقاع المذكور قد ورد على ابن عمار في مكان غير محدد ليكتب عليه الاجازة . ومهما كان الأمر ، فالذي لاشك فيه هو ان ابن عمار قد كتب الاجازة بخط يده ، وانه كان ما يزال على قيد الحياة إلى نهاية سنة 1205 . وهذه هي احدى النقاط الهامة في هذه الاجازة .

أما النقطة الثانية فهي ما تكشف عنه الاجازة من ثقافة ابن عمار ومن أسلوبه . فقد جاء فيها انه قد روى مجموعة « من كتب العلوم الشرعية والفنون المرعية ، من منقول ومعقول ، وفروع وأصول ، ورقائق وآداب » وغيرها . وهذه في الواقع هي الحقيقة فقد تثقف ابن عمار ثقافة فقهية وأدبية ، وجمع بين العلوم النقلية والعقلية ، كما تشهد بذلك كتبه وآراؤه . كما أنه أخذ عن « مشايخ جلة ... من أهل الغرب والشرق » . ولكنه في الاجازة الموجهة الى مجاز شرقي ذكر أساتذته المشارقة فقط من أهل الحرم المكي والحرم المدني والديار المصرية ، بينما هو قد تثقف أولا في وطنه وتولى فيه الفتوى قبل أخذه عن هؤلاء المشائخ . ومن أبرز مشائخه الجزائريين المفتي ابن علي الذي كان ابن عمار يشير اليه بعبارة « شيخنا ، شيخ الاسلام »(10).

ونلاحظ كذلك أن ابن عمار يذكر أنه قد روي الحديث وغيره عن عيسى الثعالبي الجزائري (11) دفين المدينة المنورة والمتوفي بها سنة 1080 ، عن طريق محمد الحفني المصري . كما أنه قد ذكر اسم الشيخ محمد خليل دون لفظه « المرادي » (12) . ويشير بعبارة « المذكور أعلاه » في الاجازة الى كون اسم الشيخ محمد خليل مذكور في الاجازة السابقة لاجازته له ، وهي الثانية في الترتيب ، كما أشرنا . ومن جهة أخرى فإن عبارة «قال ذلك وكتبه» مهمة هنا لأننا نعتقد أن ابن عمار هو الذي كتب بنفسه على الرقاع وان الاجازة بخط يده . ولكن للأسف لم يذكر المكان الذي كتبها فيه . والغالب على الظن ان ابن عمار قد توفي في الحرمين أثناء أو بعد سنة 1206 .

ورغم ان ابن عمار قد كتب اجازة تعتبر في المصطلح قصيرة وتقليدية ، فان أسلوبه الأدبي فيها واضح . وهو يعشق العبارة الأنيقة واللفظة الصافية الرقيقة ، ولكن

الذي يريد ان يحكم على أسلوبه في النثر والشعر عليه أن يعود الى كتبه ورسائله الوصفية والتقريظية . فقد كان ابن عمار فيها ظاهرة فريدة حقا .

9 جوان ، 1978.

نص الاجازة

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أفضل وأزكى التسليم .

أما بعد حمد الله ، هادي من استهداه ، وكافي من استكفاه ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد سر الوجود ومعناه . وعلى آله وأصحابه مشيدي الدين والحامين لحماه .

فقد روينا بتوفيق الله ويمنه . وإعانته وعونه . عدة وافرة مخدراتها سافرة من كتب العلوم الشرعية والفنون المرعية ، من منقول ومعقول وفروع وأصول ، ورقائق وآداب ، وسائر ما يجذب بتلك الأهداب ، عن مشائخ جلة يروق بهم الدهر وتزدهي بهم الملة من أهل الغرب والشرق . وجهابذة الجمع والفرق .

فمن أهل الحرم المكي من سطع عبير ذكره سطوع الأرج المسكي . خاتمة المسندين وأول القداة المرشدين السيد عمر بن أحمد (13) عن جده لأمة الشيخ عبد الله بن سالم البصري (14) ثم المكي . ومن أهل الحرم المدني الهمام الأجل العارف بالله عز وجل الشيخ أبو الفضل حسن بن الشيخ محمد سعيد (15) عن عمه الشيخ طاهر . ومن أهل الديار المصرية الشيخ العالم العامل المربي الكامل أبو عبد الله محمد الحفني (16) عن الشيخ أحمد الدخلي (17) . رحم الله جميعهم . وأخصب في رياض الفردوس ربيعهم .

فأما أولهم . وهو المكي ، فعن الشيخ الإمام أبي عبد الله محمد بن سليمان السعدي (18) بأسانيده المذكورة في ثبته المسمى **بوصلة الخلف بموصول السلف** .

وأما ثانيهم ، وهو المدني ، فعن أبيه العلامة منقطع القرين ، وليث ذلك العرين ، محمد بن ابراهيم الكوراني المدني بأسانيده المذكورة في ثبته المسمى بـ (الأمم) (19) . وأما ثالثهم ، وهو المصري ، فعن الشيخ عيسى الثعالبي بأسانيده المذكورة في ثبته المسمى بـ (مقاليد الأسانيد) (20) .

هذا ، وقد أجزت السيد المستجيز المجاز ، ورجل الحقيقة لا المجاز ، مفتي الشام ، والغيث الذي تستمطر بروقه وتشام ، السيد محمد خليل المذكور أعلاه (21)، دام فضله وعلاه راجيا منه أن لا ينساني من دعواته ، خصوصا في أوقات توجهاته وصلواته ، والله جل جلاله المسؤول وكرمه المأمول أن يحييني وأياه حياة طيبة وأن يغدق علينا أجمعين من سحائب رحمته الغيوث الصيبة وأن يختم لي وله بالحسنى ، ويرقيني وأياه المقام الأسنى ، ويحشرني وأياه في حلبة الرعيل الأول من خاصته عليه الصلاة والسلام ، وان يقر أعيننا بالنظر الى وجهه الكريم مع المقربين في دار السلام .

قال ذلك وكتبه غبار النعال ، الراجي فتح المتعال ، غريق الأوزار ، أقل الخلائق أحمد بن عمار ، لطف الله به . بتاريخ أواخر ذي الحجة الحرام ، متم شهور سنة 1205 ، خمس ومائتين وألف ، والسلام (22) .

(الختم) (23) .

التعاليـــق

1) فصلنا الحديث عن حياته وآثاره في الجزء الثاني من(تاريخ الجزائر الثقافي) .
2) طبعت منها نبذة في الجزائر ، 1904 .
3) ذكره له تلميذه إبراهيم السيالة في (مباهج الأزهار) ، مخطوط تونس 260 .
4) أشار إليه محمد أبو راس في (فتح الاله ومنته) ، مخطوط المغربك 2263 .
5) طبع في تونس ضمن كتاب (المنح الالهية في طمس الضلالة الوهابية) سنة 1910 .
6) إبراهيم السيالة (مباهج الأزهار) ، مخطوط تونس 260 .
7) عبد الحي الكتاني (فهرس الفهارس) 82/1 . وفي فهرس دار الكتب المصرية أنه لعيسى الثعالبي الجزائري ، أنظر: مصطلح الحديث 79 .
8) عن محمد خليل المرادي أنظر: الأعلام 353/6 .
9) جاء في الأعلام أن المرادي كان مفتي دمشق ونقيب الاشراف بها إلى سنة 1205 ثم حدث «ما أوجب رحلته إلى حلب فتوفي بها» سنة 1206 .
10) ترجمنالابن علي في الجزء الثاني من كتابنا المذكور ، فصل الشعر .
11) ترجمنا له أيضا في كتابنا المذكور ، فصل العلوم الشرعية .
12) لم يترجم المرادي لابن عمار في كتابه (سلك الدرر) المطبوع ، ولعله قد تحدث عنه في كتابه المخطوط (تحفة الدهر) الذي خصصه لتراجم معاصريه من أهل المدينة .
13) لم نهتد إلى ترجمة له .
14) توفي سنة 1134 . الأعلام 219/4 .
15) الظاهر أنه هو حسن بن محمد بن ابراهيم الكوراني ، وهو الذي أجاز أحمد الجوهري سنة 1168 ، أنظر: مصطلح الحديث ، فهرس دار الكتب المصرية . 1 .
16) معجم المؤلفين 265/9 وقد توفي سنة 1181 .
17) متصوف من أهل مكة توفي سنة 1130 . أنظر: الأعلام 230/1 ، وله ثبت يسمى (بغية الطالبين) .
18) توفي سنة 1094 . الأعلام 22/7 . ويعرف أيضا بالروداني المغربي ، وله (أوائل الكتب الحديثية) .
19) توفي الكوراني سنة 1145 وثبته يعرف (بالأمم لإيقاظ الهمم) . فهرس دار الكتب المصرية ، مصطلح الحديث 1 ، ص 88 .

20) (مقاليد الأسانيد) هو الإسم الذي ذكره أحمد بن عمار وكذلك المحبي في خلاصة الأثر 243/3، أما العياشي : الرحلة 132/2 . فقد سمى ثبت الثعالبي (كنز الرواة) . وقد حققنا المسألة في كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) ـ الجزء الثاني ، فصل العلوم الشرعية .

21) إشارة إلى أعلى الرقاع حيث الإجازة الأولى ، وهي نفسه .

22) المكتبة الظاهرية بدمشق مجموع رقم 11108 . وقد صورناها يوم 19 يناير 1977 بدمشق بمساعدة الدكتور شكري فيصل ، أمين سر مجمع اللغة العربية . فله الشكر .

23) لم يظهر الختم واضحا في الصورة . ويبدو أنه يحتوي على العبارة التالية "الواثق بالجبار عبده أحمد بن عمار" .

قصيدة في رثاء المفتي الكبابطي

حكم الفرنسيون (*) ، سنة 1843 بالنفي من الجزائر على مفتي المالكية ، مصطفى الكبابطي ، لمعارضته ضم الأوقاف الاسلامية الى املاك الدولة الفرنسية(1). وبعد أن ودع الأهل والأرض التي نمته ونمت أجداده ، رحل في احدى البواخر الى الاسكندرية عن طريق مرسيلية . وقضى في الاسكندرية بقية عمره الى ان وافاه أجله سنة 1277 (1860) وقد تجاوز التسعين سنة (2) .

كان المفتي مصطفى الكبابطي عالما بالحديث وبالفقه المالكي ، كما كان أديبا وشاعرا رقيقا . وقد وجدنا له شعرا في الحنين الى الوطن وغيره من الأغراض سندرسه في كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) . وفي الواقع ان الكبابطي كان من بقايا المثقفين الجزائريين الذين عاشوا في أواخر العهد العثماني وأوائل العهد الفرنسي . وهو في ذلك يشبه المفتي محمد بن الشاهد والمفتي محمد ابن العنابي الذي نفاه الفرنسيون أيضا (سنة 1831) وتوفي مثله في الأسكندرية (3) . ولكن الكبابطي بالمقارنة الى زميله ابن العنابي ، ما يزال مجهولا . ولعل سبب جهل الناس به هو أنه لم يترك تأليفا هاما يعرف به . فقد كرس الكبابطي حياته لرواية الحديث

(*) نشرت في مجلة الثقافة. عدد 44 . 1978 .

1) ظل الكبابطي مفتيا في الجزائر أكثر من عشر سنوات. وقد استجوبته (اللجنة الافريقية) سنة 1833. انظر ذلك في كتابنا (تاريخ الجزائر الحديث ، بداية الاحتلال) . ص 102 .

2) لا نعرف بالضبط متى ولد، ولكن اذا أخذنا في الاعتبار سنة وفاته وعمره عندئذ فانه يكون قد ولد حوالي 1187هـ .

3) أنظر كتابنا عنه (المفتي الجزائري ابن العنابي رائد التجديد الاسلامي) الجزائر ، 1977 .

الشريف وللتدريس ، وكلاهما لم يعد اليوم مصدرا للشهرة . ورغم أن محمد عاقل ، في رثائه للكبابطي قد أشار في قصيدته الى أن المفتي قد « ألف » أيضا ، فاننا لا نعرف الآن أسماء تآليفه . والغالب أنها ، اذا كانت ، تتناول الحديث والفقه ، وقد يكون له ديوان شعر ومذكرات .

وقد قادنا البحث الى العثور على قصيدة في رثاء مصطفى الكبابطي نظمها أحد تلاميذه المشارقة ، وهو الشاعر محمد عاقل ، صاحب ديوان (لسان الشباب) (1). ولما كنت أعرف أن هناك من يرغب في دراسة شخصية الكبابطي وبعث آثاره فاني أنشر اليوم هذه القصيدة التي لا أعرف أن أحدا قد أشار اليها من قبل. والقصيدة تقع في 28 بيتا ، ولكني أكتفي هنا منها بخمسة عشر ، ذلك أن جزءها الأول المحذوف لا يخرج عن الوعظ والمناسبة التي كان الشعراء يتبعونها في الرثاء ولا تهم حياة أو شخصية الكبابطي . وكان الشاعر محمد عاقل قد ألقى هذه القصيدة على جثمان شيخه المسجي يوم وفاته في 21 شعبان سنة 1277 (1860). ولنلاحظ أن الشاعر قد كتب اسم الكبابطي هكذا (القبابطي) .

والشاعر الذي عرف الكبابطي معرفة جيدة يلخص في القصيدة عمل شيخه فيما يلي : كون الكبابطي كان مفتي الجزائر وهو في الفقه المالكي مثيل الامام مالك في وقته ، وكونه صاحب سيرة حسنة تجل عن الوصف وعن أن ينالها أحد بسوء، وكونه من أكبر رواة الحديث الشريف حتى أن علماء عصره قد اعترفوا له بالامامة في السند وانه ، رغم كبر سنه ، لم يتوقف عن حفظ السند ، وكونه زاهدا تقيا لا تهمه الدنيا سواء أقبلت عليه أم أدبرت ، وكونه قد أفنى عمره في نشر العلم والتأليف ، وكونه قد ترك ، بوفاته ، فراغا لا يملأه أحد بعده . وختم الشاعر القصيدة بالتاريخ شعرا لوفاة الكبابطي (2) .

ولعل أهمية القصيدة تظهر في الضوء الذي تلقيه على حياة الكبابطي العلمية ومكانته لدى علماء المشرق بعد أن نفاه الفرنسيون من بلاده . كما أن القصيدة

---

1) ما يزال مخطوطا، تيمور، شعر 1264 .

2) نفس الشاعر قد أرخ أيضا لوفاة ابن العنابي بعبارة «اليوم رمس مفتي اسكندرية» (أي سنة 1267) . أنظر: ديوان لسان الشباب ، تيمور، 1264 شعر ، ص : 199 . ولكن محمد عاقل لم يرث ابن العنابي كما رثى الكبابطي .

تؤرخ لوفاته وهو أمر لم نكن نعرفه من قبل ، وتكشف عن جوانب من حياته الاجتماعية وعن مدى عمره . ومن الملاحظ أن الشاعر لم يتعرض لحياة الكبابطي في الجزائر ولا لموقف الفرنسيين منه . كما أنه لا يشير الى نشاط الكبابطي ووظائفه في المشرق خارج الاسكندرية كالحج والسياحة وتولى الوظائف ونحو ذلك .غير أننا نفهم من قول الشاعر «مفتي الجزائر» ان الكبابطي لم يتول وظيفة الفتوى خارج الجزائر .

مقدمة ونص القصيدة

قال الشاعر محمد عاقل في ديوانه (لسان الشباب) .

«وقلت أرثي شيخنا الشيخ مصطفى القبابطي (كذا) مفتي المالكية بالجزائر سابقا في 21 ش (شعبان ؟ 1277 (1860) يوم وفاته ، وقد قرئت على جنازته وهو مسجي في مصلاه» :

الدهر أغدر ما يكون اذا وفـــا — وتبسم الليث الهزر (1) اذا جفـا

(الى أن قال)

هذا امام الوقت مالك وقتـــه — مفتي الجزائر مصطفى بحر الوفا
أنعم به في الناس من حبر لقـــد — بلغ العلا ورقى المقام الأشرفـا
ذو سيرة حسناء جل مثيلهـــا — بين الورى عن أن ينال ويوصفـا
صافي السريرة ما به من ريبـــة — زكته ، ذو التعديل عند الاصطفا
يروي حديث المصطفى عن كابـر — عال ويرفعـه ما قد أوقفـا
لقد ارتضته مشائخ الدنيا لها — سندا وأسند من أجاد وشنفـا
قد جاوز التسعين من أعوامــه — يروي ويسند ما له يوما هفـا
ورع قنوع زاهد متنســك — خمل (2) وجيه بالبشاشة أتحفـا
راض بما قسم المهيمن شاكـر — آلاءه في الحالتين على صفـا
قد كان فينا أمة وحياتـــه — أفنى وظل على المعارف عاكفـا

---

1) كذا في الأصل، وهي الهزبر .

2) الخمول من أوصاف أهل التصوف، وهذا هو المقصود هنا .

كم بث في الآفـاق علما نافعـــا	ولكم أجاد بما أفاد وألفـــا (1)
ولقد فقدناه وليس كمثلـــه	وعليـه قـد حـق النـواح تأسفـا
من بعده في الأرض يقصـد بابـه	للعلـم اذ يدعـى أجـاب، وأسعفـا
وتأسفا قد قال عاقل أرخـــوا	من للحديث وقد فقدنا المصطفى (2)

أول ابريل ، 1978 .

---

1) نفهم من هذا ان الكبابطي بعض التآليف ، ولكننا لا نعرف عنها الآن شيئا .

2) القصيدة في (لسان الشباب) ص : 61 ـ 62 . وعن الكبابطي أنظر أيضا : (رسالة قدور بن رويلة الى المفتي ابن الكبابطي (1843) رقم 2083 المكتبة الوطنية بالجزائر. بعد كتابة هذا وجدنا عنه مجموعة من الرسائل والتقارير في الأرشيف الفرنسي (1H1) إيكس . وسنحاول نشر ذلك في مناسبة أخرى .

من رسائل محمد بن أبي شنب الى محمد كرد علي

تبادل علماء الجزائر وسورية الاجازات والرسائل ونحوها منذ زمن بعيد (*) . من ذلك في العصر الحديث اجازة مفتي الجزائر احمد بن عمار لمفتي الشام محمد خليل المرادي صاحب (سلك الدرر) سنة 1205 (1) . ومن أحدث هذا التبادل الرسائل التي كتبها محمد بن أبي شنب الى محمد كرد علي في العشرينات من هذا القرن . وقد رأينا نشر بعض هذه الرسائل لأهميتها الادبية والتاريخية .

فمنذ فاتح هذا القرن أصبح ابن أبي شنب معروفا في عالم الاستشراق (2). فكان على صلة وطيدة بالمستشرقين الفرنسيين الذين احتضنوه فأصبح ينشر في مجلاتهم ويحضر مؤتمراتهم ويترجم لهم الوثائق العربية ويكتب على طريقتهم. ومن أكبر مؤيديه منهم أستاذه رينيه باسيه (3) ، وصديقه هنريه ماسيه (4) وكلاهما أصبح عضوا في المجمع العلمي العربي بدمشق ، والفريد بيل وليفي بروفنسال . وكان أول دخول لابن أبي شنب في ميدان المستشرقين مساهمته في مؤتمرهم الدولي الرابع عشر الذي انعقد بمدينة الجزائر سنة 1905 . وكان آخر مؤتمر حضره لهم هو المؤتمر السابع عشر الذي انعقد بمدينة اكسفورد سنة 1928 . وهو أيضا المؤتمر الذي التقى فيه بمحمد كرد علي لأول مرة على ما يظهر . ونحن نركز على هذه العلاقة بين ابن أبي شنب والمستشرقين لأنها قد أثرت على أسلوبه في الكتابة وحتى على اتجاهه السياسي . فقد منحته فرنسا وسام فارس جوقة الشرف سنة 1922 لولائه وخدماته وارسلته في عدة مهمات لأنه كان موضع ثقة رجالها (5) .

(*) أنظر : التعاليق فيما بعد . وقد نشرت هذه المقالة في مجلة (الثقافة) . 53 ، 1979 .

ويبدو أن الصلة بين ابن أبي شنب ومحمد كرد علي (6) قد بدأت بعد تأسيس المجمع العلمي العربي . فقد تأسس المجمع بدمشق أوائل سنة 1919 برئاسة محمد كرد علي ، واتخذ العادلية مقرا له ، وفي احدى جلساته . سنة 1920 ، انتخب عددا من الأعضاء المراسلين من العرب والأجانب فكان محمد بن أبي شنب من القسم الأول عن الجزائر (7) . وكانت شهرة ابن أبي شنب عندئذ تقوم على ما كان ينشره في (المجلة الافريقية) وغيرها من المقالات بالفرنسية وما حققه من الآثار العربية منذ أوائل هذا القرن (8) .

ولا تظهر محاضر المجمع المطبوعة نشاطا ملحوظا لابن أبي شنب كعضو في المجمع . فقد عدنا إلى هذه المحاضر فوجدنا في «خلاصة أعمال المجمع» (فبراير 1923) ان ابن أبي شنب قد أرسل رسالة الى المجمع فقرئت في احدى جلساته ، وهي الرسالة التي «عدد فيها أسماء العلماء المعاصرين الذين خدموا اللغة بآثارهم في بلاده» (9) وفي السنة الموالية قرأ المجمع في جلسة فبراير 1924 رسالة أخرى من ابن أبي شنب أبنّ فيها أستاذه رينيه باسيه واقترح فيها على المجمع انتخاب هنريه ماسيه خلفا له . وقد وافق المجمع على اقتراحه بالإجماع ونشر كلمة التأبين في المجلة (10) . كما لا تظهر له مجلة المجمع نشاطا كبيرا أيضا. فرغم أنه بدأ يراسلها منذ سنتها الثانية (1922) فان ما نشر له فيها لا يرقى الى درجة بحث أو مقالة هامة ، ذلك أن انتاجه في المجلة لا يعدو التنبيه على خطا أوتأبين راحل أونحو ذلك (11) .

ورغم الصلة الودية التي كانت بين ابن أبي شنب ومحمد كرد علي فاننا لا نجد انهما قد التقيا قبل سنة 1928 . ومن المعروف ان محمد كرد علي قد زار أوروبا عدة مرات قبل توليه الوزارة وبعدها ، ومع ذلك فإننا لا نعرف أنه زار الجزائر أو أنه التقى بابن أبي شنب في فرنسا أو في غيرها قبل مؤتمر المستشرقين بأكسفورد المشار اليه . فالانتماء الى الثقافتين العربية والفرنسية والى العلم بأوسع معناه كان اذن هو أساس التعارف بين الرجلين . وقد كانت الرسائل التي بعثها ابن أبي شنب الى صديقه قبل لقائهما في أكسفورد مطبوعة بطابع البرودة العلمية ، اذا صح التعبير ، ولكنها قد تغيرت بعد لقائهما الشخصي فأصبحت دافئة وأدبية .

وأثناء زيارة للمجمع في فبراير ، 1977 اطلعنا على ثماني رسائل كان ابن أبي شنب قد كتبها إلى محمد كرد علي ، وقد صورنا منها خمسا وأهملنا الثلاث الباقية لأنها في نظرنا عندئذ لا تفيد شيئا ذا بال (12) . وهذه الرسائل محفوظة بالمجمع في ملف خاص . وكان ابن أبي شنب قد كتبها تارة من مدينة المدية (مسقط رأسه) وتارة من مدينة الجزائر . وأولها مكتوب بتاريخ 20 ذي القعدة 1340 هـ وآخرها بتاريخ 4 جمادي الثانية 1347 ، أي حوالي شهرين ونصف قبل وفاته (13) . والرسائل مكتوبة بخط مغربي جزائري واضح وعلى ورق من حجم صغير ، وهي في الغالب مقتضبة العبارة ومسجعة . وكان يستعمل فيها مرة التاريخ الهجري فقط ومرة الميلادي وحده وثالثة التاريخين معا . كما كان يؤرخها بالأرقام المستعملة الآن في المشرق العربي . وفي آخر بعض الرسائل تعقيبات بخط مشرقي يبدو أنه خط كاتب المجمع أو محرر مجلته .

وكان محمد كرد علي يراسل ابن أبي شنب أيضا ويطلب منه بعض المطالب العلمية . فقد جاء في احدى رسائل ابن أبي شنب (رقم 1) أنه قد وجه إلى محمد كرد علي لفا بريديا فيه مثلث قطرب « طبق طلبكم » . كما جاء في رسالة أخرى(رقم2)أن ابن أبي شنب قد اتصل بكتاب من محمد كرد علي يطلب فيه منه التدخل لدى هيئة تحرير (المجلة الافريقية) للتبادل مع (مجلة المجمع) . وكنت أود أن أطلع أيضا على رسائل محمد كرد علي الموجهة الى ابن أبي شنب ، ولكني عرفت من الدكتور شكري فيصل ان المجمع لا يحتفظ بنسخها في وثائقه ، فلعل هذه الرسائل توجد ضمن مكتبة محمد كرد علي الشخصية ولعل أحد الباحثين يطلعنا على أصول هذه الرسائل في مكتبة ابن أبي شنب التي قيل أن المستعرب الفرنسي ، هنري بيريز ، قد اشترى أكثرها قبل مغادرته الجزائر نهائيا.

ولرسائل ابن أبي شنب قيمة أدبية جديرة بالملاحظة والدرس . فهي تعبر عن أسلوب « مدرسة الجزائر » في العهد الفرنسي التي لم يكن ابن أبي شنب سوى واحد من أبرز أعضائها . ومن زملائه فيها عبد القادر المجاوي ، ومحمود كحول ، والمولود بن الموهوب ، وأبو القاسم الحفناوي ، مع ملاحظة ان ابن أبي شنب كان أكثر زملائه تأثرا بالمنهج الأروبي في الكتابة . فبينما تطورت الكتابة العربية في المشرق ، ولا سيما في الشام ومصر ، خلال القرن الماضي وبداية القرن الحالي ظلت في الجزائر

تقليدية إلى حد كبير . ومع ذلك فإن أسلوب رسائل ابن أبي شنب متين ومباشر ، وليس فيه لف كثير ولا مقدمات طويلة ، رغم ان ديباجة الرسائل تقليدية أيضا ، ولكن الفاظها سهلة ومعانيها قريبة واضحة باستثناء ما جاء في احداها (رقم 3) من تلغيز وتعمية يبدو أنهما مقصودان . ويستعمل ابن أبي شنب التعابير والأمثال كقوله « أليس أهل مكة أدرى بشعابها ؟ » و« لوم الأحباب من العتبة الى الباب » .

كما ان لهذه الرسائل قيمة تاريخية هامة . فهي تكشف عن الصلة الوثيقة بين علماء المشرق والمغرب العربيين القائمة على الثقافة العربية والتقاليد الاسلامية . وهي تظهر أيضا نواحي أخرى تتعلق بشخص ابن أبي شنب . فهو ، رغم مكانته لدى الفرنسيين ، لم يستطع أن يقنع أعضاء هيئة تحرير (المجلة الافريقية) بضرورة تبادلها مع مجلة المجمع العلمي العربي . ونلاحظ كذلك انه بعد وفاة رينيه باسيه ، قد رشح ابن أبي شنب صديقه هنريه ماسه لعضوية المجمع ولم يقترح أي شخص من زملائه الجزائريين الذين سبق له أن قال عنهم انهم «خدموا اللغة في بلاده» (14) وكان بذلك ، في نظرنا ، يخدم الاستشراق والثقافة الفرنسية أكثر مما كان يخدم التيار العربي والثقافة العربية . ولعل ترشيحه هو الى عضوية المجمع قد تم أيضا بهذه الطريقة . كما كشف ابن أبي شنب في بعض رسائله (رقم 2) عن دور الواسطة الادارية لقضاء المصالح في عهده . فقد نصح صديقه محمد كرد علي بأن يستعمل نفوذ بعض الفرنسيين « من أصحاب الوجاهة والتمكين » للحصول على احدى المطبوعات من الجزائر .

ولهذه الاعتبارات جميعا رغبنا في تقديم هذه الرسائل الى القراء عسى ان يلفت محتواها انظارهم فيحكمون عليها وعلى صاحبها حكما يتفق أو يختلف مع الحكم الذي أصدرناه بشأنها .

التعاليق على المدخل

1) لأهمية هذه الاجازة سنقدمها للنشر بعد ان حصلنا منها على نسخة مصورة .
2) ترجمته في الأعلام للزركلي 7 : 148 ، وعبد الرحمن الجيلالي ، (ذكرى الدكتور ابن أبي شنب) الجزائر ، 1353 . وهو تلميذه . أنظر : كذلك تأبينه من طرف صديقه الفريد بيل (المجلة الآسيوية) ،
الجزائر ، 1353 . وهو تلميذه . أنظر: كذلك تأبينه من طرف صديقه الفريد بيل (المجلة الآسيوية) ، مجلد 214 (1929)،ص 359 ـ 365 . وقد ترجم لنفسه ترجمة نشرت بعد وفاته في (مجلة المجمع العلمي العربي) بدمشق ، أبريل (نيسان) 1930 ، ص:238 ـ 240 ، ويتضمن هذا المصدر أيضا تأبين صديقه هنريه ماسيه له .
3) ابّنه ابن أبي شنب ونشرت ذلك (مجلة المجمع العلمي العربي) ، أبريل (نيسان) 1924 ، ص:164 ـ 166 .
4) وهو الذي اقترحه ابن أبي شنب على المجمع ليحل محل رينيه باسيه . أنظر : الرسالة رقم 2 .
5) أنظر : كلمة الفريد بيل في تأبينه (المجلة الآسيوية) 214 (1929) ، ص : 364 ـ 365 ، وكذلك كلمة صديقه هنري ماسيه عنه المشار اليها .
6) حياة محمد كرد علي مفصلة في مذكراته ، وفي بحث سامي الدهان «حياة محمد كرد علي وآثاره» في (مجلة المجمع العلمي العربي) ، مجلد 30 (أبريل 1955) ، ص : 211 ـ 252 ، مع صورته . أنظر : أيضا الأعلام 7 : 73 ـ 75 ، وكذلك جمال الدين الآلوسي ، (محمد كرد علي) بغداد ، 1966 .
7) عن انتخابه أنظر : (مجلة المجمع العلمي العربي) ، يناير (كانون الثاني) ، 1921 ، ص : 31 ، ويظهر اسمه فيها هكذا : محمد بن شنب ، كما اشتهر به لدى الفرنسيين .
8) معظم آثاره مفصلة تاريخيا حسب ظهورها في كلمةالفريد بيل المشار اليها .
9) مجلة المجمع العلمي العربي ، فبراير (شباط) 1923 ، ص : 64 . ولم يذكر المحضر أسماء هؤلاء العلماء ، كما أننا لم نعثر على هذه الرسالة . أنظر : التعليق رقم 14من هذا البحث .
10)نفس المصدر ، مارس (آذار) ، 1924 ، ص : 145 .
11)حصرنا مشاركته في ستنقط ، كلها في نفس المصدر ، وهي على النحو التالي :
(1) ملاحظة على مثلث قطرب مايو (آيار) 1922 ، ص : 160 ، (2) تصحيح حول قصيدة تدميث التذكير ، سبتمبر (أيلول) 1923 ، ص : 281 ،(3) تأبين رينيه باسيه ، أبريل (نيسان) ، 1924 ، ص : 224 ـ 226 ، (4) الغزالي أو الغزالي ،مايو (آيار) 1927 ، ص : 224 ـ 226 . (5) إيضاح واستيضاح ، نوفمبر (تشرين الثاني) 1928 ، ص : 692 ـ 693 ، (6) أصل كلمة «الجزائر» فبراير (شباط) 1929 ، ص : 99 ـ 102 .

12) يجدر بي هنا أن أنوه بفضل الدكتور شكري فيصل ، أمين سر مجمع اللغة العربية بدمشق ، الذي تفضل وأمر بتصوير الرسائل الخمس المرغوب فيها بعد اطلاعي على الجميع .

13) توفي يوم السادس من فبراير 1929، بمدينة الجزائر ودفن في مقبرة سيدي عبد الرحمن الثعالبي .

14) يجب الحذر إزاء هذا التعبير ، فقد يعني العلماء الجزائريين العرب ، وقد يعني علماء الفرنسيين في الجزائر . والاطلاع على نص رسالته الموجهة إلى المجمع بهذا الشأن هو الكفيل بالإجابة على هذا الاشكال .

الرسالـة الاولى

لمدية(1)، 20 ذى القعدة، 1340:

جناب العالم الالمعي، سيدي محمد كرد علي، أدام الله لنا وجوده، وأفاض علينا جوده .

أما بعد، سلام واف وافر، واكرام باه باهر، فقد ارسلت اليكم من الجزائر لفا بريديا مشتملا على كراريس(2) من جملتها مثلث قطرب(3)، طبق طلبكم.

هذا وقد بلغني العدد الرابع والخامس من مجلة المجمع العلمي العربي. ولم يصلني العدد الثالث منها، واظن انه ضاع بسبب كتابة العنوان بالعربي فقط وبالخط المشرقي الذي تصعب قراءته في هذه الديار. وسدا لهذا الخلل أضفت لارساليتى عددا من أوراق فيها عنواني باللغة الفرنسية . وبهذه الطريق أرجو أن لا تضيع ادارة البريد عددا من الأعداد وان رأيتم فتفضلوا بالارسال الي العدد الضائع كنتم مأجورين ممنونين .

والسلام من حليف الأدب على الدوام .

محمد بن أبي شنب

1) هكذا في الأصل، وهي الآن تكتب المدية .

2) لا ندري ما هذه الكراريس والغالب أنها جملة من مؤلفاته ومحققاته .

3) نشره ابن أبي شنب بالجزائر سنة 1907 . وقد ذكره في ترجمته لنفسه بالجمع «مثلثات قطرب». أنظر: مجلة المجمع أبريل 1930 ، ص : 238 ، أنظر أيضا: تعليقه على مثلث قطرب في نفس المصدر ، مايو 1922، ص: 160 .

* عملا (1) بأمر معالي الاستاذ (2) أرسلنا اليه الجزء الثالث من هذه السنة الذي لم يصل الى صاحب هذا الكتاب كما جاء فيما كتبه اعلاه وسلمناه الى البريد مصحوبا بالعنوان الفصيح الوارد من الجزائر ، 1922 .

---

1) هذا التعليق مضاف بخط رقعي وهو بقلم كاتب المجمع أو محرر المجلة .

2) يعني محمد كرد علي رئيس المجمع .

الرسالــة الثانية

جناب العلامة الأكرم سيدي محمد كرد علي الأفخم، بعد السلام التام، مع التحية والاكرام، أبلغ سيدي أنه وصلني تقرير المجمع عن السنة الماضية، وكذلك كتابكم المؤرخ في 1 كانون الثاني. وعرضت على ادارة المجلة الافريقية *Revue africaine* (1) بصفتي كاتب عام ثان، رغبتكم في المبادلة وألححت في الطلب مظهرا فائدة الرابطة بين علماء الأدب، فلم تقبل طلبي، وحيل بيني وبين بغيتي. أما المجلة التونسية(2) فأشير عليكم بمراسلة حبيب الجميع والمجمع سيدي حح عبد الوهاب(3)، فانه أدرى بفتح الباب، أليس أهل مكة أدرى بشعابها .

وأما المطبوعة الدولية بالجزائر فاكتبوا رأسا الى مدير الأمور (كذا)(4) الوطنية واشفعوا كتابكم بكتاب من بعض المأمورين الفرنسيين من أصحاب الوجاهة والتمكين :

Directeur des Affaires indigènes au gouvernement général de l'Algérie, Alger.

---

1) هي المجلة التي كانت تصدرها الجمعية التاريخية الجزائرية (1856 ـ 1962) .

2) *Revue tunisienne* ، تأسست سنة 1894 .

3) حسن حسني عبد الوهاب (1884 ـ 1968) انتخب أيضا للمجمع العلمي العربي بدمشق في نفس السنة التي انتخب فيها ابن أبي شنب . نعيه وصورته في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، أبريل 1971 ، ص: 444 ـ 446 .

4) كلمة (كذا) موجودة بالأصل لتأكيد الاسم الذي يشير اليه . ومدير الادارة الوطنية هذا هو الذي كان يشرف على كل ما يتعلق بالجزائريين داخل الادارة الفرنسية .

هذا وقد أصيبت كلية الآداب بالجزائر ومجمعكم العلمي بوفاة الأستاذ روني باسي من مشاهير علماء الجزائر وفرنسا بالأمور الاسلامية. ولما كانت له من العناية والدراية سطرت لكم حياته وسردت بعض مؤلفاته ان رأيتم ادراجها في مجلتكم الغراء (1).

وبهذه المناسبة اقترح عليكم ان تخلفوه بأستاذ بكلية الآداب بالجزائر قد نشر الى يومنا تاريخ ابن ميسر ، وطبع بالفرنسية كتابا ضخما في حياة شاعر فارس صاحب كلستان وبستان، وغير ذلك من قلائد العقيان، الا وهو الشيخ النطاسي، هنري ماسي (2) .

Henri Masse, professeur de littérature arabe et persane à la faculté des lettres d'Alger.

الجزائر ، 20 فورار (3) ، 1924 .

الداعي لكم، محمد بن أبي شنب

1) قرئت الكلمة في جلسة المجمع (فبراير 1924) ونشرت في مجلة المجمع، ابريل 1924، ص: 164 ـ 166 .

2) أخذ المجمع بالاقتراح وكتب الي ماسيه يخبره بانتخابه .

3) نطق محلي لشهر فبراير .

الرسالــة الثالثة

الجزائر في 3 ربيع الثاني، 1347 .

سيدي الرئيس الهمام، أدام لنا وجودكم بين العلماء الكرام.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وتحياته ورضوانه . ما تغنت أطيار البستان وتمايلت أغصانه .

أما بعد فاني لا أنسى أوقاتا كنتم لي فيها انسا وان كانت قليلة(1). فقد دلتني على سجاياكم السنية ، وبرهنت على مزاياكم الالمعية وعوارف معارفكم الأصمعية وأرى من الواجب أن أعيد لحضرتكم الشكر الكثير ، والدعاء لكم بكل فضل وخير .

وعند ايابي الى مسقط الرأس، وجدت عددا من مجلة المجمع العطرة الأنفاس . وبينما كنت أتروى بوصل ، واسرح العين بين ياسمين وفل ، اذ تحت وردة ظهر لي أن فيها شوكا أو حسكا، فحاولت ازالته دركا، فلم أقدر على نزعه بالتمام(2)، وناديت يا رئيس يا امام، يامشرق مغرب، يا من لا يحتجب عنه مطلب : هذه مسألة مشكلة ، ونكتة مغلقة مقفلة، لا يحلها الا حبر المشرق، المحقق المدقق :

ان لم تكن لأخي السؤال فمن له   يا من صرفت له الرجاء فما لـــه

1) رغم ان النص غير واضح فإن ابن أبي شنب يشير الى لقائه بمحمد كرد علي في المؤتمر السابع عشر للمستشرقين الذي انعقد بأكسفورد سنة 1928 . ويبدو أن ذلك كان لقاؤهما الأول والأخير .

2) هذا تلغيز لم نهتد الى حله. وقد عدنا الى اعداد المجلة لسنة 1928 فلم نجد شيئا يدل على ما يشير اليه .

هذا وان كانت لكم رغبة في طبع قصيدة ابن دريد مع شرحها (1) في المجلة الغراء أرسلها اليكم مع جميل الثناء. واعلموا ان الجميع لا يتجاوز ثماني صفحات، عدد أبواب الجنات .

حبيبكم الحميم ، ابن أبي شنب

---

1) يبدو أن الموت لم يسمح له بإرسال القصيدة وشرحها .

الرسالــة الرابعة

جناب الوزير الخطير، والرئيس التحرير، العلامة الولي، سيدي محمد كرد علي. حفظه الله العلي. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ورضوانه .

أما بعد فقد بلغني كتابكم. وبعد ما قرأته قلت بأعلى صوتي : لبيك لبيك، والسرعة اليك! ثم أخذت في كتابة العجالة بل الحثالة وأرسلتها اليكم توا ولم اقرأها مرة ثانية للاصلاح والتهذيب ، والترقيب والتعقيب. فهي على علتها ، فأكرموا حلتها (1) .

وكان ببالي أن الومكم «لوم الأحباب من العتبة للباب» على اخفاء تصدركم للوزارة، فكنت أفرح بالبشارة، واهنئكم تهنئة الأخ ، وأرجو لكم كل عز علا وشمخ، وبالعافية امترخ .

والسلام في البدء والختام

سانت أوجين (2) ، الجزائر ، 1347/5/14 م. ابن أبي شنب

* وصلت المقالة (3) ودفعت الى مواد المجلة 17/11/ 1928 .

---

1) يشير الى تعليقه حول أصل كلمة «الجزائر» الذي نشرته مجلة المجمع بتاريخ فبراير 1929، ص: 99 ـ 102، وهو آخر ما نشر له في المجلة لانه توفي في نفس الشهر. ويبدو من السياق ان محمد كرد علي قد طلب منه التعليق لنشره في المجلة بعد ان قرأ الرسالة رقم 3. وفي هذا التعليق دافع عن الاتراك في الجزائر.

2) هي ضاحية بولوغين اليوم بالعاصمة .

3) هذا التعليق بخط رفعي الكاتب المجمع أو مدير المجلة .

الرسالـــة الخامسة

بســـــــم الله الرحمـــــــن الرحـــــيم

سعادة العزيز الفخيم، والرئيس الحميم، العلامة الولي، سيدي محمد كرد علي، أبقاه الله بالخير والعافية، وبلغه آماله وأمانيه .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد فجوابا على رسالتكم(1) المؤرخة في 6 جمادي الأولى الماضية. ولكن لم تصلني الا في يومنا هذا، أرسلت الى جنابكم الرفيع صورتي الشمسية(2) مع نبذة (3) من ترجمتي كنت كتبتها منذ ستة أعوام(4) لبعض المغاربة ولم أرسلها اليه لسبب من الأسباب، فاصنعوا بها ما شئتم. والسلام عليكم .

حرر بسانت أوجين ، (4) الجزائر ، جمادي الثانية ، 1347 و 18 نوفمبر 1928

ابن أبي شنب

1) في هذا ما يؤكد تبادل الرسائل بين الرجلين .

2) لم تنشر المجلة الصورة الا في عدد فبراير (1929)، وهو الشهر الذي توفي فيه .

3) يفهم من هذه الكلمة ان ابن أبي شنب قد ترجم لنفسه مطولا ولكن لم يرسل سوى نبذة .

4) رغم هذا التاريخ فان النبذة قد احتوت على بعض الأعمال التي تعود الى سنة 1927 كالاشارة الى طبع كتابه (الجمل) للزجاجي بالجزائر سنة 1927، وهو الكتاب الذي عرف به محمد كرد علي في مجلة المجمع (آيار 1928)، ص 305: .

إعـــلام الاحبـــار

مقامة لأحمد البوني .

من مؤلفات الشيخ أحمد البوني الكثيرة مقامة بعنوان (اعلام الأحبار بغرائب الوقائع والأخبار) (*) . وقد اطلعنا على هذه المقامة في مكتبة الجامع الكبير بالبرواقية أوائل السبعينات(1). وطلبنا من الشيخ الفضيل طوبال، الامام بالجامع المذكور، استنساخ نسخة منها فقام بذلك مشكورا سنة 1975. ثم أعدت زيارة البرواقية سنة 1979 والتقيت بالشيخ طوبال وصححت معه النسخة بالمقابلة على الأصل. كما اني قرأت المقامة مع الشيخ محمد الطاهر التليلي بقمار في شتاء 1979 ـ 1980 وأرشدني مشكورا الى أصول الأبيات الواردة فيها وبعض الأسماء، وها أنا أقدم المقامة للنشر لتضاف الى ما نشرته من نصوص جزائرية أدبية وتاريخية ، في العهد العثماني (2) .

ومؤلف المقامة، احمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني، ولد في عنابة سنة 1063هـ وتوفي بها سنة 1139 . وهو من أسرة توارثت العلم والتصوف . فأبوه وجده وابنه وبعض أقاربه كلهم سلكوا هذا الطريق. وقد قرأ هو بعنابة وتونس ومصر والحجاز. وتراسل مع علماء مدينة الجزائر وغيرهم . وله اجازات من بعضهم ، كما اجاز هو بعض معاصريه . وله مؤلفات عديدة تجاوزت ، حسب دعواه المائة. وقد فصلنا القول في حياته ومساهمته الفكرية في غير هذا المكان (3).

(*) نشرت بمجلة (الثقافة)، عدد 58 (يوليو ـ غشت 1980) .

1) مجموع رقم 15. وخطها أسود جيد .

2) أنظر: (الثقافة) عدد 51 سنة 1979.

3) الجزء الثاني من كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) .

وجه البوني المقامة الى صديقه الشيخ مصطفى العنابي الذي كان عندئذ في مدينة الجزائر. وكان العنابي أيضا من علماء وقته. انتقل من عنابة الى الجزائر وحظي عند حكامها فولوه وظيفة التدريس ولعله تولى القضاء أيضا. وقد أصبحت عائلة العنابي من العائلات المحظية في مدينة الجزائر خلال القرن الثاني عشر الهجري (18م) فتولى اثنان منها وظيفة الفتوى على مذهب الامام أبي حنيفة. أحدهما الحسين العنابي والثاني حفيده محمد العنابي(1). وبذلك كان لهذه العائلة تأثير في السياسة أيضا. وبحكم ذلك طمع فيها الطامعون واستنجد بها المظلومون. مثل أحمد البوني وصديقه المفتي .

في هذه المقامة شكا البوني من أزمة حلت به وبصديقه في عنابة من جراء وشاية البعض بهما الى الباشا. فاستنجد بصديقه العنابي في مدينة الجزائر ليتدخل في صالحه لدى «السلطان». ذلك ان بعض العلماء من خصوم البوني ومفتي عنابة سعوا ضدهما لدى الباشا فصدق هذا الوشاية وعزل المفتي وأساء الى البوني . وبعد حيرة وتردد وبحث عن النصير خطر للبوني أن يلجأ الى صديقه العنابي الذي كان يعرفه في عنابة قبل انتقاله الى مدينة الجزائر .

وفي سياق المقامة عرض البوني أفكاره على هذا النحو : الديباجـة التي تحتوي على عبارات وعظية تمهيدا لطرح القضية . الشكوى من انحطاط العلماء الحقيقيين وارتفاع أشباه العلماء وانعكاس الزمان بأهله . الوشاية وعزل المفتي وتأزم الأحوال . الاستنجاد بالعنابي لتصحيح الأمور . خاتمة .

وقد صاغ البوني هذه الأفكار صياغة أدبية ودينية . فقد أكثر من السجع وتفنن في الألفاظ والعبارات. وأورد الأبيات الشعرية المناسبة. كما أنه استعمل عبارات التهويل والمبالغة في وصف الواشي والحالة التي أصبح عليها هو وصديقه المفتي. ولجأ الى الخيال والتصوير عندما فكر في الاستنجاد بالعنابي. فهو لم يقصده منذ لحظة الأزمة ولكن بعد أن جاءته «البشارة» كما وصف البوني أدب وعلم العنابي وتحدث عن أخلاقه وكرمه في نجدة المظلومين. أما العبارات الدينية فهي كثيرة . وخصوصا في الديباجة والخاتمة. وفي تضمين الآيات والأحاديث،

---

1) عن أسرة العنابي أنظر:كتابنا (المفتي الجزائري : ابن العنابي رائد الاصلاح الاسلامي) الجزائر، 1977.

كما تظهر في روح الوعظ التي تطغى على أسلوب المقامة واستعمال الأدعية ضد الظالم بأشكال مختلفة .

ان هذه المقامة التي كتبها البوني في فاتح عام 1106هـ تضاف الى تراثنا الأدبي في العهد العثماني الذي زعم البعض انه عهد خال من النشاط الفكري. وهي تعطينا صورة عن تطور هذا النوع من أنواع الأدب ، أدب المقامة. كما انها تسلط الضوء على صلة العلماء الجزائريين مع بعضهم ومع السلطة الحاكمة. أما موضوعها فهو قديم جديد. فكيد العلماء ضد بعضهم والحسد والغيرة والوشاية ونحوها من مظاهر الضعف الانساني كانت، وما تزال، شائعة وقد ذهب ضحيتها الأبرياء، وارتفع بسببها الأغبياء. وكان الحكام غالبا ما يصدقون كل واش دون تبين النزيه من السفيه والخبيث من الطيب. كما ان الاستنجاد بذوي الجاه كان، وما يزال، طريقة مستعملة في مجتمعنا للأسف. ويا ويح من لا يعرف أحدا على مستوى عال ! .

(اعلام الأحبار بغرائب الوقائع والأخبار)

بسم الله الرحمن الرحيم . صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله .

قال الشيخ المجيد، العلامة العميد، بديع الفصاحة، وبليغ البلاغة، تاج الأدباء، وعماد النجباء، أبو العباس سيدي أحمد بن الشيخ الأكبر، العلامة الأشهر، سيدي قاسم ابن الشيخ سيدي محمد أساسي (1). نفعنا الله به .

الحمد لله الذي جعل المصائب وسائل لمغفرة الذنوب، والنوائب فضائل لذوي الأقدار والخطوب، وسلط، سبحانه وتعالى ، على الاشراف، أرباب الزور والفجور والاسراف، ليردهم بذلك الى باب مناجاته، وليضفر (2) المبتلى منهم بقضاء أوطاره وحاجاته، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد نبراس الوجود، ومشكاة الشهود، الصابر على الأذى والحزن، الواعد من اتبعه بجزيل المواهب والمنن، وعلى آله وأصحابه، واتباعه وأحزابه، ما اتصلت رؤية بالعين، وقام عرض بالعين.

---

1) يكتب ساسي وأساسي. هكذا وجدناه في عدة مصادر .

2) كذا، وصوابها يظفر .

وبعد، أيها العلماء الفضلا، النبلاء الكملا. فرغوا اذهانكم. وألقوا آذانكم، وتأملوا ما يلقى اليكم من الخبر الغريب، وما يرسل الله تعالى على كل عاقل أريب. فقد ارتفعت الأشرار، واتضعت أرباب المعارف والأسرار (1)، وانقلبت الأعيان، وفشا في الناس الزور والبهتان، وأهملت أحكام الشريعة، وتصدى لها كل ذي نفس للشر سريعة.

بينما نحن في عيش ظله وريف، وفي أهنى (2) لذة بقراءة العلم الشريف، وفي صفاء من الأكدار، وهناء من صروف الأقدار، اذ سعى في تشتيت أحوالنا وقلوبنا، وهتك أستارنا وعيوبنا، من لا يخاف الله ولا يتقيه، فرمى كل صالح وفقيه، بما هو لاقيه، واغتر في ذلك بقوم يظنون انهم أفاضل، وهم والله أوباش أراذل، من كل مغتاب ونمام، أو مرتاب أوتمتام، ونسب لبعضنا من الكبائر والفضائح، ما تصم له الآذان وتجمد له القرائح، ونسبه لأمور عديدة، قبيحة شديدة، وما كفاه بث ذلك في كل ميدان. لأنه يسر الشيطان، حتى أوصله لمسامع السلطان (3)، فلم نشعر الا ومكاتب (4) واردة علينا من جانب الأمير بعزل صديقنا الشهير (5)، من خطة الفتوى، مع أنه ذو علم وتقوى، وتوالت علينا من يومئذ الكروب وانتهك جنابنا وضاقت رحابنا وطالت يد الصائلين علينا، ووصلت شوكتهم الينا، ومزقوا منا الأعراض، ولم يزالوا في ادبار عن الحق واعراض، خائضين (6) مع كل خائض، سالكين جدد المداحض:

وقالـوا نحـن أحضـار كـــرام نعـم حضروا ولكـن في المهالك

---

1) يقصد بأرباب المعارف العلماء وأرباب الأسرار أهل التصوف.

2) كذا، وهي أهنأ.

3) يستعمل مرة السلطان ومرة الأمير، والمقصود الباشا أو الداي المتولي في الجزائر.

4) أي الرسائل أو الأوامر الرسمية.

5) لم يكشف عن اسمه. وقد كان الافتاء في عنابة وظيفة يتقلدها أحد العلماء. أما التدريس فقد كان في عائلة البوني. وجاء في (بشائر أهل الإيمان) لحسين خوجه مخطوط رقم 2192 بالمكتبة الوطنية بالجزائر أن أحمد مصطفى برناز التونسي الذي زار عنابة حوالي سنة 1106 قد وجد فيها الشيخ المفتي الصديق وأحمد البوني. فلعل المفتي الذي ذكره البوني هو الشيخ الصديق الذي لقبه برناز.

6) في الأصل خاضعين.

فكل شر منهم باد، في الحاضر والباد. سنوا سنن الزور والافترا، بلا شك ولا امترا، وشرعوا شرعة البهتان، والسعي بالناس للسلطان. وأدخلوا في فسادهم ذلك، من لم يشعر بفعلهم ليوقعوه في المهالك، وافتخروا بالعظام البالية، وتشنصوا(1) للمراتب الشرعية العالية، وهم لا يعرفون من الدين الضروريات، ونفوسهم بحرمان الحقائق (2) حريات :

ومــا مثلهـــم الا كفـــارغ حمــص   خـلي مــن المعنى ولكــن يفرقــع

فسقهم فاش بين الأنام، مد الليالي والأيام :

لا ينظــرون فضيلــة مــن كــامــل   وهــم لكـل نقيصــة (3) بصار

فضراعة اليك، اللهم، في تخييب آمالهم، وافساد آرابهم وأعمالهم وتعجيل خرابهم، وتفريق أحزابهم وقطع آثارهم، وخراب ديارهم ونفيهم من البلاد، لأنهم أرباب بغي وفساد، لتسمعن ضجيجا في ديارهم، الله يا ثارات عثمان! واليك المشتكي يا ربنا فيما وصلنا منهم. واليك النظر في جزاء جميع ما بلغنا بالتواتر عنهم، فانك أنت الديان الملك الحق المبين، شديد البطش والانتقام ذو القوة المتين :

وأنــت وكيــلي يــا قــوي عليهـــم   وحسبــي أن كــان القــوي موكــلا

تحيرنا من ذلك أشد التحير، وتغيرنا بسببه أعظم التغير، ثم نادى منادي السرور، وقال : أبشروا برفع السوء عنكم ودفع كل الشرور، وأيقنوا بنيل المطالب، ومنافحة حسان ونجدة ابن أبي طالب (4) .

فقلنا : يا هذا، أصدقنا في هذه البشارة، فانك لدينا من أهل الصدق والاشارة، وروايتك صحيحة، وقريحتك بابراز عرائس المعاني غير شحيحة، ومقالك من أصدق القيل، وقلائدك (5) بها يستظل في المقيل، كم لك من

---

1) أي تطلعوا .

2) عبارة «حرمان الحقائق» غير واضحة المعنى . ونعتقد أنها كذلك في الأصل .

3) في الأصل نقيص .

4) يعني حسان بن ثابت والامام علي كرم الله وجهه .

5) هذه الكلمة غير واضحة المعنى مع ما بعدها . ولعل ذلك جاء من تحريف في النسخ .

الصلات (1) والعوائد، والصلاة والفوائد، ومن ذا الذي في هذا الزمان الصعب يؤمل في المصائب، وسهمه في تفريج الشدائد والأزمات صائب، بحيث يوثق به فيها، ويحي سنة قضاء الحوائج ويقتفيها، ويبلغ حاجتنا لدى السلطان الرفيع، ليمر على الصراط كالبرق السريع ، ويعرفه حقيقة الأمور ، وأن ما بلغه محض افك وبهتان وزور ، لا يصغي له إلا امعه ، ولا يلقي اليه ذو اللب مسمعه . ولو بحث عن حقيقة ما بلغه من الأمور، لما وجد لها أصلا يوثق به سوى ما افتراه ذوو القصور، البائعون حظهم من الجنة ذات الأنهار والقصور .

فأجابنا : عليكم بمن العزم سجيته، والحزم سليقته وطويته. والعلم رداؤه. والحلم لواؤه. والاناة (2) شأنه، والكرم ايوانه والخوض في العلوم النافعة طبعه وديدنه، يعترف له بذلك ممارس العلم ومتقنه. لو رآه ابن عباس (3) . لقال ليس به باس، أو امامه أبو حنيفة لجعله خليفه، لكونه معانق المجد وحليفه. أو الفخر الرازي، لقال هو لي نعم الموازي. يحصل به السرور للجنيد، ولا يدع ابن مالك يلتفت لعمر (4) ولا لزيد، بل لو أبصره السعد لقال يا بشراي هذا غلام، بغوامض المعاني والبيان علام. أو البدر العيني، لقال لا فدينه بعيني، أو الامام الطيبي، لقال هذا معيني على التفسير وحبيبي، ذلك ثمرة قلبي ونور عيني، العلامة السرسور (5) سيدي مصطفى العنابي ثم الجزيري (6) الجنيني (7) . فانه كشاف كربات. فعال قربات، يأخذ بيد الغريب، البعيد منه والقريب، صاحب جناب فسيح ولسان فصيح، كأنه في بداعاته سحبان، وفي براعته يعرب بن قحطان، يطبع

---

1) في الأصل الصلاة .
2) في الأصل الاناءة .
3) هو الصحابي عبد الله بن عباس ، ويليه قائمة من أسماء البلغاء والأدباء والمتصوفة والنحاة والمفسرين والمحدثين لمقارنة العنابي بهم . فلا حاجة لترجمة كل منهم ، وكان العنابي حنفي المذهب ، لذلك قارنه البوني بأبي حنيفة .
4) كذا في الأصل وصوابه ،عمرو بالواو .
5) لم نستطع تبين معنى هذا التعبير. وقد نقلناه كما هو. ولعل فيه تحريفا من الناسخ .
6) كذا، وهي احدى النسب الى الجزائر لكثرة الاستعمال. لا سيما عند أهل تونس ومن حولهم .
7) من المعروف أن عائلة العنابي قدمت من المشرق. والظاهر أن هذه النسبة الى جنينة في البلقان .

الاسجاع بجواهر لفظه ويقرع الاسماع بزواجر وعظه، يستميل القلوب بالاحسان، ويعلي الصدور سرورا بأحاديثه الصحاح والحسان :

فتى تم فيه ما يسر صديقه على أن فيه ما يسيء الأعاديا

يقضي حوائج الراجين، ويمطع من أمه (1) انه من الظافرين الناجين، ينصر المظلومين على الظالمين، بلا شك ولا مين، وان مضت لك معرفة قديمة تذكرها وراعى حقوقها القويمة (2) ، لا ينسى ما سلف من العهود إلى اليوم الموعود .

ماذا أقول فيه؟ وكم أكرم من زلال صافيه! علومه ربانية وأسراره رحمانية، ولا غرو في ذلك، فان الله قادر مالك :

بحر من العلم ان ألفيت ساحله وجدت درا وياقوتا ومرجانا (3)

لو رفعتم اليه هذه الحاجة، لقضاها لكم بلا توقف ولا لجاجة، لأنه فاتح أبواب المعروف، وبذلك من الأنام موصوف، لا تأخذه في الله لومة لائم، وأيامه في الناس أعياد وولائم، تكشف غمتكم بحول الله وقوته على يديه، وتملى أوطابكم وحقبكم من أياديه :

لا عيب فيه سوى أن النزيل به يسلو(4) عن الأهل والأوطان والخدم(5)

قلنا له : يا هذا، لوائح الصدق ظاهرة على صفحات أخبارك، وروائح الرجا والظفر استنشقناها من آثارك، كأنك بشير يعقوب، أوكشف الضر عن ايوب. لله درك! ما أبلغ ما جئت به، لدى كل عاقل منتبه، فقد شنفت أطماعنا، وشرفت أسماعنا ، وعلمنا علم ضرورة ويقين ، انك من الناصحين المتقين ، لأنك

---

1) أي قصده وتوجه اليه .

2) اشارة الى المعرفة السابقة بين الرجلين .

3) نسب البغدادي البيت إلى النابغة الذبياني ، وقيل انه للنابغة الجعدي . (خزانة الأدب) ج 2 ، ص : 13 ، ط . بيروت .

4) في الأصل بزيادة الألف : يسلوا .

5) كان مصطفى العنابي، رغم هذه الأوصاف الفضفاضة، كثير التعرض للعلماء المعاصرين له، ومن ضحاياه الشيخ محمد بن نيكرو، المفتي المالكي في مدينة الجزائر، وقد روي عنه ذلك تلميذه ابن المفتي صاحب التقييد المشهور، أنظر:كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي)، الجزء الأول، فصل العلماء .

أتيت الأمور من أبوابها، وكسيت من التقوى أجمل أثوابها. زكى الله تعالى أقوالك وأفعالك، ولا جعلها في البرزخ أفعى لك، فهنيئا لك بما حصل لك من جميل الآثار، وابشر بقوله صلى الله عليه وسلم : الدال على الخير كفاعله، كما رواه الأيمة الأخيار .

نسأل الله تعالى أن يمن على الجميع بتوفيقه ورضوانه وجزيل عفوه وجميل امتنانه، وأن ييسر علينا جميع المطالب، ويصرف عنا في الدارين المعايب والمثالب، انه جواد كريم، رؤوف رحيم غفور حليم، لا يخيب من أمله، ولا يرد من أم له. وأن يصلي ويسلم على سيدنا ومولانا محمد سيد الأبرار، وعلى جميع آله وسائر أصحابه وكل أتباعه المصطفين الأخيار، وأن يتجاوز بحلمه عما سلف منا من الذنوب، ويستر منا كل العيوب، وأن يفعل ذلك مع اشياخنا ووالدينا، وأقاربنا ومحبينا وقاصدينا ، بمنه وكرمه ، وبيته وحرمه ، آمين آمين آمين ، والحمد لله رب العالمين .

هذا المأمول من مطالعها أن ينظرها بعين الرضى ، والتجاوز والاغضا ، فان بضاعة صاحبها في العلم مزجاة، وانشاءاته منحطة في أسفل الدرجات .

وقد فرغ منها منقحها الفقير المذكور، ضاعف الله له الأجور، ووقاه كل الشرور ، وأخذ سبحانه بيده، وبلغه في الدارين الى مقصده، في أواسط شعبان، الذي اشتهر فضله وبان، عام ستة ومائة وألف من الهجرة النبوية، على مشرقها أفضل صلاة وأزكى تحية.

والحمد لله رب العالمين حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يحب ربنا ويرضى . حمدا يوافي نعمه ويكافي مزيده ، لا أحصي ثناءعليه كما هو أثني على نفسه .

انتهت المقامة المسمات (كذا) باعلام الأحبار بغرائب الوقائع والأخبار .

مراسلة غريبة بين ابن باديس وأحد علماء سوف

لم يشتهر عن عبد الحميد بن باديس انه من زوار أضرحة الأولياء والصالحين. ولا من كتاب المحسنات البديعية. ولا من المتجولين داخل القطر الجزائري قبل العشرينات. ولكن الوثيقة التي نقدمها اليوم تكشف انه قد فعل كل ذلك. وهذا هو وجه الغرابة في هذه المراسلة وهو الذي جعلنا نقدم على نشرها حتى يشاركنا الباحثون في حياة ابن باديس هذه الجوانب الخفية منها.

1 ـ العثور على الوثيقتين :

توجهت أثناء عطلة الشتاء الى مسقط رأسي (قمار) بسوف. ومنها أخذت في الاتصال برجال العلم بالوادي وتقرت وما جاورهما لعلني أجد مادة اثرى بها كتابي (تاريخ الجزائر الثقافي). ومن الشخصيات التي لفتت نظري شخصية المرحوم الظاهر العبيدي الذي مازالت تحتفظ له مدينتا الوادي وتقرت بذكريات جميلة. فقد وجدت من بين آثاره مراسلة بينه وبين ابن باديس تعود الى الحرب العالمية الأولى (1917). ولما قرأت المراسلة وجدتها تعبر عن نشاط غريب من الطرفين. وها أنا أنشر هذه المراسلة بجزئيها.

ويعود الفضل في اطلاعي على الوثيقتين الى الأستاذ مصباحي مصباح، مدير ثانوية الوادي، فهو الذي اتصل بحفيد الشيخ الظاهر العبيدي بتقرت الأستاذ عبد السلام سليماني. وجلبهما منه(1) وقد اطلعت عليهما مصورتين عنده في

1) في مراسلة لاحقة مع الأستاذ سليماني عرفت منه أن الأصل عند السيد المكي العبيدي (وهو نجل المرحوم الظاهر العبيدي) وقد وافاني الأستاذ سليماني مشكورا بمصورة أخرى من الوثيقتين بتاريخ 13 /3/ 1980.

الثانوية يوم 20 فبراير، 1980، وقد أخذت الوثيقتين معي الى (قمار) وصورتهما هناك، وقبل اعادتهما اليه قابلت النسختين مع الأستاذ محمد الطاهر التليلي القماري، ثم عدت بالوثيقتين الى مدينة الجزائر عازما على نشرهما .

2 ـ قصيدة العبيدي في ابن باديس . :

والوثيقة الأولى قصيدة من اثنين وعشرين بيتا نظمها الطاهر العبيدي في صديقه عبد الحميد بن باديس، مادحا له بالعلم والتقى ومقارنا له بالبدر، ويفهم من البيت الأول منها ان القصيدة كانت من وحي زيارة لابن باديس الى تقرت. كما أشاد فيها الشاعر بآل باديس جملة وبدورهم في الحياة السياسية والعلمية في المغرب العربي قديما وحديثا . وهي قصيدة مفعمة بروح الشعر رغم أن صاحبها من رجال التصوف، كما سنرى. ولعل قوة القصيدة تعود الى صدق صاحبها وعاطفته الشابة عندئذ. ذلك اننا رأينا له منظومات كثيرة في الاخلاق والعلم والدين لا ترقى الى مستوى هذه القصيدة ، كما رأيت له قصيدة قالها في استقلال الجزائر فاذا بها تكاد تخلو من روح الشعر.

وقصيدة العبيدي في ابن باديس لا تحمل تاريخا ولكن رد ابن باديس عليها يدل على أنها نظمت أيضا سنة 1337هـ / 1918 ـ 1919م وهي أيضا غير موقعة، ولكن اسم الناظم يرد ضمنها (البيت 19). والظاهر أنه نظمها في مدينة تقرت .

3 ـ رسالة ابن باديس :

أما الوثيقة الثانية فهي رسالة ابن باديس الى الشيخ العبيدي. ويظهر من رد ابن باديس ان العبيدي قد ارسل القصيدة الى صديقه فلم يأته رد عليها، وحين استبطأ الرد كتب له رسالة أخرى نثرية (لا نملكها الآن) عاتبه فيها على عدم الجواب. وكان ابن باديس عندئذ غائبا عن قسنطينة، متجولا في غرب ووسط القطر. وحين رجع الى قسنطينة وجد رسالة العتاب فأخذ القلم وكتب هذه الرسالة التي ننشرها اليوم، وهي مكتوبة في قسنطينة سنة 1337هـ (1919م)، وموقعة بوضوح، وهي أيضا تظهر براعة ابن باديس في الاعتذار وحسن التخلص. ومما يلفت النظر ما جاء فيها من المحسنات البديعية من سجع وطباق وجناس، وهي

ظاهرة غير معروفة في انشاء ابن باديس الصحفي الذي اشتهر به ما بين الحربين. ولعل رسائله الاخوانية الأخرى تحتوي على مثل هذه المحسنات أيضا ذلك ان الرسائل الاخوانية خير معبر على طبيعة الكاتب الحقيقية وميوله الفنية .

وتكشف رسالة ابن باديس أيضا عن ظاهرة أخرى هامة ، وهي اهتمامه بالاولياء والصالحين «الاحياء والأموات». فقد ذكر فيها انه زار في تلمسان ضريح أبي مدين الغوث وضريح محمد السنوسي، وكلاهما من أقطاب التصوف والعلم في وقتهما. اما في مدينة الجزائر فقد ذكر انه زار ضريح عبد الرحمن الثعالبي الذي اشتهر بالزهد والعلم في وقته، ولكنه أصبح منذ القرن العاشر الهجري (16م) موئل المتصوفين والدراويش. كما زار فيها ضريح محمد بن عبد الرحمان الأزهري «بوقبرين» مؤسس الطريقة الرحمانية الخلوتية في الجزائر. ومن الشائع ان ابن باديس كان من اتباع هذه الطريقة في أول حياته، وهي الطريقة التي كان يمثلها في قسنطينة عندئذ مصطفى باش تارزي. وكان الشيخ باش تارزي هذا هو الذي طلب من ابن باديس تصحيح والاشراف على طبع (المنظومة الرحمانية) (1) التي نظمها عبد الرحمان باش تارزي، وقد قام ابن باديس بذلك. وعلى كل حال فان رسالة الشيخ ابن باديس الى الشيخ العبيدي تبرهن على انه ما يزال تحت طائلة التصوف.

أما الظاهرة الأخرى التي وجدناها في هذه المراسلة فهي نشاط ابن باديس خارج قسنطينة في وقت لم تكن فيه الظروف الحربية تسمح بالجولان حتى داخل القطر . والواقع ان هدف ابن باديس من تجواله في تلمسان والجزائر ما يزال غامضا. فهو يذكر انه قام بجولته «لزيارة الأحياء والأموات من العلماء والصلحاء وأعيان الزمان»، ولكن الأمثلة التي ضربها كلها تتعلق بالأموات . فمن هم ياترى الأولياء والعلماء الأحياء الذين زارهم أيضا؟ وماذا كان وراء هذه الزيارات؟ هل كان يجس النبض قبل الاعلان عن دعوته الاصلاحية؟ أو هل كان يطلع «الاحياء ... من أعيان الزمان» عن أحوال تونس والمشرق اللذين كان حديث عهد بهما؟ أو هل كان فعلا

---

1) ظهرت طبعتها الثانية، التي أشرف عليها ابن باديس، بقسنطينة سنة 1341هـ / 1923م، ولها عنوان طويل يدل على محتواها الصوفي، وهو : **المنظومة الرحمانية في الأسباب الشرعية المتعلقة بالطريقة الخلوتية** .

من «أهل الله» يزور أضرحة الأولياء والصلحاء كما فعل سلفه الحسين الورتلاني؟ ان الكشف عن نشاط ابن باديس خلال الحرب العالمية الأولى ومراسلاته الاخوانية الأخرى هو الكفيل بالاجابة على هذه الأسئلة .

4 ـ الرجلان : ابن باديس والعبيدي :

واذا كانت حياة ابن باديس (1889 ـ 1940) معروفة الى حد كبير فان حياة الطاهر العبيدي ما تزال مجهولة، الا في نواحي سوف وتقرت ونفطة. ولذلك نود ان نقول كلمة عنه . فقد ولد في مدينة الوادي سنة 1304هـ/ 1886 ـ 1887م . وتوفي بتقرت سنة 1387هـ/ 1968م . وكان منذ شبابه (منذ سنة 1322 / 1904) اماما مدرسا بجامع تقرت الأعظم . وقد ظل على ذلك الى وفاته . وكان العبيدي ، خلافا لابن باديس ، من رجال الوظيفة الرسمية . وقد درس في مسقط رأسه على شيوخ منهم عبد الرحمان العمودي ومحمد العربي موسى ، كما درس في جامع الزيتونة بتونس ، ومن أساتذته هناك الشيخ محمد الطاهر بن عاشور. كما أنه أخذ العلم اجازة بالمراسلة من الشيخ المكي بن عزوز الذي راسله بها من الآستانة. وكان المكي بن عزوز من أقطاب الزاوية العزوزية ذات الصيت الذائع في نواحي وادي سوف وجنوب غربي تونس وكانت صلة العبيدي بهذه الزاوية قوية حتى انه الف فيها «نصيحة»(1) ومن تلاميذه أخوه أحمد العبيدي (1307 ـ 1397) صاحب التاليف العديدة أيضا والذي كان مدرسا واماما بجامع مدينة جامعة، وكذلك المدني بن محمد العربي موسى والطاهر بن سيدي سالم .وأغلب ما كان العبيدي يدرسه لتلاميذه علوم النحو والفقه والتوحيد. ولا شك انه كان يؤثر فيهم أيضا بسلوكه التصوفي .

وكانت للعبيدي مكتبة كبيرة تحتوي على مخطوطات ومطبوعات. ولعل هذه المكتبة قد آلت الآن الى ابنه المكي العبيدي أو الى حفيده عبد السلام سليماني. وللشيخ العبيدي تآليف في موضوعات مختلفة بلغت حوالي ثمانية عشر تأليفا،

---

1) **النصيحة العزوزية** ، ط ، مصر ، 1954 ، وعنوانها الكامل **النصيحة العزوزية في نصرة الأولياء والصوفية** مضافا اليها منظومة أخرى سماها **نصيحة الشباب المزيحة للسحب والضباب** وقد قرظ النصيحة الأولى : ابن باديس نفسه، ومحمد بن عبد الرحمان الديسي، وعبد ربه بن سليمان المصري، واشرف على طبعها في مصر الطويل مسعود محمد تلميذ العبيدي .

وهي صغيرة الحجم وتتناول في أغلبها الفقه والتصوف والاخلاق والنحو. وقد اطلعت شخصيا على بعضها بخطه وبعضها بخط الشيخ مصطفى السالمي القاطن حاليا بمدينة الوادي. وبعض هذه التآليف مضروب على الآلة الراقنة.

ومن تآليفه الفية منظومة من 856 بيتا في التصوف سماها: **جريان المدد في الاعتصام برجال السند**. وهو يعني برجال السند هنا رجال التصوف وليس رجال الحديث المعروفين. وقد سار في هذه الالفية، كما قال، على نهج أحمد البوني في الفيته: **الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة**. وله أيضا: **رسالة التخويف والتخوف على ايمان منكر الصوفية والتصوف** وقد رأيتها بخطه منثورة في حدود ثماني صفحات طوال. ومنها: **رسالة في كيفية العبادة** رأيتها أيضا بخطه، وهي منثورة وفي حدود عشر صفحات طوال. كما رأيت بخطه: **رفع الابهام عن مسائل الصيام** في حدود ثماني عشرة صفحة. ورسالة أخرى سماها: **رفع اللهو في كشف مسائل السهو**، وهي في ثلاث عشرة صفحة. وقد أشرنا إلى منظومته التصوفية: **النصيحة العزوزية**. وللعبيدي أيضا منظومة في التوحيد سماها: **رسالة الطبيعة**، وهي في الرد على الطبيعيين، ورسالة في الجبر والاختيار، وله في النحو نظم سماه: **بغية الآمل في نظم رسالة العوامل**، كما نظم عملا في البلاغة للدردير سماه: **نظم رسالة القطب الدردير في البيان**. وهكذا (1).

وهناك أوجه شبه واختلاف بين ابن باديس والعبيدي. من ذلك صداقتهما أيام الطلب في تونس، وهو ما يشير اليه ابن باديس في رسالته بعبارة «**قديم التذكار**» رغم انها عبارة غير صريحة في هذا المعنى. ومن ذلك أيضا انتماء الرجلين الى الطرق الصوفية عموما، ولا سيما الطريقة الرحمانية. ذلك ان كليهما كان رحمانيا خلوتيا. فأما ابن باديس فشيخه في ذلك هو مصطفى باش تارزي القسنطيني الذي أشرنا اليه، وأما العبيدي فشيخه في ذلك هو المكي بن عزوز. وقد كانت الطريقة العزوزية فرعا من فروع الطريقة الرحمانية، وهي منتشرة في طولقة (زاوية الشيخ علي بن عمر هناك) وفي وادي سوف وفي الجريد التونسي. ومن جهة أخرى يعود أصل الطاهر العبيدي الى أولاد عبيد، المنتشرين حول بئر العاتر، قبل أن

1) للعبيدي أيضا منظومة حول: **ستر العورة**، وقد قرظها ابن باديس بأبيات سنة 1337هـ، أنظر: **النصيحة العزوزية** ط. مصر. 1954. ص: 7.

تنزح أسرته الى وادي سوف . فهناك اذن انتماء جغرافي أيضا بين الرجلين . واذا كانت هذه الأمور كلها تقرب بينهما فان هناك عاملا كان يباعد بينهما، وهو رفض ابن باديس للوظيف الرسمي وقبول العبيدي له. ولعل هذا هو السبب في تحرر الأول تدريجيا من قيود التصوف والطرقية واعلانه عن مشروعه الاصلاحي بينما ظل العبيدي حبيس الطرق الصوفية والقيود الرسمية، حتى انه، على ما قيل لي، (1) لم يحضر سنة 1931 الاجتماع العام الذي انعقد بنادي الترقي بالعاصمة، وهو الاجتماع الذي انبثقت عنه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .

ومهما كان الأمر فان هذه المراسلة بين العبيدي وابن باديس أصبحت اليوم جزءا من التاريخ المعاصر للجزائر ومن الأدب الاخواني الذي كان متداولا بين الأدباء ورجال العلم. ونعتقد اننا بتقديمنا لهذين النصين نكون قد خدمنا التاريخ والأدب معا واضأنا نقطة أخرى من حياة الرجلين العالمين ابن باديس والعبيدي.

5 ـ قصيدة العبيدي :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

بروحي جليلا حل (تقرتنا) (2) النضرا ... يفوت شذا اخلاقه المسك والعطرا
فأما محياه المحيى فان من ... يشبهه بالبدر مرتكب أمرا
أفي البدر من أخلاقه وعلومه ؟ ... وهل فيه تحرير التقارير والأقرا ؟
ولكنه قد ضم مع علمه تقى ... ويسلك في التعليم منهجه الأحرى
وما كان في الحسبان رؤية مثله ... بوقت وهت فيه القراءة والقرا
رأيت له علما وعقلا مطهرا ... وحسن اعتقاد للهدى يشرح الصدرا
هنيئا لكم أهلي قسنطينة الألى ... لهم غيرة في همة تزحم الشعرى
ستلقون في علم الشريعة جدة ... وترقون في الأخلاق مرتبة كبرى

---

1) أخبرني بذلك الشيخ الحسني الهاشمي (المولود حوالي سنة 1905) في جلسة معه يوم 1980/2/11 بالوادي، وقال انه لم يحضر من علماء سوف الذين وجهت اليهم الدعوة سوى الشيخ عمار بن الازعر القماري وذكر لي منهم : ابراهيم بن عامر صاحب كتاب **الصروف**، والطاهر العبيدي وأخوه أحمد العبيدي والميداني سوساوي .

2) يعني مدينة تقرت، وفي هذا دلالة أيضا على أن ابن باديس قد زار تقرت قبل سنة 1337هـ.

فدونكم عبد الحميد ودونكم — مآدب آداب لكم تنعش الفكرا
ولازلتم يا آل باديس في اعتلا — بغير اعتلال لا يرى عزكم ضيرا (1)
وتبدون في كل النوادي نوادرا — من العلم يقفو النجل آباءه اثرا
تروضون من عالي العلوم عوائصا — وترضون بالأعمال ربكم البرا
كما كنتم في غابر الدهر سادة — تسوسون ذاك الغرب سيرتكم غرا
فحاصلكم اما مليك مظفر — يهز لواء العدل يبسطه نشرا
واما عليم يبعث الناس علمه — يحوط مشيد الدين من شبه تطرا
جزى الله خيرا ذلك السلف الذي — تقلد سيف الملك يحمله اصرا
وبارك فيكم أيها الخلف الرضى — لقد شدتم علما وسدتم ولا فخرا
سلام عليكم يشمل الكل عرفه — من (القيروان) (للجزيرة الخضرا) (2)
من الطاهر الود العبيدي محتدا — (بتقرت) و (الوادي) مناوبة قرا (3)
وأسألك اللهم تطهير قالبي — وقلبي وطيب العيش والفوز في الاخرى
وصل على خير البرايا الذي برى — بصمصامه اس الرذائل والكفرا
وأصحابه من أكمل الله دينهم — وآله، امن الله في هذه الغبرا

6 ـ رسالة ابن باديس :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا (4) محمد وآله وسلم الى حضرة علم العلم والفضل، ومعلم الكرم والنبل، التقى الطاهر الأثواب السرى البارع الآداب، مستحق الشكر منا بما له علينا من سابق الأيدي، العلامة الشيخ سيدي أبي الطيب (5) الطاهر العبيدي، أدامه الله بدرا طالعا في هالة

1) في هذا البيت وما بعده حديث عن ماضي آل باديس، ويمكن ان يفهم منه حديث الشاعر عن حاضرهم ومستقبلهم أيضا فيكون بذلك يتحدث حديث السياسة واستنهاض الهمم، ولاشك ان هذه المعاني لم تكن تغيب عن ذهن ابن باديس الوقاد.

2) يقصد اتساع رقعة الدولة الصنهاجية التي كان على رأسها آل باديس والتي امتدت من تونس الى الأندلس أو من «القيروان الى الجزيرة الخضراء».

3) يعني أنه كان مرة يسكن الوادي ومرة يسكن تقرت.

4) في الأصل سقطت (نا).

5) هذه الكنية (أبي الطيب) غير واضحة المعنى.

درسه ، وغيثا هامعا يحي ربع العلم من بعد طمسه . حتى يبدل وحشة قطره (1) بانسه، ويجني من بساتين تلاميذه ثمرات غرسه، آمين .

وبعد سلام كما تفتحت الازهار في نسمات الاسحار، وتحية تحيى قديم التذكار. وان شطت الدار، فاني كتبته اليكم من حضرة قسنطينة يوم قدومي من رحلة كنت اعملتها لناحية الجزائر وتلمسان، لزيارة الاحياء والأموات من العلماء والصلحاء وأعيان الزمان، فتشرفت بسادات كثيرين . من العلماء والصالحين. ومن أعظم الجميع قدرا، وأشهرهم ذكرا. سيدي أبي مدين الغوث (2) وسيدي محمد السنوسي (3) بتلمسان، وسيدي محمد بن عبد الرحمان (4) وسيدي عبد الرحمان الثعالبي (5) بالجزائر، ودعونا لنا وللمؤمنين عامة، ولأخواننا أمثالكم خاصة، بما نرجو من الله تعالى فيه القبول وبلوغ المأمول وذكرت لكم هذا لما اعمله فيكم من محبة الصالحين، واذا مكنتني الفرص ان شاء الله تعالى كاتبتكم عن هذه الرحلة بمزيد تفصيل. ووافي كتابكم في غيابي في هذه الرحلة : فلما قدمت وقبلته، قدمته على غيره وقبلته. وكان ما داخلني من السرور بمجلو خطابه، مخففا لما غشيني من الخجل لمر عتابه، ولك العتبى يا سيدي فيما ذكرت، ومنك الفضل فيما به ابتدأت وتفضلت، فقد بلغتني القصيدة الغراء التي راقت ورقت، واستوجبت الحمد واستحقت، نظرت الى أوصافك الكريمة فحليتني بها، ونسبتني اليها. والله يهدي ببركة محبتك الخالصة ما ظننت، ويجازيك بالخير الجزيل على ما فعلت .

---

1) قد يكون ابن باديس يشير بكلمة (قط) الى ناحية تقرت وسوف أوالي القطر الجزائري كله .

2) هو شعيب بن الحسن أبو مدين الغوث الأندلسي. توفي بتلمسان سنة 594هـ / 1178 ـ 1179م ترجمته في (البستان)، 108 .

3) هو محمد بن يوسف السنوسي العالم الزاهد صاحب التآليف الكثيرة . توفي بتلمسان سنة 895 هـ/1490 م أنظر: (البستان) ، 237 .

4) يعني محمد بن عبد الرحمان الأزهري الجرجري المعروف ببوقبرين، وهو مؤسس الطريقة الرحمانية الخلوتية. توفي سنة 1208هـ / 1793 ـ 1794م .

5) له تآليف كثيرة . وقد اشتهر بالزهد والعلم. وتوفي سنة 875هـ / 1470 ـ 1471 م . وقد تحدثنا عن دور العلماء الثلاثة (السنوسي والأزهري والثعالبي) في كتابنا **تاريخ الجزائر الثقافي ج1** .

هذا، واني ما أخرت الجواب متهاونا (استغفر الله) ولا متكاسلا، ولكنني حسبت أني اجبتكم فيمن اجبت، حتى جاء كتابكم فعلمت انني غالط فيما ظننت. فبادرت بهذا متحاملا على فهمك، معتمدا على فضلك، والعفو، ياسيدي، من شيمة أمثالك. لا أحرمني الله من أفضالك، وأقول :

ان كنت قصرت في الكتابة والله ما حلت عن ودادي
وانما كان ذاك مني عن غفلة ليس من مرادي
فسامحوا، طاهري، بفضل وحسبكم مسكنا فؤادي

ويعود من العبد وجماعته السلام عليكم، وعلى جماعتكم واحبابنا كلهم لديكم، وكثيرا (1)، داعيا لكم بالخير، طالبا منكم مثله، أخوكم وشاكر فضلكم ومملوك احسانكم :

في شهر جمادي الثانية عام 1337 (2).

عبد الحميد ابن باديس

عفى عنه

---

1) هذه كلمة لم نهتد الى حلها ومعناها .

2) شهر مارس 1919 .

الشاعر المفتي
محمد بن الشاهد واحتلال الجزائر

في تاريخ الحركة الفكرية الجزائرية (*) مثقفون مغمورون لا نكاد نعرف عنهم اليوم شيئا رغم أنهم كانوا في وقتهم أصحاب سمعة وتأثير. ومن هؤلاء الشاعر والمفتي محمد بن الشاهد (1) الذي وصفه معاصره أبو راس الناصر بأنه «عالم الجزائر.. وقطب رحاها.. فقيها، علامة، حافظا بارعا، نظارا، مفتيا، مدرسا، محققا..»(2).

عاش ابن الشاهد في النصف الثاني من القرن الثاني عشر للهجرة (18م) والنصف الأول من القرن الثالث عشر. ورغم شهرته بين معاصريه ومكانته الأدبية فاننا لا نعرف الآن متى ولد ولا متى توفي. لكن هناك أحداث وتواريخ تساعد على تحديد عصره وحياته. وأول تاريخ مذكور معه هو سنة 1182هـ، وهي السنة التي قال فيها قصيدة مدح بها شيخه أحمد بن عمار (3) وضيف الجزائر عندئذ، أحمد الغزال المغربي (4)، الذي جاء في مهمة سياسية. والتاريخ الثاني هو سنة 1192هـ لأننا

*) نشرت في العدد 61 من مجلة (الثقافة) يناير - فبراير، 1981.

1) مصادر ابن الشاهد قليلة جدا، ولم يتناوله أحد بالدرس حتى الآن. وهناك إشارات عنه في الأرشيف الجزائري العثماني وفي بعض المعاصرين له. وما يزال ديوانه ضائعا. وفي الجزء الثاني من كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) بعض الأخبار عنه.

2) أبو راس الناصر (فتح الاله ومنته) مخطوط.

3) عن ابن عمار أنظر: مقالتنا «اجارة ابن عمار الجزائري لمحمد خليل المرادي»، (الثقافة)، 45، 1978.

4) له رحلة طبعت بالعرائش (المغرب) عنوانها (نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد) وكان الغزال دبلوماسيا وأديبا. جاء الى الجزائر في شأن صلح بين البلدين. أنظر: (دليل مؤرخ المغرب) لأبن سودة، ط2، 1960، ص: 366.

وجدنا مخطوطا مكتوبا بيد ابن الشاهد وعليه توقيعه على النحو التالي : «انتهى بحمد الله.. على يد العبد الضعيف.. محمد بن الشاهد، كان له الاله الواحد.. سنة 1192» (1)، كما وجدنا اسمه مذكورا ضمن قائمة المستفيدين من أحزاب الجامع الكبير بالعاصمة سنة 1247 ، وجاء في هذا التاريخ خبر انه أصبح كفيف البصر (2) .

آخر تاريخ عثرنا عليه مقرونا باسمه هو سنة 1255 (1839 م) ، وهي السنة التي نشرت فيها قصيدته التي سنعرض اليها (3). والغالب على الظن أن يكون ابن الشاهد عندئذ قد تجاوز المائة سنة، فيكون ميلاده في مدينة الجزائر حوالي سنة 1150 ووفاته بها أيضا حوالي سنة 1260 .

تولى ابن الشاهد عدة وظائف دينية وعلمية في مدينة الجزائر، شأن علماء وقته. وأهمها وظيفة الفتوى على مذهب الامام مالك، وقد تولى هذه الوظيفة مرتين على الأقل : الأولى من سنة 1192 الى سنة 1206، والثانية من هذه السنة الى سنة 1207، اذ وجدنا اسم مفتي آخر تعين في مكانه في هذه السنة وهو علي بن عبد القادر بن الأمين (4) الذي ظل في الافتاء فترة طويلة. والظاهر ان ابن الشاهد قد بدأ حياته العلمية مدرسا في جامع حسين ميزمورط باشا. فقد وجدنا ذلك مسجلا في عدة تواريخ نذكر منها سنوات 1196، 1213، 1246. وقد يكون بدأ التدريس قبل ذلك. كما وجدناه حزابا في الجامع الكبير (5) ، وفي جامع علي باشا حوالي سنة 1202 (6) . ولا ندري ان كان قد تولى وظائف أخرى

1) هو الشرح المسمى (سراج القاريء المبتدي وتذكار المقريء المنتهي) في علم القراءات ـ المكتبة الوطنية الجزائر رقم 2254 .
2) الأرشيف الجزائري العثماني (بالأرشيف الفرنسي)، (344) 46 ـ 1 M 228 .
3) ب. فانسان (المجلة الآسيوية) عدد8، 1839 .
4) نور الدين عبد القادر (صفحات من تاريخ مدينة الجزائر) ، الجزائر، 1964، ص: 184. ولا ندري ان كان ابن الشاهد قد استقال من المنصب أو عزل عنه. والغالب هو الثاني. كما اننا لا نجده مذكورا في قائمة من تولوا الافتاء بعد ذلك التاريخ. وتوفي ابن الأمين سنة 1236 .
5) الأرشيف الجزائري العثماني (في الأرشيف الفرنسي (288) 46 ـ M.1 228 .
6) نفس المصدر ، (287) 41 ـ M.1 228 .

كالخطابة والامامة. والغالب انه فعل، لأن امثاله كانوا يجمعونها الى الفتوى والتدريس، رغم ان وصف أبي راس السابق له لا يشير الى توليه الخطابة والامامة .

تثقف ابن الشاهد بثقافة عصره واتقنها. وكانت أصوله العائلية، في الظاهر، أندلسية واذا حكمنا من انتاجه الموجود فقد كان أديبا ماهرا وشاعرا متميزا. وكانت وظيفة المفتي تقتضيه أن يكون عالما بأصول الدين والفقه والتفسير والحديث والقراءات والفرائض. ولا شك انه أخذ بعض هذه العلوم وكذلك الأدب ـ على استاذه أحمد بن عمار الذي كان صاحب طريقة خاصة في النثر ، وقد توسعت معارفه أيضا برحلته الى الحجاز لأداء فريضة الحج، وهي الرحلة التي قد تكون أخذته الى البلدان العربية الأخرى مثل تونس ومصر . ولعله اطال الاقامة في بعضها كما فعل أستاذه ابن عمار ومعاصروه الورتلاني وابن حمادوش وأبو راس. واستفاد ابن الشاهد أيضا من زيارات علماء المغرب الى مدينة الجزائر مثل زيارة أحمد الغزال المذكور وزيارة المؤرخ أبي القاسم الزياني (1) . ولا شك أن لابن الشاهد تلاميذ أيضا. ومنهم أبو راس الذي ذكرنا وصفه لشيخه. ويذكر أبو راس نفسه أنه لقي في البليدة أحد تلاميذ ابن الشاهد وتناقش معه. كما وجدنا نصا في مخطوط في علم الفرائض يذكر صاحبه، وهو العربي بن حمدان، انه قرأ هذا العلم على محمد بن الشاهد (2) .

أما عصر ابن الشاهد فقد كان عصر اضطراب شمل الجزائر والعالم الاسلامي بأسره. فبالاضافة الى الضعف السياسي والاقتصادي الذي عرفته الجزائر خلال القرن الثاني عشر (18م) كانت هناك الغارات الأجنبية التي تعكس التحدي الأروبي المسيحي للعالم الاسلامي. فقد عرفت الجزائر في هذه الاثناء نقصا كبيرا في الموارد البحرية، واستيلاء اليهود على التجارة ، وسيطرة الأروبيين على طرق المواصلات، وتدخلهم في الشؤون الداخلية كما تعكسه توصيات مؤتمر فيينا.

---

1) طبعت رحلته (الترجمانة الكبرى) بالمحدية بالمغرب، سنة 1967 بتحقيق عبد الكريم الفيلالي . ورغم أن الزياني تحدث عن علماء قسنطينة وتلمسان فهو لم يذكر من علماء مدينة الجزائر الا القاضي محمد بن مالك .

2) من مخطوط في الفرائض عند الأستاذ علي أمقران السحنوني ، تاريخه سنة 1253 . وقد صور لي منا الصفحة التي يذكر فيها العربي بن حمدان تتلمذه على ابن الشاهد .

وقد تمثلت الغارات الأجنبية على الجزائر في الحملة الاسبانية سنة 1189، والحملة الانكليزية سنة 1232هـ، وأخيرا الحملة الفرنسية سنة 1246هـ وهي الحملة التي انتهت بالاحتلال . وكان الفساد والتعفن الداخلي قد بلغ القمة . فهناك الرشوة ، والمؤامرات على السلطة، والتخلف العقلي ، بالاضافة الى مكائد العلماء ضد بعضهم ، ومن الأحداث الدولية التي عاصرها ابن الشاهد الثورة الفرنسية ، والحملة الفرنسية على مصر والشام، وبداية عهد الاصلاحات في كل من مصر والدولة العثمانية. ولعل أهم حادث أثر عليه هو الاحتلال الفرنسي لبلاده، وقد عبر عن تأثره من ذلك في شعر سنذكره بعد قليل .

كان ابن الشاهد من الشعراء القليلين المجيدين في العهد االعثماني. ورغم اننا لم نطلع له على ديوان كامل أو مجموعة من شعره لنعرف اغراضه وأساليبه فان الموجود من شعره يدل على شاعرية قوية في عصر لم يعرف أي تجديد في الحياة الثقافية ولا أي تحد في مجال اللغة والأدب. ويمكن اعتبار ابن الشاهد الوريث الحقيقي لسلفة الشاعر محمد بن محمد المعروف بابن علي (1) . وقد تنوع شعر ابن الشاهد فوجدنا له قصيدة في التوسل الى الله وأخرى في مدح شيخه ابن عمار ومدح الغزال المغربي، وثالثة في تقريظ كتاب لأحد علماء المغرب، ورابعة في بكاء مدينة الجزائر بعد سقوطها في يد الفرنسيين. ويقول السيد ب. فانسان B. Vincent ان ابن الشاهد «قد نظم مجموعة كبيرة من شعر الرثاء وغيره من الأغراض الاجتماعية الخفيفة التي يحب مسلمو مدينة الجزائر انشادها» (2) . ولنذكر الآن بعض الأبيات من كل قصيدة، ثم نذكر قصيدته في رثاء الجزائر كاملة في آخر المقالة .

فحين زار أحمد الغزال المغربي الجزائر حضر درسا في الجامع الكبير لأحمد بن عمار ومدحه بعد ذلك بقصيدة جاء فيها :

روينـــــا أحاديـــث الألـــي ورثـوا العـــــلا

قديمـــــا ففـــازوا بالثنــــــاء المؤبـــد

1) ترجمنا لأبن علي وأحمد بن عمار في الجزء الثاني من (تاريخ الجزائر الثقافي).

2) (المجلة الآسيوية) 8، 1839، ص: 503 .

الى أن يقول فيها :

هلمـوا الى مـأوى المفاخـر والعـلا   هلمـوا الى الأسمـى ابن عمار أحمد

ولما اطلع ابن الشاهد على هذه القصيدة جادت قريحته بقصيدة على وزنها وقافيتها، مدح بها أيضا شيخه أحمد بن عمار وكذلك أحمد الغزال. وقد افتتح ابن الشاهد هذه القصيدة بهذا الطالع القوي الذي يذكر المرء بمعلقه طرفة بن العبد :

عسـى أن يلـم الشمـل بعـد تبـدد   عشيـة هـذا اليـوم أو ضحوة الغـد

الى أن يقول فيها مخاطبا أحمد الغزال ومقارنا له بأبي حامد الغزالي في تورية لطيفة :

أ (غزال) هـذا العصر مـن رق غزلـه   له العـذر ان لم يكفـه غير عسجـد
كمدحـك مولانـا وقطـب بلادنـا   وبدر علاهـا بين نسـر وفـرقـد
فلسـت وقـد أبصرتـه وسمعتـه   وخاطبتـه في مدحـه بمقلـد
تناسبتمـا اسمـا وارتقـاء وسؤددا   وفضلا و في خلـق كريم ومحتد (1)

واتصل ابن الشاهد ذات مرة من أحد علماء المغرب بكتاب، وهو حاشية محمد البناني الفاسي على الزقاق فأجابه مقرظا له بقصيدة طويلة (63 بيتا) مطلعها :

رفعت بدمـع العيـن حكـم عواذلي   ومطلقـه في الخـد غـيره الـدم
دم طاهـر سـود العيـون سفكنـه   ازالتـه عـن ميتـة الحـب تحـرم

وتأتي قصيدته في التوسل الى الله وفيها حرارة المعترف بالذنب الطالب للغفران :

بأسمائـك الحسنـى فتحـت توسلي   ومنـك رجـوت العفـو أشهى مطالبي
الاهي . غرقنـا مـن بحـار عيوبنـا   ذنوبا بأوزار علت كل جانب (2)

أما قصيدة ابن الشاهد في احتلال الجزائر فهي دليل آخر على قوة شاعريته من جهة وعلى موقفه الوطني والاسلامي من جهة أخرى. فقد خاطب فيها أسوار الجزائر التي كانت حصينة ومع ذلك سقطت امام الأعداء، متسائلا ما اذا كان

1) الحفناوي (تعريف الخلف) 216/2 .

2) المكتبة الوطنية ـ الجزائر، مخطوط رقم 2241. ولابن الشاهد شهرة في المديح النبوي. وطبعت له عدة قصائد في هذا المعنى ضمن (مجموع القصائد) الذي طبعته المطبعة الثعالبية بالجزائر.

سقوطها من الخوف أو من الخيانة، ويعتب على أهل الجزائر ابتعادهم عن الله مما أوقعهم في قبضة الجور والجهل وخراب الاقتصاد وبوار البيوت. وكأن أسوار الجزائر في نظره قد أصابتها عين نحس فغدرت بأحبابها ورحبت بأعدائها. وها هم الاعداء قد أصبحوا ينعمون بالراحة ويدوسون المنازل منتهبين الأموال ومنتهكين الحرمات. وأمام ذلك الحدث الرهيب لم يسع الذين تاهت عقولهم الا بيع أعز ما يملكون ومغادرة بلادهم برا وبحرا. وكيف يصبر الشاعر على فراق الأحباب واحتلال الديار وليس له قوة جسمية فيحارب بها أو يهاجر. وليس له، مع ذلك، طاقة على العيش تحت حكم الكفار :

أمــوت وما تــدري البواكي بقصتي وكيف يطيب العيش والأنس في الكفر

فلم يبق له الا سفك الدموع حليفا للحزن الدائم. وقد أنهى القصيدة بنغمة متفائلة. فهو برغم ما حدث له ولبلاده توقع ان الله سيحدث بعد ذلك أمرا وأنه سيأتي باليسر بعد العسر. وها هو ذلك قد تحقق، والحمد لله، فعادت الجزائر الى أهلها بعد عسر وحزن داما أكثر من مائة سنة .

وتعتبر هذه القصيدة في نظرنا من عيون الشعر العربي الحديث في موضوعها وروحها. وهي أيضا من أوائل شعرنا الوطني والسياسي. وعسى أن يعود اليها النقاد والأدباء ويضعونها في مكانها من سجل الشعر العربي الحديث. ولأهميتها نعيد نشرها حسب النص الذي كان السيد بـ. فانسان قد نشره في (المجلة الأسيوية) وهي المصدر الوحيد لها. ومما يبرر اعادة نشر هذه القصيدة ان المجلة التي كانت قد نشرت فيها ليست مقروءة الا من عدد ضئيل جدا من المتخصصين، وان تاريخ نشرها يعود الى سنة 1839، وانها قد نشرت بأخطاء نود التنبيه عليها، وأخيرا فنحن في هذه الأعوام نتوجه الى البحث عن تراثنا ومساهمة مثقفينا في وصف الاحتلال ورفضه . ذلك أننا لا نعرف الى الآن من ذلك سوى قصيدة شعبية ملحونة نظمها الشيخ عبد القادر في بكاء مدينة الجزائر سنة 1830 (1). أما قصيدة ابن الشاهد فهي، حسب علمنا، أول مساهمة من الشعر الفصيح في هذا المجال .

---

1) أنظر أيضا الفصل الأول من كتابنا (دراسات في الأدب الجزائري الحديث) ط 2 ـ 1977 .

كان السيد فانسان قد حصل على قصيدتين لأبن الشاهد ، كلتاهما في بكاء مدينة الجزائر . ولكنه اختار نشر هذه التي بين ايدينا لأنها في نظره أكثر دلالة على موهبة الشاعر . وقد أورد نصها العربي وترجمه إلى الفرنسية مع تعليق بسيط . وكان هدفه من نشرها ، كما قال ، لفت نظر المستشرقين الى أهمية الموضوع الذي عالجه الشاعر وهو أن الاحتلال قد جعل صوت الكفر يعلو على صوت القرآن . وهذه قضية تهم طبعا المستشرقين الذين كانوا هم الممهدين لاحتلال العالم الاسلامي والضالعين في ركاب الاستعمار .

ونحب أن نشير الى أنه لا بد، لفهم هذه القصيدة، من العودة الى بعض المصادر المعاصرة لفترة الاحتلال الأولى لمعرفة ما ارتكبه المستعمرون من فظائع في مدينة الجزائر على الخصوص، مثل كتاب (المرآة) لحمدان بن عثمان خوجة. فقد ديست الحرمات وأهينت المقدسات ونهبت الأموال وعطلت المدارس وهجر المدينة أكثر من ثلثي سكانها المسلمين، كما يقول فانسان نفسه، وهم العلماء والاعيان والساسة وكبار الملاك. فلا غرابة اذن أن يحس ابن الشاهد الذي أصبح عاجزا، بغربتين قاسيتين : غربة من كونه أصبح تحت حكم الأعداء، وغربة من كونه قد فارقه الأحباب والأصدقاء .

وبالاضافة الى ذلك نذكر أن نهاية ابن الشاهد كانت مأساة حقا . فبعد الجاه العريض والعلم الغزير أصبح يمد يده طلبا للصدقة والاحسان . ذلك أننا وجدنا في الوثائق أنه كان في حالة فقر مدقع لا يحصل سوى على بعض الريالات من أوقاف الجامع الكبير في شكل صدقة . كما أن حالته الصحية قد تدهورت . فالى جانب التقدم في السن (حوالي مائة سنة عند الاحتلال) أصيب بفقد البصر . وعاش أحزانا أخرى من فراق أهله . فقد وجدنا أيضا في الوثائق أن أحد أفراد عائلته (ولعله ابنه؟) قد هاجر الى تونس . وهكذا اجتمع عليه الكبر والعمى والفقر والحزن من العيش في الكفر المتمثل في الاحتلال الفرنسي لبلاده .

وهذه هي القصيدة :

أمن صولة الاعداء سور الجزائر سرى فيك رعب أم ركنت الى الأشر
لبست سواد الحزن بعد المسرة (1) وعمت بواديك الفتون بلا حصر

1) كذا، والظاهر أنها «مسرة» بالتنكير .

رفضت بياض الحق يوما فأصبحت ... نواحيك تشكو بالأماني الى الجور (1)

ولثم درس العلم والجهل عسعس (2) ... ونادى بتعطيل العلوم على النشر

وناح على الأسواق طير خرابها ... فأصبح فأس الهدم ينبيء بالغدر

أصبت بسهم من عيون سهامها ... تراد عن المعيان بالشفع والوتر

فأظهرت للأعداء وجه سلاحه (3) ... وأبرزت للأحباب وجها من النكر

عليك لقد أجريت نهر مدامعي ... وفيك استحق العقل سكرا بلا خمر

نقضت (4) عهودا بالوداد تقررت ... وواليت أقواما توالت على ضر

فجاسوا بروجا للحروب تشيدت ... وداسوا ديارا بالنواهي وبالأمر

ونالوا من الأموال يسرا ميسرا ... وفازوا بها والقلب يصلي على الجمر

ومن لطفه ان السيوف اتت لنا ... وسلت على الأشجار تقطع بالثمر (5)

فضجت أناس والعقول تولهت ... وباتوا على حزن الفراق بلا فكر

فباعوا نفايس المتاع ببخسها ... وهاموا حياري في الفيافي وفي البحر

فآه على جهدي وما به (6) منعة ... وآه على دار يسود بها غيري

أموت وما تدري البواكي بقصتي ... وكيف يطيب العيش والأنس في الكفر

فيا عين جودي بالدموع سماحة ... ويا حزن شيد في الفؤاد ولا تسر

ويا صاح تدبير الأمور لخالقي ... فصبرا عسى عسر يبدل باليسر

---

1) في الأصل التاء في «رفضت» مشددة، والقاف في «الحق» مفتوحة ومشددة. وهو خطأ. ولعل الشاعر يقصد «بالامان» وليس «بالاماني» كما وجدناها وتركناها .

2) في الأصل السين الأخيرة مفتوحة بفتحة واحدة. وهو خطأ في الوزن .

3) كذا في الأصل، والواضح ان الشاعر يقصد «سماحة» بالميم .

4) التاء في «نقضت» مشددة في الأصل. وهو خطأ .

5) من وحشية المحتلين قطعهم الأشجار مثمرة وغير مثمرة. وقد أراد الشاعر بهذا البيت أن عناية الله قد وجهت سيوف العدو الى الأشجار بدل قطع الرؤوس. ولكن السيد فانسان علق على البيت تعليقا خارجا عن قصد الشاعر في نظرنا ، وهو قوله أن الشاعر قصد بالبيت تحية انسانية المنتصرين الفرنسيين ، لأنهم صبوا جام غضبهم على الشجر فقط ! أنظر: (المجلة الآسيوية) عدد، 8، 1839، ص: 506 .

6) كذا في الأصل، لكننا نعتقد أن هناك خطأ في النقل لأن المعنى يكون أفضل مع «بي» بدل «به» هكذا : «فآه على جهدي وما بي منعة» .

مع الكتب

في ظلال النقد

مع حمار الحكيم

لعل الباحث في كمية الانتاج الفكري التي نبتت في هذا المنعطف الخصيب من حقل العروبة لا يجد لديه النتيجة التي يتمكن على ضوء النقد ـ من ان يساوق بينها والطريقة الرومانتيكية الحديثة في الأسلوب والموضوع والاتجاه . ذلك لأن هذا النتاج ما برح يئن تحت اغلال التقليد ويرسل الزفرات متطلعا الى عالم أفضل قوامه التمرد والانطلاق : فمن سطحية سخيفة في البحث الى تكلف في السجع وفنون البديع العتيقة الى فوضوية في الفكر بعيدة عن الانضباط والتركز، وغيرها من المخلفات التي لا تساير العصر الحاضر ولا تكفي حاجات الفكر الحديث الكثيرة.

ورغم ايماني بأن لليد الحاكمة تأثيرها العظيم على أفكارنا التي نرميها بالعقم ونلقي عليها تبعة الجمود وعدم التحرر، فاني متيقن بأن هناك جذورا قوية وأسبابا مباشرة كان لها أقوى مفعول في بقاء ماكان على ماكان . دون أن تمتد لها اليد الأجنبية بسبب مباشر أو غير مباشر، بيد ان المجال المحدود يفرض على ان اكتفي بالاشارة ، مخليا الخوض في ذلك ونتائجه ومقوماته الى اتاحة أخرى يكون الأفق فيها أفسح وانسب .

وقد كنت أول الذين شغفوا بانتاج مطابعنا على علته وقلته وما تقدمه لقرائها من الوان جديدة ـ ان صح ـ يشع منها النور والحيـاة . فلما انتهى الى كتاب تجلى فيه العنصران «النور والحياة» كمثل كتاب «مع حمار الحكيم» للأستاذ حوحو الذي أخرجته للناس في جاذبية فنية المطبعة الاسلامية الجزائرية . ان هذا الكتاب كان مقدمة لانبثاق عهد جديد في انتاجنا ونهضتنا الأدبية ستسفر عنه الأيام طال الزمان أو قصر . وكان وليدا عن ذلك المخاض الفكري الذي اشرت اليه . وقد

افعمه مؤلفه بالآراء الحرة الجريئة التي لا تصدر الا عن حمار قد اعتزل الانسانية ورضي لنفسه أن تعيش بين الوهاد والنجاد مرسلة انغامها «المعروفة» في الهواء الطلق على حساب «المجتمع الانساني الفاسد» كما يقول صاحبه ..

ولعل اعجابي بهذا الكتاب هو الذي جعلني اتعقبه بهذه المناقشة الخفيفة التي ارجو أن تكون خالصة لوجه الأدب وحده. وقبل ان أخوض فيما رسمته لنفسي في غير هذا المكان من (البصائر) أريد أن أنبه الأستاذ حوحو الى أن قوله : (ص:14) لأني كلما وضعت برنامجا اصلاحيا «الاوقام بافساده علي» غلط لغوي محض لأن جواب كلما لا يقترن (بالا) للتناقض في المعنى سلبا وايجابا والقرآن (وهو الحجة) يقول:«كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها». ويقول :«كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله».وغيرهما كثير .. ولست ادري ما محل الواو الواقع بعد الا من الاعراب. ونرى الأستاذ حوحو يكثر من دخول «لا» النافية على ماضي زال مع أنه يعلم ان ذلك محل جدل ومناقشة بين اللغويين، وجمهورهم لم يستسغه الا في الدعاء ، ولهم على ذلك ادلة لا تحصى (ص: 15، 23، 28، 76) . كما اننا نرى المؤلف يستعمل العطف بأم مع اختلال شرطها المقرر وهو سهو (ص: 52، 76) بقي علينا من هذا التنبيه، الكلاسيكي عند الحديثين، ان نردد قول المؤلف يخاطب حماره : (ص : 31) ولا تنسى (بلا الناهية مع اثبات الياء) اني شريكك ، وقوله : (ص: 12) والقى على الكرى رداء أسودا (مع اثبات الألف في أسود) ونحن نردده بين الغلط والسهو وان كان يرجح الأول وجود صفحة في الكتاب لاصلاح الخطأ...

اسلوب الكتاب يحمل طابع العذوبة والصفاء والحيوية ويمتاز «بالالتزام» الذي يعارض الفوضوية الغامرة و«الانطلاق» الذي يسخر من التكلف والجمود الطبعي والتمرد الذي يقوي الشخصية ويجعلها ثائرة متحدية. وكلها خصائص اساسية لتلك المدرسة الحديثة. وقد خلا منها أدبنا خلوا واضحا فلم يستطع ان يشق طريقه وسط هذه الأشواك التي تدمى عقبيه وهو في طور الحداثة ..

والذي أراني مدفوعا الى ملاحظته في حديثي عن اسلوب المؤلف هذه السطحية التي تطالعك من كل صفحة بل من كل فكرة اراد صاحبها ان يثبت أو يقرر غرضا من الأغراض .. ولعل تلك السطحية البارزة هي التي سيطرت على قلم المؤلف

ومشاعره وروحه الجماعية فضعف فنه وفترت اشعته بين ظلال الخريف الباردة. ذلك أن الاستنباط وطول النفس في البحث والاستغراق في التقاط الصور المفعمة بالحياة هي المنزع الوحيد الى الروعة الفنية التي ابتغيها والتي يجب على الكاتب العبقري ان يصهر بحثه في الوانها وظلالها لتقويم الأسلوب الصحيح ..

ليس من شك في أن عذر المؤلف غير ناهض اذا كان يرتكز على ان الحوار يجب أن يبنى على الوضوح والسذاجة فان أشد الموضوعات الفلسفية تعقدا وغموضا (كالروح وما وراء الطبيعة) قد طرقه اصحابه متخذين الحوار سبيلا الى غايتهم ومادمت بصدد الحديث عن الاسلوب وفنيته واصوله فلا ارى بدا من نقل فقرات يتبين القاريء على ضوئها حكمي على فنية المؤلف ...

يقول الأستاذ حوحو في تعريف الآداب والفنون (وهو الموضوع الذي اطرب ابن منصور حتى كاد يقدسه ويجعله مخلوقا للمؤلف ولم يقف على ما فيه من غث وسمين) قال : (ص : 23) «الآداب والفنون هي عنوان النهوض والرقي لكل أمة والمظهر الروحي لكل شعب» الى ان يقول في الصفحة نفسها «فالآداب والفنون هي المقياس الصادق لاحوال الامم وهي الميزان الصحيح لقوة انسانيتها وشرف عاطفتها وسمو روحها وهي جديرة بالعناية وجديرة بالبحث والتقدير، فهي ليست من الكماليات وليست ظلا خارجيا كما يتوهم، بل انها اساس لا بد منه لرقي الأمة وحفظ كيانها» الى أن يقول : (ص: 30) «فهي وحدها المقياس الصادق لرقي الشعب وهي وحدها الميزان الصحيح لتقدم الأمة وهي وحدها تحفظ كيانها وتثبت قوميتها وتخلد ذكراها وترفع شأنها بين الأمم» وأنت عندما تنتهي من قراءة هذه التعاريف المتداخلة لا يعدو خيالك هذه الحدود. ـ 1 ـ قلق وبساطة وتزاحم في اللفظ تدل من أول وهلة على ان التعريف انعكاسات خارجية لا دخل فيها لفكر الكاتب . (2) غثاثة ظاهرة نشأ عنها ثقل المعاودة والتكرار (3) تمويه الكاتب بما يملك من نواصي الألفاظ حتى يشعر القاريء أنه يقول عن تجربة وممارسة (4) ونتيجة لذلك ينمو هذا الضعف الفني الذي تلحظه في غير عناء لأن الفنية التي ننشدها ارتباط وتساوق وابداع بين اجزاء الفكرة الأصيلة . وهل تظفر فيما قدمت بشيء من ذلك ؟

أما موضوعات الكتاب الباقية فهي تختلف قوة وضعفا . فيها الغث الذي لا يحتمل وفيها الصافي البديع الذي يشعرك انه خلق لتوه. وانا عندما اقرر هذا

وأدعمه أكون مخالفا تماما لحكم الأستاذ ابن منصور الذي جعل الكتاب نقيا ، من رواسب المطالعة واصداء الكتب ..

اقرأ ان شئت مقاله في الأدب والأدباء، فانك ستشعر من دون شك انك في ظلال فصلى (الأدب والأديب) و (سر النبوغ في الأدب) للرافعي وغيره ممن تناولوا هذا الموضوع بالبسط والتحليل. وليس في مقال الأستاذ حوحو شيء مخلوق له رغم ما (حاوله) من ابراز مظاهر قلمه وفكره .. أما آراؤه في المرأة والزواج فان ضيق المجال يضطرني الى العدول عن ذكر المصادر التي استقيت منها وتجاوبت معها. والذي قرأ حصاد المازني ومطالعات العقاد وسحاب الرافعي ولزوميات المعري يدرك من اين ينبع الجدول الذي يوهم الناس انه ينحدر من بحر الظلمات .

وأعود توا الى نفسية المؤلف فهي العقدة التي متى حلت استطعنا ان نستكشف من خلالها موضوعات الكتاب. ولا اشك في ان هذه النفسية كانت ثائرة متشائمة مضطربة تتمتع بكمية عظيمة من سخرية «لافنتين» وتشاؤم (المعري) وفلسفة (اناتول فرانس) . اسمع الى هذه الجملة التي ترسلها تلك النفسية المحتدة : «وأما ما اعتقده حقا فاني أقوله ولا أبالي بالعواطف التي يجرحها أو يثيرها» (ص:62). وأنت تعلم ان من الحقيقة ما لا يرتضيه المؤلف نفسه من هذه الكلمة ان قدر لها أن تنشر ، وان مبتكر القنبلة الذرية المهلكة للعالم كان صريحا في عمله الى أقصى مدارك الصراحة. وصاحبنا بين هذين اما صريح مدمر واما منافق بناء .

بقي على ملاحظاتي ان استسمح الأخ شيبان لاقول له : ان رسمك في الكتاب كان كالجرحة في الشهادة التي يلتجيء اليها المؤلفون .

أما الكتاب، في الجملة، فهو قطوف من أدب حي فياض بالاشراق والطرافة، فيه جاذبية الصادق ونشوة الحياة وجمال الحقيقة. وكلها لا تتوفر الا لكاتب انتضى قلمه بعزيمة واخلاص ليكيف الواقع السلبي بظروف ايجابية حرة طافحة بالجمال والنور والحياة (*) .

(*) نشرت في (البصائر) عدد 250 (11 ديسمبر 1953) . وكانت هذه الكلمة من أوائل ما كتبت في النقد الأدبي. ويظهر فيها التحامل الشديد القائم على عدم النضج. وقد رد علي الأستاذ حوحو في العدد التالي من (البصائر) بكلمة جعل عنوانها (في ظلال النقد) واشارة إلى كلمتي التي جعلت عنوانها (في ظلال النقد). وقد اتهمني في كلمته بكوني ما زلت طالبا ومتأثرا بما أقرأ في الكتب المدرسية . واذكر ان أحد الكتاب الشبان وأظنه المرحوم الحبيب بناسي ، قد رد على حوحو ونادى بعدم احتكار الحركة النقدية .

ديوان (ألحان الفتوة)

انبعثت (الحان الفتوة) في الوجود الذي طالما كفر بالترانيم العذاب، والأغاريد الشهية، فخاطبت القلوب الوسنانة في الكون السامي، وهدهدت النخوة الغافية المنضوية على انغام النواجيذ. فبح الصوت، وتحطم الوتر، وسكت اللحن، وانطفأ الفتيل ... وبقيت هي دماء يفوح زخمها من الصحائف وبارودا تنطلق أصداؤه من الحروف، ودموعا يترجرج حبابها على السطور... وبقي الملاك الجريح (الناظم) يراقص اشباح الليل المسدول بدل ان يداعب عرائس الفجر الحالم، ويغني للاطياف والرموز عوض ان يناجي الدم الفائر في حنايا الضلوع ... اني لاحتار إذ أسأل مشفقا : أين الذين عرفوا (ألحان الفتوة) ورقصوا على نبرات عودها ؟ واني لأستحي الما اذ يجيبني الصدى : بان لا أحد سوى الأشباح ...

لقد انفض السمار الذين حسب الأستاذ محمد الصالح رمضان ان كؤوسهم ما تبرح ترف على الشفاه وانفاسهم تضمخ الجو عبيرا، ومصابيحهم تشرق بها غرفات الخلود .. وما أولئك السمار الا الأدباء .. وما أدباء الجزائر الا كبخور الأولياء مزيج من عبق ودخان ..

وها قد مر نحو عام ونصف على انبثاق (الحان الفتوة) ولم نر من رددها على الاسماع الظماى. وحدا بها للركب الصاعد، اللهم الا سطورا لحمزة بوكوشة في (البصائر)، أو كلمات لمولود الطياب في (هنا الجزائر)، وما هذه الغفوة العامدة من أدبائنا الا برهانا لما يضمرون لهذا الديوان من نكران وجحود ...

ولكن أيصير (الحان الفتوة) ان تصمت عنها قيثار الأدباء، وتخرس مزامير الكتاب؟ كلا. فلقد سبق لي أن قلت عنها في كلمة لم تنشر بعد راسلت بها (الآداب)

الشرقية : ما أجدرنا، نحن العرب في كل مكان، بغناء (الحان الفتوة) الطليقة المندفعة (1) الخ ...

وأقول عنها اليوم : انها أول أنشودة انطلقت من فوهتها لتسمع هذا الشمال الخصيب ، اهازيج البطولة ، وصرخات الأبطال ، وانها أول (محاولة) شعرية ناجحة ستتوج بأكليل المجد والخلود ، رغم التنكر والجحود .. وانها أجمل زهرة انضافت إلى (الباقة) السحرية التي ينضدها محمد العيد ، وزكرياء (الشمال) و (الجوالة الاسلامية) أو (شبل ابن باديس) أو (الرياضة البدنية) ..وغيرها، تصعد الى القمة بالشعر الحر : التربوي والوطني على السواء، وتسخر بالطنين الراكد على السفوح والوهاد ...

لقد أصبحت ناشئة العالم العربي تستعذب نداءات الأقلام الحرة التي تشق لها الدروب ، والتي يعز عليها بقاء الجيل العربي في هذا الجحود الخانق والتردد المسموم ..

والأخ رمضان جندي ظهر في صفوف الأحرار الذين ينادون بخلق القيم الجديدة وتنمية المواهب في الناشئة ، ومدها بتيارات عنيفة من الحماس والتمرد ليمكن لها ان تجابه المستقبل بارادة أقوى وآمال سحيقة الأبعاد .

فليطمئن أخي رمضان الى نجاح ديوانه، ولتتسابق الناشئة العربية الى عزف الحانه، ففيها من المتعة والجمال ما يطرب ويغرى (*) ...

---

1) لم نحتفظ بأصل هذه الكلمة ولم تنشرها مجلة (الآداب) .

(*) نشرت في (البصائر) عدد 299 (31 ديسمبر ، 1954) . وعنوانها الأصلي : «أعزفوا ألحان الفتوة» الديوان الذي سيعبث بالأعاصير رغم التنكر والجحود .

مسرحية (مصرع الطغاة)

تدور حوادث هذه المسرحية (*) في الجزائر أثناء فترة الاستعداد للثورة ثم تتابع أحداث المعركة التحريرية الى نهايتها المحتومة وهي «مصرع الطغاة». ويمكن تلخيصها في الأفكار التالية :(1) يقظة الضمير الثوري وفكرة الواجب الوطني (الفصل الأول). (2) افلاس الأحزاب السياسية ويأس الجيل الجديد منها (الفصل الثاني). (3) الحب ازاء التضحية والوطنية(الفصل الثالث)، (4) وأخيرا رد الفعل الفرنسي وفشل الاستعمار في القضاء على الثورة (الفصل الرابع) . ولكن المسرحية لم تكن مجرد احداث سياسية وصراعا بين الوطنية والاستعمار. انها تحتوي على لقطات فنية رائعة وعلى لوحات انسانية شيقة .

فقد رمز المؤلف الى الجزائر القديمة التي كانت «تود» ان تتحرر ولكنها لم تستطع بشخصية الأب الذي هو في نفس الوقت والد البطل. فقد كان طاعنا في السن. مريضا بالسل. طريح الفراش. ومع ذلك كان يبكي حسرة امام ولديه مباركا خطاهما الثورية ومتأسفا على انه سيغادر الحياة قبل أن يرى الجزائر متحررة. كما رمز المؤلف الى الجزائريين الذين باعوا أنفسهم للدخيل برجل احدب كان يعمل لحساب المستعمر تبشيعا لمواقفهم المنحطة. وقد جعل المؤلف هذا الخائن يفقد ثقة أسياده في النهاية رغم اخلاصه المتفاني لهم. ثم قتله لا برصاص الاستعمار. ولكن برصاص الثوار .

(*) كتبها الأستاذ عبد الله ركيبي ونشرتها دار النشر بوسلامة (تونس ، 1959) ، وتقع في 68 صفحة بلا المقدمة. وهذه الكلمة عنها نشرت في مجلة (المجاهد الثقافي). 1967 .

ولعل أبرع رمز في المسرحية هو اطلاق اسم الكاهنة العربية على رحمة، بطلة المسرحية، في هذه اللقطة التاريخية مزج المؤلف بين الماضي والحاضر، وعبر بحذق على عروبة الجزائر الخالدة التي صهرتها ثلاثة عشر قرنا من الآمال والآلام المشتركة. ولا شك ان الكاهنة القديمة قد منحت رضاها المطلق الكريم منذ طارق بن زياد. وقد كانت بركاتها العميمة تتبع خطى ابن تاشفين وابن تومرت وعبد المؤمن بن علي والأمير عبد القادر وأبطال ثورة نوفمبر العظيمة .

والصورة التي رسمها المؤلف للشباب العربي في الجزائر عشية الثورة صورة شيقة ومعبرة. فقد اختار شابا كان طالبا في احدى المدارس الفرنسية ولكنه طرد منها لأفكاره الوطنية. وهكذا أصبح ضائعا يائسا ثائرا على كل شيء. فكان يشرب الخمر جهارا ويستهزىء بكل من يعظه ، ولا يعترف بأن هناك شيئا اسمه «الحرام» وقد كان يصرخ بملء صوته متهكما : «فلنشرب نخب زعمائنا الكرام» (ص:19) . وكان يضيق بمن يدعوه الى الصبر في مواجهة الواقع. وتكتمل صورة الشباب العربي في الجزائر عندما يجمع المؤلف بين شبان كانوا يلعبون القمار في احدي المقاهي ضاربين أحجار «الدومينو» على المنضدة بشدة ، ثم ينطق أحدهم بالعبارة التالية : «شاء حظنا أن ننازل الأوراق والأحجار بدل اعداء بلادنا» (ص:23) .

أجمل لوحة رسمها الأستاذ ركيبي هي لقاء المناضل أحمد بحبيبته البطلة رحمة. فقد اجاد الرمز حين ربط بين الجزائر ورحمة في نظر أحمد. وأثناء لقاء غرامي لطيف يقول أحمد لفتاته : «اني أحبك لأني أرى فيك رمز الجزائر الجميلة» (ص:32). ووصف الجزائر بالجمال هنا تعبير عن حالة أحمد النفسية التي أصبح فيها عنده الوطن والحبيبة شيئا واحدا. ولا شك في أن المؤلف كان يعبر أيضا عن الاتجاه الحقيقي للثورة حين جعل البشير (بطل المسرحية) يعلن الثورة باسم عروبة الجزائر واسترجاع مقوماتها الوطنية التي حاول الاستعمار طمس معالمها .

ولكن «مصرع الطغاة» تحتوي على بعض الهفوات التي كان من الممكن تفاديها . من ذلك ان المؤلف قد انطق ، اثر الاجتماع الذي تم فيه الاتفاق على بدء الثورة، ثلاثة أشخاص على التوالي بالعبارات التالية : «الى الشعب فالشعب ينتظر، الى الثورة فهي الملجأ اليوم، الى العمل» (ص:15) ورغم انه من الواضح ان هذه العبارات كانت تعني «اللجنة الثورية للوحدة والعمل» التي انبثقت عنها

أخيرا جبهة التحرير الوطني، فانه يبدو أنه لا داعي لاستعمال هذه اللهجة الخطابية، سيما ونحن نعرف ان تحضير الثورة قد نفذ في غاية السرية، وأن الثوار عندئذ كانوا أبعد الناس عن هذه الصيحات المدوية بالرغم من أن أعمالهم كانت تحمل معانيها .

ومن ذلك ان المؤلف قد جعل رحمة تقتل احد الخونة قائلة: «أنا الشعب.. أنا أنفذ فيه حكم الشعب .. باسم الشعب» (ص:67) بينما كان أخوها (البطل) يعلن ان الخائن« سيقدم الى محكمة الشعب». ولا ندري بأي حق تقول رحمة «أنا الشعب» اللهم الا اذا كان المؤلف يرمز بها الى الجزائر كلها. فاذا كان ذلك ما يعنيه فانه غير واضح من سياق الكلام ولا من الدور الذي أسنده لبطلته .

ونعتقد انه كان من الأفضل أن لو أنهى الأستاذ ركيبي مسرحيته عند اعلان الثورة لان ذلك في معناه العميق انتصار لارادة الشعب. وكان منطقيا ان يتوقف عند بلوغ الحدث الكبير، الذي كرس له ثلاثة فصول، ذروته. ولم يكن الفصل الذي أضافه عن الثورة نفسها (الفصل الرابع) في درجة الفصول الأخرى قوة لأن الثورة في حقيقتها كانت أعظم من أن تغطى في فصل واحد .

ولعل هذه الحقيقة هي التي أضطرت المؤلف الى أن يطوي الأحداث طيا، وان يفتعل حلا تنتهي فيه الثورة (رغم أنها عند كتابة المسرحية كانت ما تزال في أوجها)، وان يسرع بزواج أحمد من رحمة، وان «يصرع الطغاة» قبل الأوان. على انه من الممكن ان يقال دفاعا عن هذه النقطة بأن المؤلف قد أراد أن يسبق الزمن وأن يعبر عن حالة نفسية كانت لها مبرراتها عندئذ .

ولكن هذه الهفوات لا تغض أبدا من قيمة المسرحية التاريخية والاجتماعية والفنية. فلا شك أن «مصرع الطغاة» تحتوي على ظواهر اجتماعية ونفسية ستكون مفيدة وضرورية لكل من أراد أن يتفهم أوضاع الجزائر الاجتماعية والسياسية والعقلية عشية الثورة. وان اللقطات التي أشرنا الى بعضها كفيلة بأن تجعل من مؤلف «مصرع الطغاة» فنانا واعدا في حقل الرواية العربية يشق طريقه في صبر وايمان، رغم ما في وطنه من جحود ومثبطات .

أوكلير (أمريكا)

أكتوبر، 1966م

القصة الجزائرية القصيرة

من أصعب الموضوعات التي يتناولها باحث ما هو الموضوع غير المطروق ويصدق هذا بلا شك على أكثر موضوعات الأدب الجزائري . ولعل الاستاذ عبد الله ركيبي الذي كتب «القصة القصيرة في الأدب الجزائري المعاصر ، 1928 ـ 1962» لا يخالفنا في ذلك . ومن الجدير بالذكر أنه قدم موضوعه أطروحة لنيل شهادة الماجستير في الأدب من جامعة القاهرة ، **1967** ، وتقع الأطروحة في 249 صفحة بلا المقدمة (أ ـ هـ) على الآلة الكاتبة . وقد قسم المؤلف بحثه الى مقدمة وبابين وخاتمة وملحقات . واحتوى كل باب على عدة فصول ، فضم الباب الأول ، الذي عنوانه «القصة القصيرة الجزائرية» فصولا عن نشأة القصة ومؤثراتها ، وعن **المقال القصصي ، وعن الصورة القصصية ، وضم الباب الثاني الذي عنوانه** «القصة الفنية» فصولا عن القصة بالعربية والقصة بالفرنسية . وبتعبير آخر فقد درس المؤلف في الباب **الأول** نشأة وتطور القصة أما في الباب الثاني فقد حللها ونقدها . واذا كان الباب الأول تاريخيا ، فان الثاني أدبي فني . ومن الملاحظ ان البحث الخاص بالقصة بالفرنسية لم يكن في درجة الأبحاث الأخرى قوة وعمقا . ونعتقد أنه يجب التصفيق للمؤلف على عمله ، ولا سيما على الملحقات المنظمة والغنية التي سوف تكون ذخرا لكل باحث في الأدب الجزائري ، فما بالك بالقصة .

ويعترف الباحث بصعوبة موضوعه في المقدمة حيث لاحظ أن أدباء الجزائر **عامة قد اعتنوا بالشعر دون القصة . لذلك واجه مشكلة في وضع المنهج والحصول** على المراجع . وفي رأيه أن القصة قد بدأت «أواخر العقد الثالث» من هذا القرن .

ويعود أصلها ، بناء على رأيه ، الى المقال القصصي . ثم ظهرت الصورة القصصية (أو القصة غير الفنية). أما القصة الفنية فقد ظهرت ، حسب رأيه ، بعد الحرب العالمية الثانية . وقد وقف ركيبي ببحثه عند الاستقلال لنضج القصة عندئذ ولصعوبة الحكم على مستقبلها .

ومن جهة أخرى يعترف الكاتب أيضا أن صعوبة المنهج في القصة هي التي حتمت عليه العودة الى «بداية النهضة الثقافية العربية في الجزائر» للبحث عن العوامل التي ساعدت ظهورها وبالتالي ظهور القصة .

والحق أن المنهج الذي اختاره يجمع بين النقد والتاريخ ، أي دراسة الأطوار وتحليل النص في ضوئها ، ويرى أن هناك تشابها بين القصة الجزائرية بالعربية وبين القصة العربية في المشرق لتشابه البيئة والتقاليد .

أما أسلوب ركيبي في هذا العمل فيبدو عليه الاتزان والعلمية ، ويظهر عليه الجهد الأكاديمي في التحليل والمقارنة والنقد ، واننا لا نستطيع الا أن نهنئه على عمله الذي هو جديد جدة القصة في الأدب الجزائري . ونحن نتمنى أن يسرع باصدار بحثه في كتاب حتى يسد به الفراغ الواضح الذي تعانيه المكتبة العربية في هذا الصدد (*) .

(*) نشرت في مجلة (المجاهد الثقافي) عدد5. مارس، 1968 .

مسرحيـــة (التراب)

كان الدكتور أبو العيد دودو قد أرسل الي من فيينا (حيث كان يقيم) سنة 1966 مخطوطة مسرحية (التراب) (1) للاطلاع عليها وابداء رأيي فيها . وكنت عندئذ في مدينة أوكلير (امريكا). وقد أرسلت اليه رأيي في المسرحية في رسالة بتاريخ 15 نوفمبر ، 1966 . وبعد عودتي إلى الجزائر طلبت مني الشركة الوطنية للنشر والتوزيع اعطاء رأيي أيضا في نفس المسرحية التي كانت قد تلقتها من الدكتور دودو الذي كان ما يزال في فيينا . فكتبت اليها تقريرا عنها مؤرخا في 14 مايو ، 1968 . وهكذا اجتمع لدى الآن نصان عن مسرحية (التراب) لا يختلفان كثيرا . الأول رسالتي الى مؤلفها والثاني تقريري الى ناشرها . وها أنا أورد فيما يلي النصين مرتبين حسب تاريخيهما .

1. رسالتي الى المؤلف (2)

الأخ الدكتور أبو العيد دودو ، تحياتي وتمنياتي

أشكرك كثيرا على تفضلك بارسال مسرحيتك (التراب) وسؤالي ان أعلق عليها . وأحب ، قبل كل شيء ، أن أقول لك بأنني قد استمتعت جدا بقراءتها بل وبإعادة قراءة بعض المشاهد منها . وكم كنت أود أن وقتي كان يسمح لي بأكثر من ذلك . واني أرجو أن أراها مطبوعة ضمن انتاجنا الوطني الذي يخلد الثورة

1) نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 196 صفحة .

2) احتفظت من هذه الرسالة بالمسودة فقط، ولذلك فقد يكون بينها وبين الرسالة التي يملكها الدكتور دودو بعض الاختلاف الطفيف .

ويتحدث عن تاريخها وابطالها . ولعلي لن أنتظر طويلا قبل أن أرى هذه الأمنية تتحقق . ان انتاجنا الوطني في حاجة الى (التراب) لكي تملأ فراغا مخيفا في المسرحية الوطنية والعربية .

ومن ناحية أخرى ، أود أن أتأسف عن عدم استطاعتي ان أكتب لها مراجعة للنشر قبل أن تنشر هي نفسها في كتاب ، لأن ذلك غير معمول به . فالمراجعة **نوع من مساعدة القاريء على فهم العمل الفكري . ومن الواجب أن يكون في** استطاعة القاريء ان يعود الى ذلك العمل ليرى ما اذا كان يتفق مع المراجع أم يختلف . وما دامت (التراب) غير منشورة بعد في كتاب فليس من الحكمة في رأيي ، أن تقدم الى قراء لا يستطيعون الحصول على نسخة منها بأنفسهم . واذا ساعدتني الظروف فسأكون سعيدا ان أكتب مراجعة عنها متى صدرت في كتاب.

بقي ان أكتب اليك برأيي الخاص في المسرحية . وهنا أحب أن أذكرك بأن ميدان تخصصي الآن هو التاريخ وليس الأدب . فقد توقفت عن الاهتمام بالأدب وقضاياه منذ أمد طويل ، ولم يبق لي منه سوى ذكريات «قد لا تروج بمعرض الأفكار» ، كما يقول محمد العيد . ولكي يأتي الانسان بأحكام جيدة أو صائبة حول الأدب يجب أن يكون متتبعا لقضايا النقد ومذاهبه حتى يكون موضوعيا . وعليه فان تناولي لمسرحيتك سيكون ذاتيا الى حد كبير ، أي ناتجا عن احساسي الشخصي ازاءها ، وليس عن ثقافتي الأدبية والمسرحية بالذات .

دعني اذن أركز ملاحظاتي في التالي :

1) ان أول ما يلاحظ على المسرحية هو طولها . انها تتجاوز معدل زمن المسرحية الذي هو عادة ساعة ونصف أو ساعتان . وقد نتج هذا في رأيي من طول الحوار الذي يدور عادة ثنائيا ، في شكل سؤال وجواب أو أخذ ورد . مثلا حوار نوارة واختها الذي يقع في حوالي ست صفحات .

2) وقد نتج عن طول الحوار رتابة في بعض المشاهد ، ولا سيما اذا كان الحوار غير مصحوب بحركة (وهذا كثير في المسرحية) . وعليه فمن المتوقع أن ينام الجمهور ، حسيا أو معنويا ، وهو يسمع زهور والجريح أو حميد وكريم ، أو نوارة وسليمة يتحاوران ثنائيا في فترة طويلة بدون تغيير في المشهد أو مفاجأة .

3) وهذا يقودني الى الاعتقاد بأن مسرحيتك ، على ما هي عليه ، سشكون أمتع في القراءة منها في التمثيل . ولعلك قد كتبتها أنت من أجل ذلك . ويساعدني على هذا الاعتقاد استعمالك للحوار الأدبي (بل الشاعري أحيانا) مثل تعبير حميد عن مشاعره الوطنية (ص: 20) . وحديث كريم الى العلم (ص: 33) . والجريح (ص:37)، واستعمال الطريقة الفلسفية مثل حديث حميد عن الانتحار، وسعيد في شرح حالته النفسية وعلاقته بحميد وفضيلة . وأنت لا شك تدرك ان بعض هذه المحاورات يصلح للقراءة لا للتمثيل .

4) من ناحية الاطار العام فاني لاحظت ان هناك نقصا في وصف الأشخاص وعلاقاتهم ببعضهم ، مثلا شخصية زهور ودورها غير واضحين . وعلاقة دحمان بسعيد وفضيلة غير واضحة أيضا . واذا كنا نعرف أخيرا انه كان يكتب لسعيد رسائل مزورة ، فما هي علاقته بفضيلة ؟ وما دامت نوارة وسليمة تبرزان في الفصل الأول فقط فالظاهر ان علاقتهما بأحداث المسرحية وتطوراتها ضعيفة . ومع ذلك فقد شغلا مساحة كبيرة منها .

5) انك تقدم سعيد في الفصلين الأولين ونصف الثالث عبارة عن شخص موتور . ضعيف الارادة . من نوع هاملت . جبان . غامض . ثم تركز عليه الضوء في آخر الفصل الأخير فجأة وتجعله يقول للجمهور «قضيت على حبي للأخت فضيلة ... وأسلمت مشاعري لسحر التراب» . ان هذا التحول الجذري في شخصيته لن يقنع القاريء أو المشاهد . لأنه لم يشاهد منه شيئا . خصوصا بعد ان عرف كل ما قدمته أنت عن سعيد . ذلك انك جعلت حميد الى لحظة هذا التحول المفاجيء . هو البطل . ثم قلبت الآية في النهاية بجعله عبدا لحبه وثأره .

6) وهنا يتساءل القاريء : ما الذي حدا بك الى هذا الموقف ؟ أليس من منطق الثورة ان يكون هناك خائن (مثلا . سعيد) وبطل (مثلا . حميد) وحب كالذي كان بين فضيلة وحميد ؟ أو لماذا لم تربط بين كريم أو الجريح وبين زهور وزينب (رغم ان هذه الأخيرة متزوجة) عن طريق الحب ؟.

7) وحينئذ . ما هي رسالة المسرحية ؟ ان القاريء يخرج منها بفكرة غير واضحة . فسعيد شخصية مترجرجة انتهت بالموت . وحميد لا يمثل فكرة لتقلب

طباعه بصورة تثير الاشمئزاز لا الاعجاب . وفضيلة انساقت لعواطفها في البداية ثم ماتت في النهاية ، كما يفهم من خاتمة المسرحية . وكريم كان شخصية ثانوية على طول المسرحية ونوارة خابت أمانيها في زواج ابنها، ثم اختفت من المسرحية تماما . وبقية الأشخاص غير مهمين . فمن هو البطل حينئذ ؟ وما هي فكرة المسرحية ؟ هل هي الثوة ؟ ان تصرفات الأشخاص تثير الشك في انهم كانوا في الجبل من أجل فكرة ثورية محضة . هل هي تحول سعيد من الأخذ بالثأر الى الثورية وصداقة غريمه ؟ ولكن حميد كان أيضا شخصا موتورا ، وبالتالي يعبر عن عدم الاستة ا . ومثل ذلك يقال في فضيلة . أليس الأولى اذن أن تسمى المسرحية (الثأر) بدل (التراب) ما دام موضوعها يكاد يكون هو الثأر : ثأر سعيد من حميد والعكس ، وثأر فضيلة لنفسها من غلطتها الأولى ، ثم ثأر الجميع ـ فيما يبدو ـ للوطن من الدخلاء .

وبالاضافة هناك ملاحظات صغيرة . فمن الأحسن ان تصف المكان الذي تعنيه والذي تجري فيه حوادث الفصل الأول . ثانيا ، يبدو أن كل أحد كان يتحدث عن «الجبل» والمعروف ان الذهاب الى الجبل لم يكن حديثا «شعبيا» الى تلك الدرجة ، لا سيما في السنة الأولى من الثورة . ثالثا ، حسب تقاليد جيش التحرير ليس هناك من يلتحق بالجبل بدون «تجربة». فكيف التحق سعيد «دون أن يعرف عنه الثوار شيئا» كما يقول عن نفسه ؟.

هذه ملاحظات ظهرت لي بعد مطالعة المسرحية . اني أسوقها أمامك لا كاقتراحات ولكن كخواطر . فماذا ترى ؟ اني شخصيا قد قضيت وقتا طيبا في قراءتها . يبدو لي ان القراء الجزائريين والعرب عموما سيستمتعون بها متى صدرت في كتاب . ولكني أود أن تعيد قراءتها بنفسك ، وأن تعيد النظر في اطارها العام ومغزاها وحبكتها (1). ليس هناك من يدعي الكمال في اخراج العمل الأدبي ، ولكن محاولة الكمال ضرورية لكل من يريد أن يخط لنفسه اسما في التاريخ .

---

1) لا أدري ان كان الدكتور دودو قد أعاد النظر في المسرحية قبل تقديمها للطبع. فانا لم أقارن نصها المطبوع بالنص المخطوط الذي كنت قد علقت عليه .

رجائي ان تعلمني ما اذا كنت تريد مني ان أبعث اليك بالمسرحية ... طال حديثي اليك ، أتمنى أن أسمع منك ، والى اللقاء ، مع الشكر والتقدير .

المخلص أ . سعد الله

أوكلير (امريكا) ، 15 نوفمبر ، 1966 .

2 . تقرير عن مسرحية (التراب)

بعد الاطلاع على مسرحية (التراب) (1) للدكتور أبي العيد دودو ، استطيع أن أبدي فيها رأي ادناه . ولكن قبل ذلك أسارع فأقول انها مسرحية على العموم ناضجة ، وأسلوبها جذاب ، وفكرتها عميقة تدور حول الصراع بين الوطنية والحب والتضحية . وتحتوي على حوارات فلسفية هادفة . وعلى شخصيات تمثل قطاعات مختلفة من حياة الانسان عامة والانسان الجزائري خاصة . وقد رأيت ان ألخص ملاحظاتي على هذه المسرحية فيما يلي :

أ . المــــآخذ :

هناك بعض المآخذ التي قد تعرقل طريق المسرحية الى النجاح . ويمكن حصر ذلك فيما يلي :

1) طول الحوار أحيانا بين شخصين في صورة سؤال وجواب أو نحو ذلك ، مما أدى الى بعض البرودة في الجو العام (مثلا ، حوار نوارة واختها الذي يقع في حوالي ست صفحات ، وزهور والجريح ، وحميد وكريم)، خصوصا اذا كان ذلك يدور دون تبديل في المشهد أو مفاجأة .

2) قلة اختلاف المناظر ، مما أحدث رتابة في الحوار .

3) طول المسرحية ، فهي تتجاوز معدل الزمن العادي (حوالي ساعتين) .

4) ضعف الحبكة ، فهناك استطرادات وانتقالات مختلفة نتج عنها أحيانا تفكك في الفكرة العامة للمسرحية .

---

1) استعملت في التقرير كلمة «الرواية» وكلمة «المسرحية». وقد اقتصرت هنا على الأخيرة .

5) هناك نقص في وصف الشخصيات وعلاقتهم ببعضهم (مثلا . شخصية زهور ودورها غير واضحين وعلاقة دحمان بسعيد وفضيلة غير واضحة أيضا) .

6) لعل القاريء والمشاهد سيخرجان بفكرة غير واضحة عن المسرحية كعمل فني متكامل . (فقد انتهت شخصية سعيد الغامضة بالموت . وكان حميد شخصية متقلبة لا تمثل فكرة ثابتة . وانساقت فضيلة لعواطفها وانتهت هي أيضا بالموت . كما كان سعيد شخصية ثانوية . وخابت آمال نوارة) .

ب . المزايـــــــا :

وللمسرحية مزايا ترشحها للنشر والعناية وتحفظ لها مكانا بارزا بين الآثار المسرحية الوطنية . ويمكن تلخيص هذه المزايا فيما يلي :

1) انها أول مسرحية جزائرية بالعربية . حسب علمي . تجمع بين التكنيك المسرحي الحديثة والأسلوب الأدبي الرشيق .

2) يصور موضوعها حياة الجزائر الاجتماعية والنفسية في فترة الثورة . وهذه الحقيقة تجعلها هدفا لكثير من المهتمين بهذه الظاهرة .

3) ان أسلوبها أدبي ناضج (أنظر مثلا تعبير حميد عن مشاعره الوطنية . ص : 20 وكريم (ص : 24) . وفيها أحيانا لمسات فلسفية عميقة (مثلا . حوار الجريح مع سعيد . (ص : 40 ـ 41) .

ج . والنتيجـــــة :

1) انها مسرحية للقراءة أكثر من التمثيل .

2) انها مسرحية جيدة . على العموم . ولذلك أرشحها للنشر .

أ . سعد الله

الجزائر في 14 مايو . 1968 .

(بحـيرة الزيتـون)

منذ عقد ونصف (*) كتب الدكتور سهيل ادريس مقالا عن القصة العربية في افريقية الشمالية . جاء فيه «وأما في ميدان القصة فان معلوماتنا عن انتاج الجزائر ... تكاد تكون معدومة بسبب ان المصادر والآثار نفسها معدومة» (1) . ومن حسن الحظ أنه قد ظهرت منذئذ ، وفي الجزائر بالذات ، محاولات مختلفة بالعربية كان آخرها (بحيرة الزيتون) للدكتور أبو العيد دودو (2). ولعل واجب الأدباء العرب الآن هو العناية بهذه المحاولات حتى يترابط الانتاج العربي في جميع أصقاعـه .

ان الكتاب الأول كالطفل البكر يحمل دائما فرحة غير عادية ويبشر بحلم كبير لأهله ووطنه وانسانيته . وصاحب (بحيرة الزيتون) قد جرب الفرحتين . غير ان فرحته بميلاد الكلمة قد جاءت متأخرة ، ولكنه لم يكن غريبا عن الانتاج على أية حال . فقد بدأ ينشر ، على ما أعرف ، منذ حوالي عقد . وهو في تجربته الفنية قد مارس المقالة والدراسة الأكاديمية والقصة والمسرحية ، بل لقد نشر بالعربية وبالأجنبية . وان دراسته القيمة بالالمانية عن الشاعر محمد العيد التي صدرت في العام الماضي ، تشهد على ان تجربته ليست ضحلة أو محدودة .

طالما قلت لدودو انني قد انسحبت من نادي الأدب ودخلت أسرة التاريخ ولكنه كان يرفض ذلك أولا يصدقه . انني متأكد ان القصة من أخص فنون

(*) هذه الكلمة منشورة في جريدة (الشعب)، 13 يناير1968 .

1) مجلة الآداب ، العدد الاول ، السنة الثانية ، 1954 ، ص : 18 .

2) صدرت عن دار الشعب، الجزائر، 1967، 204 صفحات .

الأدب وأصعبها على التقييم والنقد الموضوعي ، وهي تحتاج الى ناقد متخصص ومتجرد . واذا كان الأمر كذلك في القصة عامة ، فانه في القصة الجزائرية أدعي الى القلق في البحث عن هذا الناقد ، ومن حسن الحظ ان الذي قدم الى (بحيرة الزيتون) هو الأستاذ عبد الله ركيبي ، صاحب (نفوس حائرة) الذي درس القصة الجزائرية دراسة تاريخية ونقدية في رسالة أكاديمية قدمها أخيرا (1) . وأعتقد أنه قد أنصف دودو في معظم ما قاله عنه ، رغم أنني كنت أود أن أعرف رأيه في مكانة صاحب (بحيرة الزيتون) بالمقارنة الى التجارب الجزائرية والعربية الأخرى التي سبقته .

وتضم بحيرة الزيتون عشرين قصة ، كلها من وضع المؤلف ما عدا قصة (حلم) التي اقتبسها عن بتسولد . وفيها تمثيليتان قصيرتان هما (بندقية واحدة) و (عذابات) . وموضوعات القصص تعكس ثقافة المؤلف واتجاهه . فالخط الرئيسي لكل قصة يكاد يكون هو تجارب الثورة الجزائرية في ألوانها المختلفة . لذلك تشع في المجموعة عبارات الجبل والوطن والتضحية وحب الأرض والعنف ونحوها . وأسلوب المؤلف يجمع بين الرومانسية والواقعية ، ويميل الى السرد الخلفي والتفرع داخل الاطار العام للقصة . وتشع فيه أيضا عبارات غارقة في القدم وأخرى موغلة في الجدة ، وان كان النوع الأخير أكثر شيوعا .

وهناك ظاهرة أخرى تميز هذه المجموعة ، وهي شعور المؤلف بالغربة ومحاولة دمج نفسه ، ولو من بعيد ، في تيار الأحداث التي كانت تجري في بلاده . وظاهرة الحضارة الأروبية التي يعيشها المؤلف قد دخلت أيضا في تناوله للحياة الجزائرية . ويظهر ذلك في وصف العلاقات والتصرفات الشخصية وذكر الحدائق وقراءة الجرائد في البيوت والرقص ونحو ذلك . بل نجد ظاهرة العنف العاطفي تبلغ ذروتها أحيانا ، كاتهام الزوجة بالخيانة وقتل الابن للأب عنوانا على التضحية في سبيل المصلحة العليا .

وتحكي قصة (الفجر الجديد) قصة رجل مثقف يحب زوجته الراقية الثقافة ، ولكنه يكتشف انها كانت تخونه . وعندما تبين له قد ظلمها قرر الالتحاق بالثورة

---

1) أنظر : حديثي عنها في هذا الكتاب .

ودفن شعوره بالذنب في حرب الأعداء . وصادف ان جرح في احدى المعارك ودخل المستشفى ولكنه سعد بلقاء زوجته هناك . فالقصة جيدة وتصور بلقطات نافذة علاقات الزوجين المتقفين ، وتكشف عن دور المثقف ازاء الجمهور والقضية التي يناضل من أجلها ، رغم انها تحمل كثيرا من الانفعالات والتوترات العطيلية ومن عناصر الصدفة التي قد تضعفها .

وتصور قصة (انتظار) قصة فتاة فقدت أبويها وهي تنتظر أخاها المراهق الذي لم يعد الى المنزل في الوقت المعتاد ، ولكن لدهشتها قد اكتشفته جريحا في كومة أمام عتبة الباب لأنه كان قد رمي قنبلة على حانة وطارده بعدها الحراس . وبينما كانت تواسيه طرق جنود العدو الباب بحثا عنه في الوقت الذي كان هو يموت بين يديها . فوضعته جانبا وحملت مسدسه ومسحت الدموع وخرجت لاستقبال أولئك الجنود . ورغم بساطة هذه القصة فانها ترتفع الى مستوى انساني رفيع ، ولا سيما من لمسات فرويدية عميقة .

وتروي (المنام) قصة جزائري مسافر بقطار في أروبا الشرقية أثناء هطول الأمطار ويقص البطل في القطار تجربته عن طريق السرد الخلفي تساعده على ذلك هزات الطبيعة ووجود جو غريب بجانبه. ونعرف من القصة أنه كان مناضلا قديما وانه فقد احدى عينيه وكاد يفقد الأخرى. وكان يحمل الرسائل في فمه من مركز الى آخر. وكان يرقص ويراقص اخوانه للتسلية . ودور الرقص الوظيفي في هذه القصة يذكرنا برقصة زوربا المشهورة. كما ان الجمع بين البطولة والرقص فيها يعيد الى الأذهان تناقضات زوربا وأخيرا فرحته. وتروي قصة (القائد) حالة شبيهة وان كان مسرحها وعقدتها يختلفان، ففيها سرد خلفي واستعادة لذكريات الحب والبطولة انتهت بجرح البطل .

وقصة (نضال) انتهت بأن قتل الشاب الثائر أباه دفاعا عن الثورة وهو يردد «مرحى ! مرحى! بالجريمة ان كانت نضالا» ويقول على لسان الثوار «نحن لا شيء ولكننا كل شيء» وليغفر لي القاريء ان أقول لدودو ان هذه النهاية بشعة لم يرتكبها حتى شيكسبير وقادة المسرح الكلاسيكي . وقد كان من الممكن التخلص من الأب بطرق أخرى أكثر انسانية. فنحن في عصر يؤمن بالحضارة التي هي في أدق معانيها تعني امتلاك النفس والتصرف بانسانية حتى مع ألد أعدائنا فما بالك بآبائنا. وقصة

(خيبة) ليست بالضبط من هذا القبيل ولكنها حقا غليظة أيضا . فهي تحكي قصة رجل باكستاني طالما سمع وأعجب بالثورة الجزائرية . وصادف ان تقابل مع جزائريين في أوربا فأراد اكرامهما ارضاء لشعوره. ولكنهما في النهاية سلباه نقوده واشبعاه ضربا مبرحا أوشك منه على الموت .

أما قصة (العودة) فهي بسيطة ساذجة رغم ما فيها من معالجة واضحة لمشكلة الفقر . فهي تمثل فتى فقيرا يسكن حيا عربيا قديما قذرا ليس له نقود يعيش منها ويواصل بها دراسته. وأخيرا ينتهي الى غابة صادف فيها فتاة جميلة تعرفه من قبل. وقد ادخلته عندها ودفعت اليه الدراهم فكاد يطير من ذلك فرحا وعاد الى الكلية والحياة، وهو يأمل أن يتزوج الفتاة ذات يوم. ولعل قصة (جاء دورك) تعوض ما فقدته قصة (العودة). ان عنصر الحياة والحب الحقيقي والعاطفة الوهاجة يكاد ينفجر في خاتمة (جاء دورك) حين كان البطل يردد «أماه ! لقد جاء دوري كما قلت. الوداع يا أماه! وعانقت أمي ورفعت أخي الى صدري وأنا أقول من أجلك يا حبيبي. ستعيش بعدي يا أخي!» .

لم يكن هدفنا هنا هو استقصاء جميع القصص والحكم عليها واحدة واحدة. وكل ما أردناه هو عرض بعض النماذج فقط لمساعدة القاريء على فهم روح دودو في (بحيرة الزيتون). واتباعا لهذا الخط نود ان نشير الى ان في المجموعة كثيرا من الأفكار الفلسفية والألوان الفنية البارعة. من ذلك الروح الوجودية، وبالأخص الكاموية، في بعض مراحل (جاء دورك). لنستمع الى هذه العبارات النابضة بالمشاعر الانسانية «اليوم مات أبي، مات دون أن أراه. لقد قتلوه بعيدا عني ... كنت أود أن أرى صفرة الموت ، وهي تلون محياه الحبيب. وان كانت رؤية الأموات تخيفني وتجعل الدماء تغوص في أعماقي» . وفي (بحيرة الزيتون) زخارف سوريالية ولمسات فرويدية واضحة. ولنقرأ هذا الهذيان على لسان شريفة الأم اين كانت طريحة الفراش، في القصة التي هي عنوان للمجموعة «ما هذه الظلمة؟ لم تخضر الأشجار بعد؟ ألم تشرق الشمس بعد ... اشعلي النار ... يا ... بنتي. أما وصل ابني؟ ... الشيخ محمود؟ ابني سعيد. زيتوننا يتطاير .. الكلب يتقاطر دما. أكل الذئب الماعز.. سقط نجم كبير.. برق ورعد.. صلى الله على رعده.. ابني سعيد يحمل ... الشمس ... الضوء .. لم يبلغنا. الجنود. سور أسود...» ان قراءة أفكار شريفة من خلال

هذه التعابير الطائرة ليست صعبة، وهي تبرهن على أن دودو يجمع الى سلاسة النثر والحقيقة قوة الشعر والخيال . ومن حسن الحظ أن في المجموعة كثيرا من هذه الاختراعات .

وتفوح (بحيرة الزيتون) أيضا بمظاهر الحياة الاجتماعية والأفكار التقليدية من ذلك ما جاء في نفس القصة من الخرافات حول دور البومة في قول فاطمة بنت الأم المريضة بأن أمها قد «سمعت ... بومة تنوح فوق البلوطة ففزعت كثيرا. أهي نذير سوء؟» ثم في اجابة الشيخ لها بأن «الموت والحياة بيد الخالق وحده، يا بنتي . ولا دخل للبومة في كل منهما » وكأن المؤلف أراد أن يقول لنا ان الثورة كانت حدا فاصلا حتى في تغيير المعتقدات فأضاف على لسان الشيخ أبعادا لتأثير البومة قائلا «نحن نعيش في عصر الثورة» وهي جملة ذات معنى عميق .

ولعل القاريء للفقرة التالية لا يجد صعوبة في ضمها الى المدرسة الرومانسية حتى لقد يخيل اليه انه يقرأ نصا كتب على ضفتي بحيرة جنيف في أوائل القرن الماضي. لنقرأ هذا من قصة (الفجر الجديد) «كان سماع صوتها كفيلا بأن يعيد الى نفسه هدوءها وطمأنينتها واجتاح الابعاد بنظرة طروبة . الشمس تعلو ببطء ، تتسلق جدران الأفق الصاحي .. والأرض نشوى ترتعش تحت النسمات الخريفية الحلوة .. والعصافير تملأ الفضاء بأهازيج سادرة ، والأوراق الباهتة تحوم في الجو راقصة قبل أن تستقر على الأرض.. وهناك عند سفح الجبل يدب القطيع والرعاة خلفه تتعالى أصواتهم بالأناشيد الوطنية والريفية الجميلة». فكل عناصر الفن الرومانسي متوفرة هنا: الحب والشمس وأوراق الخريف والطيور وأغاني الرعاة ثم الجو الناعم الحالم والاناني الغريب . وفي (بحيرة الزيتون) كثير من هذه اللفتات الى القرن الماضي .

ولكن هذا لا يعني ان القصص قد خلت من المشاهد الواقعية. فالحق ان فيها ألوانا كثيرة من هذه أيضا. ويكفي ان تتأمل بعض النماذج حتى تدرك أن صاحب بحيرة الزيتون ليس ملتزما بمدرسة أدبية معينة وانما يأخذ حريته فيطير من هذه الى تلك والعكس. لنقرأ هذا النص من القصة التي تحمل عنوان المجموعة «فتأملت الكانون مليا، ثم التقطت عودا ونبشت به الرماد واذا بها تلمح جمرات صغارا، فاعتراها تيار مرح سمح وقامت الى الدكة وأخرجت من جوفها قليلا من العشب وألقت

به على الجمرات ونفخت بكل قوتها، فتواثبت اليها ذرات الرماد الرقيقة وتعلقت بأهدابها ويديها وصدرها ومقدم رأسها. ولما اشتعلت النار استقامت ونفضت الرماد عنها وشدت حزامتها، وكانت قد انحلت في أثناء ذلك، ثم وضعت الحطب على النار» ان هذا في نظري تصوير رائع لمحاولة قدح النار من فتاة فقيرة تحاول ان تنقذ أمها من الموت . ولو أراد فنان واقعي رسم لوحة لنفس المحاولة لما زاد على وضع الخطوط التي رسمها دودو لقصته بل لو لم يكتب ذلك النص دودو وفي بلد محايد كالنمسا لقلنا ان الذي كتبه هو انسان يعيش شرقي حدود ذلك البلد .

ولعل أبلغ من ذلك وقعا وأكثر منه التصاقا بالأرض ما جاء في قصة (العودة) من وصف للحي العربي بقاذوراته وأطفاله وألعابهم «عندما حضنه الزقاق الضيق الذي يقع في منتهاه منزله صفعت أنفه رائحة كريهة ضاقت بها نفسه وأصابه من جرائها ، دوران حتى أوشك أن يقع . وما ان خطا خطوات قلائل حتى لاحت له جثة كلب ملقاة أمام أحد البيوت وقد التف حولها عرب صغار ذوو وجوه شاحبة واسمال بالية لا تكاد تستر عوراتهم. لقد كانوا يحاولون ان يجرجروا تلك الجثة بواسطة حبل عتيق لإلقائها في النهر إلا أن الحبل كان ينقطع كلما شدوه حول رجل الكلب . واصطفوا الواحد خلف الآخر وشرعوا في سحبه فيتضاحكون وترتفع أصواتهم باللفظ والصياح» .

فكرت طويلا في خاتمة لهذا التعريف (ببحيرة الزينون) فلم أجد غير الرسالة التالية التي أعترف بأنها غير تامة، ولكني مع ذلك، أثبتها هنا قبل أن تحترق : أيها الطائر الغريب عد وحلق في سماء بلادك التي تفوح بروائح الديدان والغربان والبوم والزعانف. عد وأنظر الى قومك وهم يرقصون على صفعات السياط ويبدلون جلودهم كل دقيقة. عد وسجل صراخ أمك واختك وصديقتك وهن يلفظن الأنفاس الأخيرة تحت قبضة اخطبوط الأمس الذي أضيفت له اليوم ألف رجل من حديد . ثم ارجع الى حيث أنت وتوسل الى كل فنان عبقري ان يخلد مأساة الفكر في بلادك (1) .

الأبيار (الجزائر) ، 7 يناير ، 1968

1) لم يمض على عودتي الى الجزائر سوى أقل من ثلاثة أشهر عندما كتبت هذا التعريف. ويظهر من الفقرة الأخيرة مدى المرارة التي انعكست على أسلوبي من جراء ما عاينته عندئذ . ولا أدري هل فهم الدكتور دودو (وغيره) هذه الرسالة المعذبة .

(شعـر المقاومـة الجزائريـة)

اتاح لي الأستاذ صالح خرفي الاطلاع على الرسالة التي قدمها عن «شعر المقاومة الجزائرية، 1830 ـ 1930» لنيل شهادة الماجستير في الأدب من جامعة القاهرة، سنة 1966، وقد سعدت حقا بقراءة جزء منها ،وأعجبت بجهده في البحث والتحقيق في موضوع هو بلا شك من صميم اختصاصه .

تقع الرسالة في 173 صفحة على الآلة الكاتبة . وتضم مقدمة طويلة (19 صفحة) وأربعة أبحاث (وليس فصولا) هي : المقاومة المسلحة ، المقاومة الانطوائية ، في مفترق الطرق، المقاومة القلمية. كما تحتوي على مراجع قيمة تضم بدورها ثلاثين كتابا وعشر دوريات وجرائد .

وما دام الموضوع عن «شعر المقاومة» فلا نستغرب أن يخضع الكاتب الشعر للاحداث السياسية التي جرت في الجزائر خلال القرن الذي تناوله. في المقدمة يعترف الكاتب بصعوبة موضوعه كأدب، فما بالك به كشعر، وكشعر مقاومة على الخصوص ويبرر هذه الصعوبة بانعدام النصوص المطبوعة . ويقول ان الأدب في الفترة الأولى من الاحتلال قد عاش محدودا باهتا جامدا «لا يكاد يتخطى عتبة الزاوية». ويضيف بأن القصيدة على هذا العهد كانت «قعيدة كسيحة ، لا تكاد تستوي على ساقيها بمضمون هادف، أو أسلوب رائق». ويقول ان الشعر أثناء ذلك كان للمناسبات وان الشعراء كانوا قلة .

ومن ناحية أخرى يلوم العهد التركي عما يسميه بالفاقة الأدبية التي زادها الاحتلال الفرنسي فاقة. ويقول ان الموجة الصوفية العارمة في العهد التركي كانت

على حساب الأدب. لذلك زهد المجتمع في الأدب ولم يبق للقصيدة متنفس الا المنظومة الدينية. ويحكم الخرفي على شعر الأمير عبد القادر بأنه بطولي الموضوع، ولكن صورته «مكررة مجترة» وربما لم توفق حتى في الاجترار، والمفهوم «بطولي عنتري». غير أنه يعترف بأنه شعر يستمد قوته من الشعب.

أسلوب الكاتب ـ كعادته ـ شعري عاطفي وهذه طريقة قد لا تتفق مع الروح الأكاديمية الموضوعية الهادئة. ورغم أننا لا نتفق معه على كثير من الأحكام التي انتهى اليها في بحثه، ولا على الطريقة التي تناول بها الموضوع، فاننا نهنيء الأستاذ الخرفي على أطروحته القيمة، ونتمنى أن يقدمها للنشر في مستقبل قريب حتى تعم فائدتها ويستمتع بها القراء (*).

(*) نشرت في مجلة (المجاهد الثقافي) عدد 5 مارس، 1968.

(الرصيـف النائـم)

يبدو أن هناك كتبا محظوظة وأخرى سيئة الحظ. ولعل «الرصيف النائم» من النوع الأول لسببين : انه من انتاج سيدة جزائرية ، وهو لذلك يعتبر «يتيمة الدهر» لأن الانتاج الأدبي النسائي في تاريخ الجزائر يكاد يكون معدوما . وأنه يحتوي على مجموعة قصص قصيرة بالعربية وهي ظاهرة تكاد تكون جديدة في حياة الجزائر الأدبية. ويمكن أن نضيف الى حظوظية هذا الكتاب ان مقدمته، الدكتورة سهير القلماوي، لم تخف اعجابها به، فقالت عنه : «لقد قرأت هذه المجموعة مرتين ... وفي كل مرة أجد لكل قصة بعدا جديدا من الدلالة». (ص:17).

والحق أن السيدة زهور ونيسي قد وفرت كثيرا من المشقة على المهتمين حين قدمت نفسها وعملها الى القراء وأجابت على بعض الأسئلة التي كان يمكن أن تطرح حول رأيها في القصة وبداياتها في الكتابة ومصدر ايحاءاتها الأدبية ، ونحو ذلك، فقد ذكرت في المقدمة انها لا ترغب في اعطاء تعريف للقصة وانها قد بدأت الكتابة بالمقالة قبل أن تحاول القصة ولكن تكوينها «النفسي والتربوي» وبحثها المستمر عن «الشكل الملائم للتعبير» قد أخذ بيدها الى القصة. وتتحدث عن محيطها الاجتماعي والثقافي فتقول انها قد عاشت في حي فقير في قسنطينة، وانها قد تأثرت بالتاريخ الوطني والحركة الاصلاحية، ثم علمتها الثورة «الفرق بين النظرة الشمولية والنظرة السكونية التي كانت سائدة مسيطرة على رحاب مجتمعنا». والكاتبة صريحة في التعبير عن بعض اعتقاداتها، فهي تقول : «اني ضد الأفكار التقليدية أو .. الأفكار البورجوازية والمسكنات السائدة» .

ويبدو أن المؤلفة لم تترك مجالا حتى للنقاد. فهي تصف أقاصيصها بأنها «بسيطة كبساطة الشعب عامة و ... قطع نابضة وصور حية تبرز بعض جوانب ملحمة الثورة الجزائرية وتجسمها بكل ما فيها من أبعاد واعجاز وأساطير». (المقدمة) ولم تكتف بذلك بل قدمت كل قصة بمقدمة صغيرة فتقول عن «عقيدة وايمان» انها «أول محاولة لي وضعت بأسلوب قصصي .. وفوق ذلك فالقصة ان هي الا تصوير لواقع حي ، ولحوادث حقة لأشخاص مازالوا يجترون الحياة» . (ص : 21) وتصف قصة «فاطمة» بأنها «قصة كل امرأة جزائرية ... المرأة التي عاشت حقا ثورة أول نوفمبر بكل ما فيها من أبعاد». أما قصة «مازلنا نقسم» فقد وصفتها مجلة (الصياد) اللبنانية التي نشرتها بأنها قد «جرت ... في المدرسة حيث تعلم المؤلفة التي كتبتها ... بمشاعر اللحظة» (ص:43) .

وتقول المؤلفة عن قصة «خرفية» بأنها «تجسم بقسوة لوحة للمرأة ... انها لوحة من نحت، ورسم المرأة لنفسها ... تتحدى التفاخر .. وتتطلع للاقتصاد.. والوفاء» (ص:59). أما قصة «الرصيف النائم» التي تحمل عنوان المجموعة فان المؤلفة تقدمها بهذا التساؤل «أصحيح يوجد ... في أرض الجزائر على مدى خمسة أجيال من العمر .. رصيف نائم». ثم تجيب على ذلك بأن أرصفة الجزائر «لم تعرف خلال الوجود الفرنسي .. الا الضجيج. والصراخ والعويل. والانفجارات». (ص : 73) وتصف المؤلفة قصة «لماذا تخاف أمي ؟» بأنها نتيجة «الظروف والزمان والمكان» (ص 87) . وأخيرا تبدأ قصة «زغرودة الملايين» بقولها «لا رفعة لشعب ... لا يعترف بأبطاله ، ولا يقتدي بمبادئهم» (ص : 101) .

ورغم هذه المعلومات الهامة عن كل أقصوصة في «الرصيف النائم» فانّي أرجو أن يكون نقاد القصة القصيرة أكثر مني الحاحا وأن لا يكتفوا بالتقييمات التي وضعتها أمامهم المؤلفة. والى أن يقع ذلك أقول بأني على يقين من أن «الرصيف النائم» سيحتل مكانا بارزا في أدب الجزائر الحديث لأنه كتاب محظوظ .*

(*) نشرت في مجلة (القبس) عدد 9 ـ 10 (أبريل ـ ماي ، 1968)

ديـــوان (ألـم وثـــورة)

خلال العقد الماضي(*) ولدت حركة أدبية في الجزائر جمعت الشعر الى القصة والقلق الى الثورة، ونعني بذلك حركة الجيل الذي فتح عينيه على الثورة الجزائرية في عنفوانها، فكان هو المراهق الذي ينشد الحب وكانت هي الرمز الذي يثير الغريزة .

فتح هذا الجيل اذن عينيه على أرض قد مزقتها الخناجر وعلى شعب قد اثخنته الجراح، فراحوا في انتاجهم يجمعون المزق ويستبدلونها بخيوط الشمس ويضمدون الجراح ويحولون دماءها خمرة حب وأمل. غير أن الشمس كانت أقوى من الشعب الذي ينسجون له تلك الخيوط ، والخمرة كانت أعتى من العواطف التي يسكبون لها الخمرة، فكان ذلك هو مصدر ثورتهم وقلقهم .

ذلك ان الجزائر خلال العقد الماضي كانت تتحول ولكن الطريق غامض والهدف بعيد، والحركة الأدبية كانت تضعف وتتلاشى ولا تقدم البديل لهذا الجيل الطموح المتوتر، بل ان الأصوات المضادة لفورة هذا الجيل والعراقيل التي نصبت في وجهه، حقيقة أو تخيلا، كانت تتحول عندهم الى مزيد من القلق والثورة. ولم يكن تطور الأوضاع في الوطن العربي يساعد أدباء هذا الجيل على حل مشاكلهم فقد كانت تلك الأوضاع تزيد من حيرتهم وثورتهم .

وكان مصطفى الغماري من شباب هذا الجيل الذي يحاول أن يفرض وجوده على المسرح الأدبي في الجزائر. فقد وجدته الثورة ابن ست سنوات. ولم تكد تنتهي

(*) طلب مني الأستاذ مصطفى الغماري أن أكتب له مقدمة ديوانه (ألم وثورة) فكتبت اليه هذه الكلمة.

حتى وصل مرحلة المراهقة. ومن ثمة عاش الثورة طفلا وصبيا بكل رعبها ووحشيتها. وبكل آمالها ووعودها . وكان مسقط رأسه بالذات يعيش نمطين من الحياة يبدوان متناقضين. فمن جهة هناك تقشف الى درجة الفقر وزهد الى درجة التصوف، ومن جهة أخرى هناك ثورة على الظلم وطموح الى حياة أفضل. فكان شعر الغماري يمثل هذين النمطين معا .

وقد كان التعليم الذي تلقاه قبل الجامعة تعليما دينيا يزيد في تعميق نمط الحياة الأول . فوالده كان يعلمه القرآن ومأثورة الحكمة والزهد ، وزاوية بلعموري التي اختلف اليها كانت تزوده بمباديء الاسلام وتعاليمه. وكان حظه من ذلك بالمعهد الاسلامي بالعاصمة أكثر وأعمق. فهناك مناقب السلف والالحاح على السلفية. وحتى عندما حصل على منحة للدراسة في ليبيا كان تعليمه فيها يخدم نفس هذا الاتجاه الذي لم يستطع ان يتحرر من ربقته حتى بعد أن دخل الى كلية الآداب بجامعة الجزائر، ويمكن القول انه ظل معه حتى بعد تخرجه منها. فهو ما يزال «موحدا مؤمنا» متجها الى ربه حتى في أحلك لحظات يأسه :

ولو لم يكن يا رب فيك توحدي	وفيك ابتهالاتي ومنك الرضى الحاني
لأحرقت من سفر الحياة صحائفي	وأسدلت عن فصلي ستائر تنعاني
ولكنني في ظل نجواك أرتجي	وأسرج في لقياك أفراس ايماني

* * *

ومنذ سنوات قرأت له بعض النماذج فيما كانت تنشره المجلات الوطنية. واستمعت اليه في احدى المناسبات يلقي بعض قصائده فرأيت فيه شابا يشق طريق الشعر بثبات. ولكني أحسست عندئذ ان في شعره ثقلا قد لا ترضى به موسيقى العصر ومنهجا قد لا يحبه هواة التجديد .

وكان زملاؤه في المدرسة الجديدة يلمعون بسرعة وتتخطفهم الصحف والمناسبات ، وكانوا يختارون عادة موضوعات غير موضوعاته. فهم يحملون شعارات «الواقعية الوطنية» ويكتبون بطريقة متحررة تناسب سرعة الحركة التي تعيشها بلادهم، ويتبناها ذوق العصر. وهم يحملون بشدة على «الأدباء الشيوخ» ويرون أنفسهم أحق منهم في

تمثيل الجزائر في عهد الاستقلال. فكدنا لا نرى للغماري، وسط هذه الموجة، صورة ولا نسمع له لحنا . فقد كانت صورته في أعين زملائه أنه قديم جديد، أو أنه جديد قديم. فهو من ضمنهم ولكنه ليس تماما منهم. وكان لحنه في نظرهم يردد أصداء السنين الغابرة في وقت كانوا هم يثورون على هذه السنين وعلى أهلها وعلى طريقتها .

وفجأة خرج الغماري بمجموعته التي سماها (ألم وثورة) فاذا هي تختلف كثيرا عما عرفناه له من أشعار موضوعا وأسلوبا. والغريب فيها انها قد «انثالت عليه انثيالا» دفعة واحدة في مدة لا تتجاوز شهرا واحدا. فقصائد هذه المجموعة ليست حوليات ولا حتى شهريات ولكنها تكاد تكون «يوميات» سجل فيها الغماري عواطفه المتألمة الثائرة وبث فيها أحزانه وتوجداته. فالمجموعة اذن من هذه الزاوية عبارة عن «قصيدة واحدة» متصلة الأجزاء والموضوع، مختلفة البحور والقوافي .

والمحور الرئيسي لهذه المجموعة هو ذات الشاعر. فنحن نجده فيها متصوفا عاشقا وحيدا ثائرا حزينا مسافرا. ولا نكاد نجد له فيها اسم مكان واحد سوى (الجزائر) و (لبنان). الأول في قصيدة (أهازيج الصباح الأخضر) والثاني في قصيدة (ازهار الرفض)، وهما القصيدتان اللتان تحملان طابعا سياسيا واللتان يخرج فيهما الشاعر عن ذاته الى حد ما. فهو يغني في القصيدة الأولى للجزائر، سليلة عقبة وطارق :

يا بنت عقبة في المضاء   وبنت طارق في المفاخر

ويصف الطاغية الذي أدماها وسرق منها الضوء والسعادة بهذه العبارات :

طاغ .. يداه على الدروب   كما يشاء .. على المجازر
حناؤه دمي الخضيل   وعرسه شبق المقابر

ورغم استخدامه لرموز واضحة في هذه القصيدة، مثل الليل (وهو رمز غير جديد) للظلم والاستعباد، ومثل الطاغية للتعسف والاستبداد، فان ذات الشاعر تظل هي المحور الرئيسي حتى في هذه القصيدة الرمزية ـ السياسية. فهو يخاطب الجزائر متحدثا عن نفسه بهذه الالحان الناعمة الشاكية :

كم ذا ترنم في رباك   هوى بقافيتي مهاجر
أ أموت يا نهر الخلود   وتحتسي دمي المقابر

أ أمـــوت ؟ كـــــل خليـــــة   في الـــدرب تـــورق جـــرح ثائـــر

ومن الواضح ان الشاعر يؤمن بأن نهايته (الهزيمة ـ الموت) عنده لن تكون نهاية للآخرين أيضا . ذلك ان رحم الجزائر الذي سقاه عقبة وطارق سيظل يلد الثوار والأبطال . فالشاعر في البيت الأخير يظهر متفائلا مفعما بالايثار .

أما في القصيدة الثانية (أزهار الرفض) فقد ورد اسم لبنان. والشاعر فيها يبدو مشاركا في احداث هذا القطر، متخذا له موقفا واضحا من تطوراته :

ضفائر النصر تأبى ان يحيط بهـــا   من يزرع الموت في أعماق (لبنانا)

فهو في هذه القصيدة «يرفض» مطلب اليمين هناك ويلوح بأكاليل الغار للمعسكر الآخر ، فهو يقول :

ضفائـــر النصـــر للأجيـــال هـادرة   تعانـق الفجـر آيـــات وقـرآنـــا

فتعاليم مدرسة والده وزاوية بلعموري والمعهد الاسلامي مازالت تلازمه حتى هذه الساعة .

كما اننا لا نكاد نجد في المجموعة اسما لشخص بعينه، ولذلك قلنا ان المكان والزمان والشخص هو الشاعر نفسه. فحبيبته (أو الرمز) التي يخاطبها لها عدة أسماء. فهي «ظلماء»، وهي «نعيمة»، وهي «بنت عقبة» ثم هي «ليلى». ولكن مهما كان اسمها فهو يحبها حبا جما بلغ به أحيانا حد الشبق :

أهـــوى جبينـــك يـــا كعـــــاب   وأعشـــــــق الهـــــدب المنـــير
فتــــرق أنفــــــاس الهيـــــام   عــــلى النهـــود عـــلى النحـــور
ونميـــــــــد فـــــرعي واحـــة   يتعـــانقــــان عـــلى طهـــــــور

ولكن هذا مجرد حلم، ذلك ان الحقيقة قاسية والحبيبة بعيدة . والشاعر، رغم شوقه وشهواته، مهزوم لا ينال من مناه ما يريد :

غامت على هدبك المجنون ذاكرتي   يا ليل ، وانقض في كفيك عالينـــا
مخالب الشبق المسموم تغـــرزهـا   فينا وتلهث في الأعماق تنينـــــا
كفـاك يا هـازم اللـذات مقبـــرة   فيها تهاوت عـلى يـأس أغانينـا

وهذه المزيمة هي التي تسببت للشاعر في كل ما يعانيه من ألم وحزن وثورة. ولا تنفعه (ثورة الرفض) ولا (سفن التحدي) التي يبحر بها في بحار الشوق اليائس :

سفـــن التحـــدي في بحـــارك   ثـــورة الرفـــض المبيـــــــــن

ذلك ان عناوين القصائد الست عشرة التي تضمها المجموعة لا تكاد تخرج عن معاني هذه الهزيمة فهي : جفاف، هموم، غربة، أحزان، أنغام، وترجيع، جراح، الخ. لذلك كان محور هذه القصائد كلها هو ذات الشاعر، كما قلنا، فهو وحيد، غريب، حزين :

وحيـــد يمضـــغ النجـــوى   ويقتـــــات الـــدواوينـــا

وهو يقول أيضا عن نفسه انه يظل :

ينـــاجـي الليــــل والأشـــواق   والآلام والقــــــــــــــدرا

ويصف غربته السرمدية بهذه الطريقة :

أنـــا غربـــة تطـــوي المكـــان   وينتهـــــي فيهـــا مـــداه
ويظـــل يوغـــل في الزمـــان   مـولـولا واخافقـاه ! واخفقـــاه !

* * *

ويكثر الغماري من ألفاظ معينة حتى ليخيل الى قارئه انها هي مفاتيح شخصيته النفسية. فهو بالرغم من قوله انه يحب حبا طاهرا أو عذريا يستعمل الفاظ (الشبق، والمضاجعة، والتنين، ونحوها) مما يجعل شعره يكاد يكون حبا ماديا لا حدود له :

ربيـــــع الشـــوق أوتـــار   الصبـــاح تضاجـــع الارقـــا

ولعل أكبر قدر من هذه الألفاظ التي تدل على اتجاه معين في الشاعر هي الألفاظ الصوفية، مثل الزمان والمكان، والكيف والأين، والغيبة، والحضور، والعدم، والشهود، والاوراد، والكرمة، ونحو ذلك. ويكفي ان نذكر بالبيتين السابقين اللذين يتحدث فيهما عن الغربة ويجمع فيهما بين الزمان والمكان، وان نستمع الى قوله :

وقلـت غـدا سيسكـر كرمنـــا   الصـــــــــوفي جفنينـــــا
نسيـــت بأننـــي سفـــــر   يجـــوب الكيـــــف والأينا

أو الى قوله :

حضورك يـا كرم المناجـاة غيبـة وحسـك يـا وادي الفنـاء بليـد

أو الى قوله أيضا :

عـدم أنـا يـا بنـت عقبـة لا غيـاب لا حضـور

وله من هذا الصنف الشيء الكثير، وهو يبرهن من جديد على أهمية دراسته المبكرة في تكوينه .

ولا يعادل الإكثار من الألفاظ الصوفية عنده الا الإكثار من ألفاظ البحر وما جرى مجراها . ويمكن حصرها فيما يلي : السفن ، البحار ، الفنار ، المرسى ، الطفووالرسوب ، والضفاف ، والموج ، والجزر ، والشواطيء ، والمخور ، الخ . فالشاعر اذن دائم السفر في بحار الشوق والثورة ، باحثا عن حلمه الضائع :

أحبيبـتي نـام الوجـود وبـات مشبوبـا فنـارى

وهو لا يكاد يفيق من حلم حتى يجنح على حلم آخر يحمله بعيدا عن واقع اليقظة الذي يذكره بهزيمته :

تالله ! تالله ! ما سافرت من حلـم الا عـلى حلـم ينمـو بيمنـانـا

ولكنه في سفره البعيد الحزين لا يتخلى عن ثورته ولا ينسى هموم الآخرين :

أنـا مـا أزال كمـا يشـاء لـي الضيـاء جنـاح ثـوره
يسمـو ويغـزل مـن مشاويـر السمـاء البكـر فجـره
الحـب فـي ريشاتـه السكـرى يطـوف بـه المجـره
هـم عـلى الجمـر انطـوى زاد عـلـى الأشـواق خمـره

* * *

تتميز لغة الغماري بالحيوية وأسلوبه بالتدفق وصوره الشعرية بالشفافية. ومن الصعب في هذه المجموعة التمييز في ذلك بين قصيدة وأخرى لأن القصائد، كما لاحظنا ، نظمت في وقت واحد تقريبا . فليس هناك قصيدة أخذت حقها من الصقل والتنقيح دون أخرى. واذا كانت السرعة مذمومة أحيانا فانها في الشعر قد تكون محمودة، لأن «حمى» الشعر تنفض صاحبها نفضا وتغرقه في بحر من العرق

والتوتر الى ان يفرغ ما عنده من مخاض. ولكن هذه العملية الشاقة لا تمنع الشاعر من العودة في لحظات «البرودة» والهدوء الى تنقيح ما كتب وتهذيبه بالنظر في الأوزان واختيار الكلمات ومراعاة الربط بين أجزاء القصيدة .

والغماري، كزملائه أصحاب المدرسة الجديدة، يربطنا بالحركة الأدبية في المشرق العربي. فأصحاب هذه المدرسة، رغم حديثهم عن الواقعية الوطنية من حيث الموضوعات، فانهم يظلون مرتبطين بالتطور الذي حدث للقصيدة العربية في المشرق . وهذا ليس أمرا غريبا اذا عرفنا أن الجزائر في عهد الاستقلال غيرها قبله في الاتصال بالمشرق وأهله. فقبل الاستقلال كان أدباء الجزائر يتصلون بالمشرق عن طريق الكلمة المكتوبة مع ندرة هذه الكلمة، وقلما كانوا يذهبون هم الى المشرق، أو يأتي أهل المشرق اليهم ، لذلك ظل انتاج المدرسة القديمة جزائريا محليا في جملته. أما أصحاب المدرسة الجديدة فقد انفتحت أمامهم أبواب المشرق العربي فكثرت لديهم الكلمة المكتوبة وجاءهم أهل المشرق الى بلادهم معلمين وأدباء ، وأتيح لكثير منهم هم أن يذهبوا الى المشرق طلابا وزائرين ، فكان هذا الاتصال وكان هذا التأثر الذي نلاحظه في انتاج أصحاب هذه المدرسة، ومنهم مصطفى الغماري .

ولعل نظرة الى بعض العبارات والألفاظ التي يستعملها الغماري تبرهن على ذلك . ففي مجموعته التي بين أيدينا كثير من الألفاظ والعبارات التي يستعملها المشارقة والتي لها دلالات خاصة عندهم، ومن ذلك «المشاوير»، وتشرين، ونيسان، ومواويل، ويلوب (بمعنى يحوم أو يلف) ونحوها .

واذا كان لكل واحد من أصحاب المدرسة الجديدة فارس ينطوي تحت لوائه (وهذا طبيعي في هذه المرحلة من تطورهم) فان فارس الغماري هو سليمان العيسي. ويعود هذا خصوصا الى طريقة تناوله للموضوعات وطريقة استعماله الصور الشعرية. ويكفي ان نعود الى النماذج التي ذكرناها لنحس بذلك بسهولة. .

ورغم ان الغماري قد اختار لمجموعته اسم (ألم وثورة) فإن القاريء لها يجد ان الشاعر يتألم أكثر مما يثور. فهمومه وأحزانه وغربته ومعاناته الخاصة أوضح من أدوات الثورة عنده. حقا انه يملك الايمان ويملك الحلم ويملك التحدي ويملك

الرفض، ولكن هذه الوسائل تظل تقريبا ذات معاني مجردة غائمة لا تدعمها بنادق ولا مدافع ولا حتى فؤوس الشابي. ويبدو واضحا ان الشاعر يستعمل الرمز، ولكن رموزه في آلامه وحرمانه أوضح منها في ثورته وتمرده .

ان الغماري سيفاجيء قراءه بما في مجموعته (ألم وثورة) من توتر وصور شعرية بارعة، وبما تنطوي عليه من طموحات ووعود عريضة .

ابن عكنون (الجزائر) ، 30 نوفمبر ، 1976 (1)

---

1) منذ كتابة هذه الكلمة (سنة 1976) ، أصدر الأستاذ **الغماري** عدة دواوين غير «**ألم وثورة**» .

مناقشات وَأحَاديث

حـول أرض المـلاحــم :

شعــرنــا يمثلنــا

منذ أيام قرأت في البصائر الغراء مقالا ـ منجما ـ بعنوان (أرض الملاحم) للصديق الأديب بلقاسم سعد الله، استعرض فيه صورا طريفة من تاريخ الملحمة، ومدى أهميتها في جميع العصور . وكان ذلك العرض مقتضبا اقتضابا أرجو ان لا يكون مخلا بالمقصود. وقد انتهى به المطاف الى لفتة عميقة نحو الواقع الشعري في بلادنا كانت نتيجتها مؤيسة لولا بارقة أمل فاتر كانت تلوح من خلال قصيدة (ذكرى 8 ماي) للشاعر أحمد معاش الباتني، حيث استنتج الصديق الأديب حكما ربما يوجع بعض شعرائنا البرجوازيين، وان كنت على يقين من انه برضى الواقع الجديد. ذلك انه حكم على شعرنا «بالقصور» وعلى شعرائنا «بالانعزال» أو الانطواء كما يقول الغربيون .

وانا في نفسي لا أكون متفائلا جدا بالحركة الشعرية اذا ما ناقضت الصديق الكاتب فيما ذهب اليه، ولا أكون متشائما جدا أيضا اذا ما تصاديت معه في الرأي والاتجاه .

على أني لن ابرح القلم دون ان اثبت للقاريء الكريم ملاحظتين يتبين خلالهما أهمية الموضوع وطرافته معا :

الأولى : ان دعوى قصور شعرنا عن الغاية البعيدة التي ترادله، والتي عبر عنها الكاتب بقوله: «ان شعرنا لا يمثلنا مهما تواضع وحمل الفانوس الى المغاوير» هي دعوى خطيرة ــ وان كانت فرضية على ما أظن ــ تحتاج الى دليل قوي يساندها. ولئن كان الكاتب قد وعد بأنه سيرجع للبيان ــ وانا الح عليه ان يسرع ــ فاني

أكاد أجزم بأنه يريد من قوله: «مهما تواضع وحمل الفانوس الى المغاوير» ان شعرنا لم يكن مرآة لما يجري في محيطنا الاجتماعي. ولم يكن صدى لانات الجرحى واحزان المشردين. أقول هذا وانا واثق من ان لي كثيرا من الدلائل على ان شعرنا قد نزل الى الميدان الواقعي، منذ سنين، وليس وجود أفراد ـ محنطين ـ يعيشون في مدنهم الفاضلة وابراجهم العاجية بضائر النزوع الشعري من حيث هو فن يتصادى ورغبة المجتمع الحديث. بل اني استطيع ان أقول : ان تلك الحركة قد نضجت فيها الروح الشاعرة المتالمة من جميع مظاهر البؤس التي تحدق بالانسانية في كل مكان حتى أصبحت ذات الوان متميزة قد استحالت فيها الأصباغ القومية الضيقة الى صبغة انسانية موجودة تتألم لآلم الانسان وتفرح لفرحه من حيث هو كائن حي ينشد الحركة والحياة المتمتعة .

وليست بي حاجة ـ الآن ـ الى ضرب الأمثال وتنسيق الشواهد فان الذي تتبع الحركة الشعرية عندنا من الفها الى يائها يظفر بتطور محسوس قد تجاوب ـ تدريجيا ـ مع مقتضيات العصر الجديد .

بيد أني لا أريد ان أغادر القلم دون ان أشير ـ بايجاز ـ الى النبضات الانسانية الدافقة التي تظهر في بعض آثار الشاعر الكبير أحمد سحنون ، والتي يمثلها أصدق تمثيل قوله :

رب ان الفقيــــــــــــــر اسلمـــــــــــه النـــــــــــاس
فــــــلا راحـــــــم لـــــه أو مجــــير

وقوله :

والحـــــــــــــــر ان سيـــــــــــــم خسفـــــــا
رام المقــــــــــــــــــــام القصيــــــــــــا

وقد نجد تلك النزعة تقوى وتأخذ شكلها الايجابي الواضح لدى الشاعر العبقري محمد العيد. استمع اليه وهو يلوح ويستحث الكسالى ويحذر الباغين أينما كانوا :

قـــــد رأينـــــا الشعـــــوب بالقيـــــد تمنـــــى
ثـــــم يمســـــى لهـــــا الفكـــــاك متاحـــــا

ورأينـــــا السجـــون تعمـــر بالأســـــــرى
وتخلــــى فينعمـــون سراحـــــا

ورأينــــــا الذيـــــن بالليـــــل نامـــوا
فأطالـــــــوا يستيقظـــــون صباحـــــا

أو هو يزمجر كالرعد الغضوب :

القلــــب بيــــت الـــرب فهـــو منـــــزه
عـــن ان تطيـــف بـــه يــد (استعمــار)

ان هذه الألوان القشيبة التي تبدعها ريشة شعرائنا لا تقل حركة وحياة وتصويرا للواقع الحزين أو الفرح، عن اخواتها الخالدات من الروائع العالمية التي رسمها العبقريون الملهمون .

وهناك ومضات أخرى تشع اشراقا وجمالا مرة وتفيض حزنا وثورة مرة أخرى تلمحها خلال آثار الشاعرين المجيدين : أحمد معاش الباتني وعبد الكريم العقون ، وغيرهما من المهتمين بنواحي النشاط الأدبي في بلادنا. ومن السهل على القاريء ـ ليتحقق مما كنت أقول ـ ان يعود بنفسه الى نتاج أولئك الشعراء ويستشف ما فيه من دفء وانطلاق وروعة، وان تكن لم تبلغ درجة الابداع، غير أنها تبرهن في غير تحرج على ان تلك الحركة الشعرية النزاعة الى التجديد لم تكن منعزلة أو قاصرة عن مسايرة الواقع بما فيه من مآس وافراح فكيف يصح ان نقول : «ان شعرنا لا يمثلنا مهما تواضع وحمل الفانوس الى المغاوير» .

الثانية : تحامل الكاتب على الشعراء جميعا، وتهمته أياهم بلا جترار وحفر القبور، ووصفه لهم بالانعزال والقصور الذاتي ، هي تعابير قد لا تخلو من استغراب ودهشة أو على الأقل قد تبعث في نفس القاريء الاسئلة الآتية :

أصحيح ان شعراءنا يعيشون منفصلين عن جسم الأمة؟ أمن الحق انهم لا يشاركوننا في أفراحنا وأحزاننا ؟ هل كان شعرهم يمثلهم في حدود ذواتهم فقط او يمثلنا بما نعيشه من اضطراب وفوضى؟ على ان تلك الأسئلة سرعان ما تتبخر من الذهن حين يعلم القاريء مقصد الكاتب. فان شعرنا ـ لديه ـ ذاتي يلف ويدور وكفى، وليس هو بالقومي أو الانساني المتحرر من عبودية الأشخاص ...

واريد هنا ان لا أخوض في الحديث مع الكاتب الأديب عن الذاتية والقومية والانسانية في الشعر حتى لا يمتد بي الطريق الى حيث لا اريد. ولكني أقول : ان ذلك الوصف (اعني الانعزال) لا ينطبق على جميع الشعراء لأن هناك من لا يزال يغذي صحفنا بما تجود به قريحته مستلهما الأحداث الشعبية والواقع المضطرب، امثال سحنون والباتني والعقون والأحمدي واضرابهم .

ولئن كان الخمول او الانعزال، كما يريد الصديق، قد سيطر على نفسية محمد العيد المأسوف عليه «حيا» ، أو على شاعرية مفدي زكرياء الجاني ـ بسكوته ـ على الأدب الجزائري ـ فليس معنى ذلك ان جميع الشعراء منعزلون كما يحلو للاخ سعد الله ان يعبر ...

أما التهمة التي تجعل شعراءنا أصداء لتغاريد الآخرين أو يبدون على مسرح الشعر بلباس الآخرين فاني لا اناقش الصديق فيها الآن بل ارجئها الى مناسبة أخرى عساها ان تتاح عن قريب .

ولا باس ان أسجل اعجابي بموضوع (ارض الملاحم) اذ هو كما قلت موضوع حيوي طريف جدير بالبحث والتعليق . وكل أملي ان لا يبطيء الصديق سعد الله بالعودة للبسط والتفصيل ، ليكفيني تبعة تلك الملاحظتين (*) .

(*) نشرت في البصائر بإمضاء ابراهيم الحمداني . (البصائر 264 ، 26 مارس، 1954) . وهو إمضاء استعرته للرد على نفسي. في الحقيقة ان ابراهيم الحمداني هنا هو أبو القاسم سعد الله. كما أن نفس الكلمة نشرت في مجلة الآداب باسم رشيد الخولي، وهو أيضا أنا».

الى الأستاذ رابح بونار :

حول النهضة الأدبية في الجزائر

أخي رابح بونار :

نعمت بقراءة كلمتك الطيبة المنشورة في البصائر (270) ، فاستهواني بحثك الطريف الذي قد تكون أول جزائري رسم فيه الخطوط وان لم تكن أول عربي. فقد كتب الدكتور شكري فيصل افتتاحية (الآداب) العدد الثاني السنة الخامسة ـ بعنوان : (القلق المنتج) يدعو فيه الشباب العربي الى ديمومة التوتر وعدم القناعة والرضى لأنهما ـ عنده ـ من أبرز آفات المجتمع العربي الذي يتمثل في الشباب الجديد ... ويخيل الى ان ذلك المقال كان مصدر ايحاء لموضوعك لما بينهما من اتحاد جذري وتقرير مبديء، وان اختلفا غاية. فاحدهما يدعو والآخر يقرر وهو يلتفت الى العلم وانت تلتفت الى الأدب وقد أستدل على هذا التصادي بالعنوان نفسه : فانت أبدلت لفظة(القلق) بالتوتر وعوضت لفظة (المنتج) بالنهضات الأدبية التي هي (الانتاج). وبعبارة أخرى قد استعملت انت المعنى المصدري، واستعمل هو اسم الفاعل، والنتيجة واحدة على كلا المعنيين .

على ان النقطة الأصلية في المناقشة ليست هذه، وانما هي تسرعك في اعطاء القيم والاحكام من غير نظر عميق الى الأسس والواقع ومن غير تتبع للمعالم التي قد ترشد الدارس الى عكس النتيجة التي انتهيت اليها .

ويبدو ان ذلك التسرع كان مرتبطا بسوء هضم المعاني التي يفيدها التوتر او التي تحصل لنا حدود التوتر النفسي. والمعروف في علم النفس ان التوتر اضطراب عصبي نتيجة اصطدام النفس بما لا تريده وهي عاجزة عن دفعه ، وما تريده وهي عاجزة

عن جلبه . ومتى كان ما تريده النفس وما لا تريده ينضبط بالزمان والمكان والشخص كما هو صريح تعبيرك

من هذه الزاوية ـ فقط ـ أردت أن أناقشك ، وهي كما ترى المصب الذي اندفق منه مقالك واليه يعود . وقبل أن أصحبك بالبحث أحب ـ لكي اركز مناقشتي ـ ان أسألك هذا السؤال : هل تعترف بأن التوتر حالة سرمدية دائمة بحيث تلازم حياة الشخص من لحظة انبثاقها الى لحظة نضوبها أو هو (فترات) متقطعة عابرة لا تستقر في حيز الانسان؟ وبلفظ أخصر، هل كان التوتر صفة ملازمة او صفة مفارقة؟ فان كانت الأولى، فلم تجزىء حياة امرىء القيس نتيجة الصدمة التي صحبت نعي أبيه وهو في آخر طور من حياته؟ انه ليس بصحيح ان تقول ونقول معك : كانت نفوس الشعراء الذين يمثلون هذه الحياة ـ الحياة الجاهلية الأدبية كالمهلهل وامرىء القيس وزهير والنابغة وطرفة ـ في قلق مؤلم وتوتر حاد واضطراب مربك قبل انتاجهم لقصائد بارعة ... وما هو هذا الاضطراب والتوتر والقلق الذي اعترى حياة هؤلاء فجعلها مأساة صاخبة؟ ان التوتر المنتج ـ أيها الأخ ـ هو التوتر الجماعي : اي توتر الضمير الكلي واما التوتر الفردي نتيجة حوادث تؤثر في المزاج الشخصي فذلك ظاهرة نفسية تحدث لكل منا في اليوم ألف مرة ... وتأثير الموت في امرىء القيس وتأثير الاهانة في المهلهل من القسم الثاني لا من الأول ... ولو سلمت لك ـ على المعنى الأول ـ لكان كل من مات أبوه أو أخوه أو أصيب بما انفعلت له أعصابه وكيانه ـ شاعرا أو ناثرا مبدعا. وهل يقول بهذا أحد ؟.

هذا كله اذا نظرنا الى السؤال السابق من الشق الأول. فان نحن تجاوزناه الى الشق الثاني. علمنا بداهة ان اللحظات النفسية المنفصلة تحدث اثرا صادقا جديرا بالبقاء ، ولكن هل في الامكان القول بأن ثمرات الفكر التي نضجت الا بدافع الانفعال النفسي هي ثمرات غير معبرة عن نهضة وحياة؟ او ليست حقيقة بالدرس والتقدير؟ ومعنى ذلك هل نستطيع ان نقول ان شعر امرىء القيس مثلا الذي أنشأه في طوره الأول والثاني ـ وهو أسير ما قال واخلده ومنه المعلقة . شعر بعيد عن الصدق والخلود لأنه لم يقله بعد النكبة أي بعد التوتر النفسي كما تقول ؟.

ان الانتاج الفني يتوقف، لكي يكون ساميا، على التوتر، ولكن الذي يجيء

اثناءه يكون أغنى وأخصب وأقدر على الاستقرار وقد رأيتك تقول في كلمتك : «ومنها (أي الأمثلة) النهضة الأدبية في صدر الاسلام، فقد أفحم الشعراء أول الأمر ببلاغة القرآن واصيبوا بنوع من الذهول والحصر ... وبعد مرور فترة من التوتر والقلق والحيرة تفتحت النفوس الشعرية من جديد بصورة اخاذة في طائفة من الشعراء البارزين كجرير والفرزدق والاخطل ... الخ» ومتى كان هؤلاء الثلاثة من الذين «افحموا ببلاغة القرآن ثم تفتحت نفوسهم من جديد»؟ ان المعروف من تاريخ الأدب ان ثلاثتهم عاشوا في بيئة اسلامية خالصة ولم يصب واحدا منهم رشاش الانتكاس . ومع اني أشك في ان تكون قاصدا هذا ولكن كلامك صريح فيه فما نصنع ؟ .

ولقد اعجبت بما قلته عن مذهب المنفلوطي ومزجه بين القديم والجديد، ولكني رأيت قلمك يعتبط الاحكام في نهاية الرواية. والا فمن أولئك الذين اقتفوا اثر هذا المذهب في القصة والملحمة والرواية المسرحية ؟ اني استبعد جدا ان يكون مذهب المنفلوطي ما يبرح قائما بيننا حتى الآن في النثر العادي المطلق كالمقالة فضلا عن ان يكون له حظ في الفنون الجميلة الحية كالقصة والملحمة والمسرحية التي تطورت تطورا محسوسا في الحاضر الأدبي والتي هي وليدة جديدة في الأدب العربي انضافت اليه من احتكاكه بآداب الغرب. ومثل هذا رأيي في مدرسة شوقي الشعرية ...

أما قولك في النهضة الجزائرية انها «قد اجتازت التوتر المذكور ثم اندفعت في ميداني النظم والنثر بين التقليد والابتكار ...» فهو طفرة عاطفية قد تبعث الارتياح في النفس على مصير الأدب في الجزائر ولكنها لا ترضى الواقع المؤلم الذي يعيشه الفكر الجزائري في جميع مظاهره. وهل يمكن ان نعد تلك النفثات الشعرية أو النثرية الصحفية التي تظهر على (البصائر) ـ وهي المظهر الوحيد المعبر عن الأدب الجزائري ـ نفثات ابداع واجادة وعبقرية ؟ اللهم إلا اذا قصدنا مغالطة الواقع وخداع أنفسنا الظمآى إلى أدب جزائري ثائر خلاق ... أو كنا من المتفائلين الذين يدفعون حرارة الشمس بالغربال كما يقول المثل .

وها انت نفسك تهدم ما كنت تبني فيتناقض كلامك من حيث لا تشعر

فبعد كلامك السابق عن النهضة الجزائرية تقول : «وسيكون للازمة التي يعانيها الأدباء والتوتر النفسي الذي يبث القلق ويدفع من آن الى آخر أديبا من الأدباء الى الاستصراخ والاستفزاز نتائج باهرة ...» فكيف يتلاءم هذا مع ذلك وقد كنت تقول : ان النهضة عندنا قد اجتازت التوتر واندفعت في الميدان .

وبعد، فهذه مناقشات خفيفة دفعني اليها اخلاصي للأدب والتاريخ . فان كانت سديدة فارجو ان تتقبلها، وان كانت خاطئة فارجو ان تصلحها ... والسلام (*) .

(*) البصائر 275 (18 جوان ، 1954) وقد نشرت بالتوقيع التالي : بلقاسم القماري سعد الله عضو رابطة القلم الجديد . وكنت عندئذ ما أزال طالبا في جامع الزيتونة بتونس .

إلى الأستاذ هنري صعب الخوري :

حول اسطورة (المروحة)

نحن، ابناء المغرب العربي ـ لا سيما في هذه الفترة ـ لا نحفل كثيرا بالاجواء الشعرية المنسرحة، ولا بالتسابيح والاخيلة المتواثبة على غير هدى(1). والعلة تعود الى شيء صميم عميق في نفوسنا ، ونحسب ان كل العرب يعيشونه بنفس الصميمية والعمق اللذين نعيشهما. فأولا، ان ذلك الشعر الطائر، لا يمكنه ان يشحن أكياسنا بالرصاص، ولا ان يقف في طابور الكتيبة المهاجمة. وثانيا، انه ليس شعبيا : ينبع من روح الشعب، وينطق بلسانه ، ويصور حياته، بكل وفاء ودقة ووضوح. وثالثا، انه ـ لبعده عن الواقع الشعبي ـ لا يعبر بل يصف، ولا يهبط بل يطير . والفرق بين هذه المعاني واضدادها ، كالفرق بين من يخوض المعركة ، وبين من يقف متفرجا، وعيناه الى السماء! .

ان أكثر الشعراء الغربيين ـ ومنهم (اليوت) نفسه ـ يعبرون عن ترف حضارة غامر، قد فاضت به صالونات العواصم الكبرى، وهذبه الذوق الناعم، والحس الخليع . فأية نسبة بين مستقى أفكارهم ، ومستقى أفكارنا ؟ اننا نكتب حياتنا بدمائنا ودموعنا وعرقنا، وهم يكتبون حياتهم بماء الفيشي وعصير (البوم) ومحلول الورد الأخضر ..! ودعك من (الانسانية) يا أخي، فهي كلمة خداعة جدا .. لا سيما في هذه الأيام .

ولذلك فنحن نحب نزار قباني حد الاعجاب، ومحمد العيد والشابي وسليمان العيسي وغيرهم ممن عرفوا الطريق الى قلب الشعب، أكثر مما نحب السياب ونازك الملائكة وصلاح عبد الصبور ـ مع احترامي للجميع ـ .

1) هذه النقطة موضحة في بحث عن (الادب والثورة في الجزائر) سيظهر قريبا. (تعليق في الأصل) .

والشعب أصلا هو مصدر التقييم لأي لون شعري في كل عصر ، ولذلك فالشعب العربي عندما يقرأ للشاعر الجزائري محمد العيد :

بلادك في الدنيا تلادك فارعها وحاذر على اكنافها ان تروعا
وأرضك في الأوطان أمك فاحبها ببر ففي أخلافها عشت مرضعا
حياتك حرب للضعيف فكن بها قويا أبيا ان تذل وتخضعا

أو يقرأ له عن فلسطين :

قل لأبن صهيون : اغتررت فلا تجر ان ابن يعرب ناهض للثار
اعرضت عن خطط السلام موليا فوقعت منها في خطوط النار
سترى أمانيك التي شيدتها منهارة مع ركنك المنهار
لا تحسبن بأن صبحك طالع فالبدر ـ ويحك ـ خادع للسار
القدس لابن القدس لا لمشرد متصهين ومهاجر غدار

لو قرأ الشعب العربي هذا الشعر ومثله (لمحمد العيد)، لكان له من الوقع، بل والايجابية ، ما لم يكن لعشرات القصائد التي تحفل بها مجلاتنا الوطنية! .

وقد تسأل عن علاقة هذا بموضوعنا . ولكني ابادر فأجيبك : بأني من الداعين المتحمسين الى شعبية الشعر ـ ان صح التعبير ـ فكما لدينا شعر (جميل) يفوح بالعطر والياسمين. وينبض بالحنان والحب، ويحلم بالحور والنور ـ كذلك يجب ان يكون عندنا ـ نحن العرب ـ شعر (قبيح) يتنزى دما وقيحا وينفث سما وبارودا، ويقطر الما وحقدا .

ولست أدري لماذا تنزل القصة إلى الشعب ، ويتواضع الأدب ، بشتى فنونه ، للذوق العام، في الوقت الذي يبحث فيه الشعر ـ العربي طبعا ـ عن الكنايات، المعمقة، والحشرجات الموسيقية، والاخيلة المجنحة؟! .

لعلك تذكر حديث النقاد ، في نفس هذه المجلة (1) ، عن وظيفة الأدب ، ومنه الشعر ـ حين أثيرت مشكلة الالتزام في الأدب ، وحددت سمات هذا الأدب ومداه وفاعليته وهدفه. ولكن ذلك الحديث الطويل (القيم) ذاب كما تذوب

1) (الآداب) السنة الأولى والثانية . (تعليق في الأصل) .

معاني خطبة سياسية مشتعلة القاها زعيم في حشد شعبي جاهل! وبقي الشعراء يطلون من كوى تختلف عمقا وحجما، فمنهم من يبدي عينيه ومعقد حاجبيه ويخفي أنفه خشية الأروحة المخنقة، وفمه حذار اسراب الذباب المتكثرة في جو العالم العربي. والشجاع البطل منهم هو الذي استطاع ان يبرز رأسه من الكوة، ولكن بعد ان وضع عليها قبعة كثيفة مستعارة : قبعة (اليوت) أو (شيلي) أو لوركا)...

لقد جربت الشعب يا أخي .. جربته وهو يئن تحت سياط (اسياده الفرنسيين) ثم هو يحثو الرصاص في صدور (اعدائه الفرنسيين) .. جربته في (الأطياف ـ والطريق ،ـ والجمال الحالم ـ والاحتراق ـ وانشودة الحقول ـ واليأس) (1) ...

ولكن تجربتي معه في (الطين) حين قلت للثائر، كل ثائر في أوراس وجرجرة وكل الأطلس :

يا أخي الضارب في دنيا الكفاح	أيها الساخر من عصف الرياح
انـك اليـوم رسـول للفـلاح	فخـذ الحـق اغتصابا واكتسـاح
أيها الـرابض في تلـك البطـاح	. . . .

تجربتي هذه المرة معه كانت عظيمة لم ار مثلها ولا يمكن ان ارى مثلها في مستقبل الأيام . وحتى الحكومة الفرنسية نفسها قد جن جنونها ، فأسرعت الى (البصائر) (2) ـ التي نشرت القصيدة ـ وحطمت أجهزتها ، وشمعت مطبعتها ، وأصدرت أمرا بغلقها إلى الأبد .. لماذا ؟ لأن الجريدة تحدت إرادتها العلية بنشر هذا الشعر وغيره ! .

ولا اريد ان أطيل عليك، فانا ـ كما قلت ـ من رأيي، ان ينزل الشعر الى المستوى الشعبي كما نزلت كل فنون الأدب . وقد بدأت تمنح الجمهور أكلها ، لا سيما القصة . والحق أن هذه المسألة ـ الأدب للشعب ـ لم تصر واضحة المعالم بعد. بل ما تزال مكتنفة بالغموض ، شأنها في ذلك شأن كل فكرة جديدة .

---

1) عناوين لقصائد نشر بعضها في (الاسبوع) التونسية ، وبعضها في (البصائر) الجزائرية. (تعليق الأصل)
2) البصائر عدد 361، السنة التاسعة، سنة 1956. (تعليق الأصل) .

وأعود بك الى اسطوة (المروحة)(1) .. هذه الأسطورة التي تحكي قصة الحمل والذئب كما يقول الأستاذ سامي الدروبي. لقد نظمتها على الأسلوب الذي اخترته لنفسي وانتيهت اليه بعد تجربة طويلة ومريرة. وهو نفس الأسلوب الذي استخدمته في (ثائر وحب)(2) وفي (الطين) وفي (الى الأطلس) ان قدر لها ان تراك وتراها .

وهذا الأسلوب يقوم على : 1 ـ الاندفاع والحيوية. 2 ـ النغم الموسيقى. 3 ـ استعمال الألوان المضببة . 4 ـ الاثارة عن طريق الطبيعة النفسية .

وهي ركائز تحافظ على (الأصل) الشعري، في الوقت الذي تتعمق الناحية الانسانية : من عاطفة، ووجدان، وارادة، وحواس .

لقد قلت في تعليقك على «المروحة» (اعترف للشاعر بأني قرأتها مرارا ، وفي كل مرة كنت أخرج منها ومحصولي الشعري لا يزيد على بعض لمع متناثرات) .

إنني لا أندهش حين أجد كلمة «مرارا» تمهد لضآلة محصولك الشعري من القصيدة. كذلك لا أندهش ان تعاني كل هذه «المرار» بحثا على محصول شعري تخرج به وفي يدك دليل الجهد والعناء .. ولكن الذي ادهشني حقا هو«تعليلك» لذلك الفراغ وتلك الضآلة. حيث تقول : «والعلة في ذلك تعود الى : (ان القران اللفظي) . او (البناء على طريقة الشعر الحر لم يستكمل عدته بعد ...» .

انني أوافقك على ان محصولك الشعري سيكون ضئيلا، وضئيلا جدا ، ما دمت تعتمد في البحث عنه «القران اللفظي» أو «البناء» من القصيدة ! ويلذلي ان أسألك : هل كل ما نطلبه من الشعر ـ ليكون لدينا محصول شعري ضخم ـ هو ان يستكمل عدته من «القران اللفظي»؟ ثم ما هو هذا القران اللفظي الذي تعنيه؟ لقد كان يجب ان تبرهن على ما تقول !.

انك نفسك غير مطمئن للسبب الذي سقته .. انك شاك ومتردد في ان يكون هو «القران اللفظي» «أو البناء» والا ، فما معنى هذه «الأو» اذن؟! .

الآداب (5 ـ 5 ـ 56). (تعليق الأصل) .

نفس المصدر 3 ـ 3 ـ 56 . (تعليق الأصل) .

وانا لا يسعني كثيرا ان اتهمك بأنك لم تقرأ القصيدة «مرارا» أو «مرة» ولكن الذي يهمني قولك بعد ذلك مباشرة : فجاءت الصور باهتة في أماكن ومشرقة نوعا في أماكن أخرى» والقاريء البسيط يدرك معنى «الفاء» من فجاءت ، ويحكم لأول وهلة، من هذا التسلسل الشكلي، والترتيب السببي للجمل انك لا تطلب الا اللباس المشوق للقصيدة .. وأنت ــ شخصيا ــ حر في وجهة نظرك هذه ، الا أنك ــ كناقد ــ يجب ان لا تهمل الناحية النفسية والزمنية، بل والايجابية للقصيدة.

ثم قلت : «خذ القسم الأول، ثم خذ : هذا القسم الذي خرج فيه الشاعر عن الوزن وكسر رقبته ..» والذي يظهر لي انك تلقى الفاظك غير (موزونة) فأنا لم أخرج عن الوزن. وغاية ما ارتكبته هو (قصر) بعض التفعيلات من الرمل. و (القصر) ليس خروجا عن الوزن، ولكنه (علة نقص) . ولست أناقشك في جواز هذا «القصر» أو عدم جوازه ما دمت أنت قد تفطنت اليه : ولكن لا أسلم اليك أنه (قبيح) لأن هذا التقبيح منك (خوري) صرف .

وان القاريء ليعجب، اذ تأمره بان يأخذ القسم الأول ... الخ حتى اذا امتثل (للأمر) وأخذ ، لم يجد من دليل على ظلام بعض الصور ، واشراق الآخر سوى حديثك عن (النون) المكسورة وكيفية علاجها ...

والحق اني أجد نفسي مضطرا لسؤالك : هل كل ما نطلبه من الناقد الشعري، ان يعالج الأوزان ويفحص القران اللفظي للنصوص الشعرية؟ وهل كل ما نطلبه من الشاعر ان يجيد الباس شعره دمقسا وحريرا ونرجسا واقاحا، حتى تكون صوره على غاية من الرشاقة والاشراق؟! .

اني يا أخي ــ كعربي جزائري يعيش بعمق قضية وطنه ــ انظم الشعر ليكون تحية لثائر ، أو وصفا لموقعة ، او استلهاما لنكبة أو أسطورة ، أو تمجيدا لبطل رفع راية الكفاح العربي الدامي على قمم الأطلس الشامخة .

وبالتالي ، انظم الشعر ليكون رصاصا يخترق صدر العدو، لا لوحة فنية في دار الآثار ! ...

(*) مجلة الآداب (بيروت) عدد يوليو ، 1956 ، ص : 58 ــ 59 . وكنت عندئذ طالبا في جامعة القاهرة

إلى الأستاذ علي الحلي :

حـول (المروحة) أيضـا

الأخ الكريم الأستاذ علي الحلي ثائر متحفز (*) ، وهو في ثورته وتحفزه لا يعني شيئا سوى أن لسان حاله يقول : اني أستطيع أن أبارز وأن أغلب وأن أحطم .. وقد يكون في نفسه كذلك، وقد يكون انسانا آخر هادئا متزنا مضبوطا، ولكنه على كل حال لم يضرب مثلا واحدا على أنه ذلك الانسان. وآية ذلك أنك لو سألته عن سبب هذه الثورة وهذا التحفز لأجابك كلامه بأنه لم يستطع صبرا ازاء (الاهانة) الموجهة الى الأستاذ شاكرا السياب بفصله عن قافلة شعراء الشعب، وعملقة الأستاذ نزار قباني مكانه ، ولذلك تفضل علي الأستاذ الحلي فعرفني بالشاعر العربي المكافح الملهم القومي .. بدر شاكر السياب، ووضع امامي باقة من ازهاره الحسان، وطلب مني أن أشم، وأن أغرق أنني في الرحيق .. والا فانا مزكوم، أو فاقد لحاسة الذوق الفني ! .

ولست الآن في معرض الدفاع عن نزار قباني ولا عن صلاح عبد الصبور او نازك الملائكة فان لكل منهم لسانه الطويل وقلمه الأطول .. وانما أحب أن أسوق الجملة التي أثارت الأخ الحلي بهذا الصدد، وهي: «نحن نحب نزار قباني حد الاعجاب ومحمد العيد والشابي وسليمان العيسي وغيرهم ممن عرفوا الطريق الى قلب الشعب أكثر مما نحب السياب ونازك الملائكة وصلاح عبد الصبور..» ومن لي باقناع الأستاذ الحلي بأن هذا الكلام لا يعني اطلاقا، التضحية بأحد هؤلاء الشعراء علىحساب الآخر ؟ انني لست مفاضلا ولا منتصرا لأحد، ولكني كنت أقرر حقيقة واقعة لا مناص من البوح بها. ولوكان الأمر للاستفتاء والارقام، لكانت النتيجة رائعة حقا .. ان نزار قباني يعتبر مدرسة قائمة بذاتها في شعرنا العربي

(*) نشرت بمجلة (الآداب) ــ بيروت ــ ، سبتمبر ، 1956 . وكنت ما أزال طالبا في جامعة القاهرة .

الحديث ، سواء في ذلك الشكل والمضمون . ولئن اقتصر أكثر شعره على جانب واحد من المجتمع العربي وهو المرأة، فان ذلك لا يقلل من أهمية هذا الاتجاه سيما وأن المرأة في الفترة العربية المعاصرة تعد منبعا ثرا بالوحي والعطاء. وما أظني أقصد التحدي حين أدعوك الى مقارنة (خبز وحشيش وقمر) أو (قصة راشيل) لنزار قباني ـ وهما غير نسائيتين ـ بما تشاء من أشعار الأخ السياب ، ثم أنظر أي الرجلين أكثر قراءة وتأثيرا .

وصحيح أن الأستاذ السياب أكثر تنوعا من حيث التناول الا أنه ـ فيما يبدو ـ لا يفكر في الجيل القاريء، وانما يستمع الى دقات الأجراس في واعيته هو، ومن هنا كانت صوره متداخلة في أغلب الأحيان، وموسيقاه ترتج أكثر مما تنساب .

ولقد حاول الأستاذ الحلي أن يجرني الى الحديث عن الأدب الشعبي مرة ثانية، وأن يطلعني على ما يجري في العراق من ادعاآت وزخارف باسم الشعب ولكنه في هذه المحاولة يبدو غير موفق. فأنا لم أدع أني وضعت خططا معينة للادب الشعبي ولا للشعر الشعبي ولم أجبه القاريء بقيم استبدادية مخيفة، ولم أفرض رأيي على أحد، حتى يقول الأخ الكريم : «ولكني أشهد أني اليوم أمام آراء مخيفة وقيم استبدادية في الاتجاه الأدبي بما يعرضها علينا الأخ أبو القاسم .. وغاية ما قلت : «ان الأسلوب الذي اخترته لنفسي يقوم على :

1 ـ الاندفاع والحيوية 2 ـ النغم الموسيقي 3 ـ استعمال الألوان المضببة . 4 ـ الاثارة عن طريق الطبيعة النفسية، وهي ركائز تحافظ على الأصل الشعري في الوقت الذي تتعمق الناحية الانسانية من عاطفة ووجدان وارادة وحواس .. بل اني قلت بصدد الحديث عن الأدب للشعب : «والحق أن هذه المسألة لم تصر واضحة المعالم بعد ، بل ما تزال مكتنفة بالغموض شأنها في ذلك شأن كل فكرة جديدة» فأين هي الآراء المخيفة او القيم الاستبدادية التي تطالعك من هذا الكلام يا أخي؟.

وتمتد ثورة الأخ الحلي الى (المروحة) فيقول : فالقصيدة ذاتها أعني «المروحة» محملة بأشياء كثيرة متضادة بالألفاظ والأحاسيس المترفة والارتعاشات الناعمة المنسرحة.. الخ. والرجوع الى الجو الأسطوري للقصيدة نجد أن طبيعة الحكاية

تقتضي هذه المشهيات والمغريات الوجدانية، وموسقة البداية لتعد الحواس للتفاعل والمنح، وعندما تجيء الاندفاعة يحدوها النغم الحاد الجارف تكون تلك الحواس قد تهيأت طبيعيا الى الالتذاذ بمعطيات الخيال الملون، حتى اذا جاء القرع الارادي الزاخر بالمنبهات والدغدغات، كانت التجربة قد شارفت النهاية، وأدت للحواس حرارتها واشبعتها لذة وانفعالا. ولذلك كان المقطع الأخير هدهدات حائرة يمكن ان تكون ازعاجا قاتلا أو طمأنينة ناعمة حيه. هذا هو باختصار التسلسل التجريبي في الأسطورة .

والحكم بنجاحه أو فشله ليس لي ولا لك وانما هو للقاريء والناقد معا . بقي أن أشير الى شيء ، وهو أني أقر الأخ الكريم على جمود عبارة «صاحب الأمر العلي» اذا عدنا بها الى التاريخ وفصلناها عن الحكاية. ولكني لا أقره على أنها بقيت كذلك حين استعملت في مكانها من القصيدة، لأنها كالوثيقة التاريخية يجب أن تثبت كاملة أو تحذف أصلا، ويبدو أن اثباتها اكسبها رعشة وحرارة اضافتا عمقا جديدا الى العنصر الأسطوري. وقد كان التعبير «الكلب تنكر للكلبة» شائعا وسخيفا ولكن حين استعمله الأخ السياب في احدى قصائده ـ أظنها أغنية في شهر آب ـ أسبغ على جوها ملمحا طريفا فكها. وأما عبارة «في يد الدالي المتوج» فأرجو أن تقرأ هكذا «في يد الداي المتوج» لأن اللقب كذلك .

واحب أن أطمئن الأستاذ الحلي على شيء جعله هو حصيلة مناقشة، وهو أن آرائي ونظرياتي لا ترفض الشعر الجاهلي ولا الشعر العباسي ولا حتى المعاصر بل في حرارة الى تعمق حياتنا، وبعثها بعثا قوميا عربيا حرا تجابه به الاصطراع الدامي الذي يكتنفها من كل جانب .

وبعد، فأنا أيها الأخ أتقبل المناقشات الحرة بنفس الروح التي رجوتني أن أتقبلها بها شرط أن يكون صاحب هذه المناقشات مزودا بالسلاح والذخيرة ! .

وتقبل تحياتي وشكري . أخوك :

آفاق الأدب في المغرب العربي (*)

السؤال الأول : ما هو تأثير الأدب الفرنسي في الأدب الجزائري .

أ) في الأدب الجزائري الذي اتخذ العربية أداة للتعبير .

ب) في الأدب الجزائري الذي اتخذ الفرنسية أداة للتعبير .

الجواب(أ) : أعتقد أن الأدب الجزائري العربي في مجموعه ينبع من تجربة الشعب الجزائري أولا ومن تجربة الشعب العربي ثانيا ومن تجربة العالم الثالث ثالثا، أي أنه تعبير عن مرحلة التحرر وتشييد الاستقلال. ومن هنا يتضح بأن تأثير الأدب الفرنسي عليه فيما يبدو تأثير سطحي . ذلك أننا نعلم أن معظم الكتاب بالعربية دخلاء عن الفرنسية أي عن الثقافة الفرنسية ، ومن جهة أخرى يشعر هؤلاء الكتاب نفسيا وقوميا بأن علاقتهم بلغة وثقافة المستعمر هي علاقة غير فكرية أو ايديولوجية ولكنها علاقة اضطهاد ولذلك يظهر لي أن ألادب العربي الجزائري في عمومه أيضا هو أدب وطني قومي أصيل .

واذا كان لا بد من الاشارة الى التأثير هنا فمن المؤكد أن الكاتب، مهما جهل لغة أو ثقافة المستعمر، لا يستطيع أن يعزل نفسه عن قرن وربع قرن من التسلط الحضاري الأجنبي على وطنه، فاذا أخذنا في الاعتبار هذه العلاقة بين الكاتب

(*) مجلة (القبس) عدد 5 السنة الثالثة ،مارس ، 1969 . انعقد في طرابلس (ليبيا) خلال شهر مارس 1969 مؤتمر كتاب وأدباء المغرب العربي . وشاركت فيه وفود من الجزائر والمغرب وتونس وليبيا . وقد ترأست وفد الجزائر ، وعند عودة الوفد أجرى معي الأستاذ محمد الصغير بن الأعلام ، رئيس تحرير مجلة (القبس) عندئذ هذا الاستجواب ونشره في التاريخ المذكور .

والمستعمر فهمنا لماذا لم يتأثر الأدب العربي الجزائري تأثيرا مباشرا بحضارة المستعمر. غير أننا نجد في كتابات (حوحو) وبعض الذين أتقنوا لغتهم الأصلية أولا ولغة المستعمر ثانيا بعض التلقيح من طريقة التفكير الفرنسية، ولكن يجب الحذر هنا، فالتأثير مازال تأثيرا غير مباشر، أعني أن الكاتب في هذه الحالة يحاول أن ينقل الى قرائه بعض أفكار الآخرين بقطع النظر عن اللغة التي كتبت بها هذه الأفكار.

ويمكن بهذه المناسبة أن نقول بأن الأدب الجزائري العربي متفتح ومتسامح أكثر من الأدب الجزائري، المكتوب بالفرنسية. فالكتاب بالعربية لم يكونوا مرتبطين بلغة أجنبية معينة، فهم يقرأون المترجمات عادة سواء كانت من الفرنسية أو الانجليزية أو الروسية أو من غيرها من اللغات، ولذلك فهم في نظري أكثر عالمية في تفكيرهم من زملائهم كتاب اللغة الفرنسية، وتظهر هذه النزعة نزعة العالمية المعتمدة على التجربة الإنسانية مهما كانت لغتها في إنتاج الأساتذة عبد الله ركيبي، والجنيدي خليفة، وأبو العيد دودو، وغيرهم ممن يمكن أن نسميهم بجيل أدب الثورة وما بعدها.

(ب): أما فيما يتعلق بالأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية فيظهر من النماذج الموجودة حتى الآن أنه أدب يخضع لتأثيرات ثقافية معينة وهي الثقافة الفرنسية، حقيقة أن أصحاب هذا الأدب يقرأون بالفرنسية تجارب الآخرين الأدبية مترجمة أيضا، ولكن يبدو لي أن سيطرة التفكير الفرنسي متغلب على هذا الاتجاه. غير أن قضية التأثير (اذا كنتم تقصدون بالتأثير طريقة الحياة الثقافية عند شعب ما) تبدو بديهية. ومن المعروف أن الثقافة الفرنسية عامة ضيقة الأفق اذا قيست بالثقافات الأخرى، وأقصد بذلك أنها ثقافة متعالية متكبرة (اذا صح التعبير) يعتقد أصحابها، عن حق أو غير حق، ان العالم كله مدين لها، وهذه النظرة تتنافى في نظري مع التجربة الانسانية الكبرى، اذ لا تستطيع ثقافة ما أن تزعم بأنها أم الثقافات.

ويبدو ان هذه الروح، روح التعالي والتكبر داخل ثقافة معينة، قد أثرت على الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية حيث نسمع من وقت لآخر من يقول بأن الكتابة بالفرنسية هي أفضل أنواع التعبير. ويبدو خطر هذا الاتجاه في علاقة الفرنسية بالعربية في الجزائر بالذات، لأن بعضهم ما زال يعتقد أن علاقة هاتين اللغتين

(الفرنسية والعربية) هي علاقة تعالي وتكبر ، أي علاقة مستعمر بمستعمر، وما دامت العربية هي لغة المستعمر (بفتح الميم) فيجب أن تكون منحطة أو متأخرة وبالتالي يجب استعمال الفرنسية لغة أم الثقافات .

وكان من الممكن أن يعكس هذا السؤال فيقال مثلا :

ما هو تأثير الفكر العربي على الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية؟

لأن من يكتب بلغة ما يشعر بأنه جزء منها ومن حضارتها ومن طريقة حياة أهلها، فلا يمكنني أن أكتب بالعربية دون أن أشعر بأنني عربي .

السؤال الثاني : هناك من هؤلاء الكتاب (أعني الكتاب الجزائريين باللغة الفرنسية) من يقول بأن بالفرنسية قد فرضت علينا فرضا وأننا أرغمنا على الكتابة بها، فما رأيكم في هذا القول ؟

الجواب : لا شك أن كل جزائري كان يشعر في وقت من الأوقات بأنه مضطهد وأن أشياء كثيرة قد فرضت عليه فرضا من بينها اللغة. وقد كان ذلك طيلة عهد الاستعمار، واذا شئتم فذلك هو معنى الاستعمار، أي أن يشعر المواطن بأنه يعيش حياة مفروضة عليه فرضا. اذن هذا القول صحيح من الناحية التاريخية، فقد كنا محرومين من الجنسية ومن حق المواطنة ومن الثقافة القومية وغير ذلك من عناصر السيادة .

ولكن ذلك العهد في نظري قد انتهى فنحن الآن بلد مستقل يتمتع بالسيادة لا في السياسة فقط ولكن الثقافة أيضا ، أو على الأقل هذا ما يجب أن يكون . واذن فالقول بفرض الفرنسية حاليا ليس صحيحا من الناحية الواقعية، فالجزائر مستقلة منذ سبع سنوات وكان يمكن لأي جزائري غيور عن تراثه ولغته أن يتقن هذه اللغة حتى يندمج في الشعب وبالتالي يفهم حضارته القومية. وانت اذا ذهبت مثلا الى بلد أجنبي ما فستبقى مدة تقل أو تزيد عن ستة أشهر قبل ان تبدأ في الحديث والكتابة بلغة ذلك البلد الأجنبي، ما دامت لك الرغبة في ذلك. واعتقد أنه كان وما يزال في امكان الكتاب الجزائريين بالفرنسية أن يتعلموا لغتهم القومية في أقل من تلك المدة لو كانت لديهم الرغبة في تعلمها ، واذن فالادعـاء

بأن الاستعمار قد فرض لغته فرضا هو تعلة أو تهرب، أو سمه ما شئت ولكن على أية حال فهو ادعاء غير واقعي .

السؤال الثالث : ما هي في نظركم قيمة وانتماء الأدب المكتوب بالفرنسية في الجزائر ؟

الجواب : كما تعلمون أن هناك صنفين من هذا الأدب، الصنف الذي كتبته العرب والصنف الذي كتبه الفرنسيون، أما الصنف الثاني فهو في نظري فرنسي وان كان قد صبغ في الجزائر.

وأما الصنف الأول فيجب في نظري اخضاعه لمقياس معين وهو علاقة الأدب بالوطنية والقومية. فاذا قلنا مثلا بأن لغة الشعب الجزائري القومية هي العربية فمن البديهي أن أدبا مكتوبا بغير هذه اللغة، مهما كان قائله، هو أدب غير قومي. أما اذا قلنا بأن اللغة لا تشكل جزءا أساسيا في القومية (وهذا ما لا أعتقده) فيمكن أن نقول بأن هذا الأدب أدب قومي ، على أساس أن الذين كتبوه ينتمون الى وطن ما .

وعندي أنه يجب أيضا التفرقة بخصوص هذه النقطة بين وصفين وهما «جزائري» و «قومي» فالأدب المكتوب بالفرنسية يمكن أن يقال بأنه «جزائري» على أساس الأرض الذي ولد فيها، ولكن لا يمكن في نظري أيضا أن يقال عنه بأنه أدب «قومي» اذا كنا نعني بالقومية الكيان الحضاري للأمة الذي تشكل اللغة قاعدة أساسية فيه .

السؤال الرابع : ما هو رأيكم في الالتزام الأدبي ؟

الجواب : الالتزام تعبير كثر الخوض فيه، ولكن يمكن أن نقول، باختصار، بأنه طريقة أداء أخلاقية يلزم بها الكاتب نفسه اقتناعا بها دون تأثير خارجي . طبعا هناك أنواع من الالتزام، فهناك الالتزام الأدبي، والالتزام المذهبي، والالتزام الحزبي، وغير ذلك من أنواع الالتزامات، ويمكن لكاتب ما في نظري أن يلتزم بموقف معين في ظرف معين ثم يلتزم بموقف آخر في ظرف آخر اذا كانت أخلاقيته وضميره مقتنعين بذلك .

السؤال الخامس : هناك سؤال ملح عن حرية التعبير في اطار الالتزام فكيف ترون ذلك ؟

الجواب : لا شك أن هناك علاقة وطيدة بين الالتزام والحرية، فالالتزام الذي ذكرته (أي الالتزام الاخلاقي الانساني) يجب أن يكون حرا ذاتيا، وكما عبرت سابقا يجب أن يكون بدون تأثير خارجي . أما اذا كان هناك ما يسمى بالالتزام المقيد بحزب ما أو بالولاء لشخص ما أو بخدمة مذهب ما دون حرية واقتناع شخصي فهذا في نظري الزام وليس التزاما . والالزام اضطهاد وكبت لطاقة الانسان الخيرة المنتجة .

السؤال السادس : في اطار هذه المباديء التي حددتم بها الالتزام هل في الجزائر كتاب ملتزمون ؟

الجواب : الواقع أن هذا السؤال محرج نوعا ما . ولكني أعتقد أن الجزائر لم تخل ولن تخلو من كتاب يطبقون مبدأ الالتزام، كما عرفته، على أنفسهم. فقد مرت الجزائر بتجارب مختلفة وعبر شعراؤها وأدباؤها عن هذه التجارب بتفاوت ، فهناك من كتب بدون ضغط عن هذه التجارب وبالتالي فقد التزم أخلاقيا بموقف معين ، واذا كان لابد من الأسماء فانه يبدو لي أن الشاعر محمد العيد قد التزم بخط معين عبر عنه في انتاجه وما زال يعبر عنه الى اليوم حسب علمي .

السؤال السابع : ما هي علاقة الأدب الثوري بالالتزام ؟

الجواب : الالتزام كما عرفته قد يأتي عن أدب ثوري أو غير ثوري. فالقضية قضية موقف أخلاقي انساني ، وكما تعلمون فان الأدب الثوري هو تعبير شعاري أكثر منه واقعي، فالقضية التي يجب ان تطرح هي الأصالة في الأدب بمعنى هل الكاتب يعبر عن تجربة أصيلة أو مصطنعة، فالأدب يجب أن يخدم قضية سواء بطريقة الثورية المعنية أو بطريقة شعارية. وبهذا المعنى اذا وجدنا كاتبا قد أخذ على عاتقه أن يدافع عن قضية الحرية وأن يستنكر موقف الاستعمار من الشعوب المستعبدة فهو ثوري ملتزم وان لم يدع الى حمل السلاح. ونحن نجد في الأدب المغربي عامة والأدب الجزائري خاصة مواقف واسعة لبعض الكتاب حول هذه النقطة بالذات .

السؤال الثامن : هل للأدب المغربي طابع خاص يميزه عن الأدب المشرقي ؟

الجواب : اعتقد ذلك مع بعض التحفظ، حقا ان الأدب المغربي قد عاش ظروفا محلية وتاريخية جعلته يتخذ سمة يعرف بها ولكن هذه السمة ليست كبيرة في نظري الى درجة أنها تفصله عن الأدب في المشرق العربي ، فالمنبع والمصب في نظري واحد بالنسبة للأدبين وهو الروح العربية الاسلامية .

السؤال التاسع : الى أي مدى يصور الأدب المغربي البيئة المغربية ؟

الجواب : بناء على قراءاتي فاني اعتقد ان ادب المغرب العربي، مع بعض الاستثناء، يصور بيئته ويعكس روح شعبه ولا سيما منذ بدأ الصراع بين المواطن والغريب، فنحن نجد هذا الأدب يعبر عن روح التمرد ويصف روح الثورة ويبشر بمستقبل تقدمي لشعب المغرب العربي، ولذلك فاني اعتقد بأنه ادب في عمومه يرتبط بالتجربة المغربية، رغم تفاوت الكتاب في هذا المجال .

السؤال العاشر : ما هو دور الأدب المغربي في إطار الأدب العربي عامة؟

الجواب : يشهد تاريخ أدب المغرب العربي بأن هناك تجارب خصبة أضيفت الى الأدب الأندلسي الذي هو في حقيقته أدب عربي مغربي ، وقد امد المغرب المشرق بشخصيات بارزة في هذا المجال، ولا سيما في الجزائر . ولنذكر هنا على سبيل المثال «المقري» صاحب نفح الطيب .

أما فيما يتعلق بدور الأدب المغربي المعاصر فاني اعتقد ان المرحلة التي يمر بها المغرب سياسيا واقتصاديا وثقافيا تجعل منه مساهما فعالا في اخصاب وتطعيم الأدب المشرقي بنسغ جديد . واذا جاز لنا أن نتنبأ فان أدب المغرب العربي يمكن أن يكون رائدا لأدب المشرق في المجال الافريقي بالذات حيث أن هناك علاقات وخصوصيات تربط بين التيارات الفكرية في شمال افريقيا وفي بقية القارة الافريقية.

السؤال الحادي عشر : ما هو اثر التيارات الفكرية العالمية في الفكر المغربي؟

الجواب : نحن كشعب نعيش في القرن العشرين لا نستطيع ان نوقف التفاعل الفكري بين الشعوب وهذا التفاعل يؤثر علينا من جهتين ، تفاعل جاءنا عن طريق الارتباط الاستعماري القديم وهذا لا يمكن ان نتخلص منه بالسهولة التي نود فهو تأثير محبوب أو مكروه ولكننا لا نستطيع ان نتخلص منه دفعة واحدة.

ومهما يكن من أمر فليس كل ما ورثناه عن الاستعمار من الناحية الفكرية منحطا بل ان هناك من التجارب الانسانية والعلمية التي يمكن ان نستفيد منها كشعب في طريق التطور .

أما التفاعل الثاني فهو أوسع وأشمل ويأتينا عادة عن طريق تفتحنا وشعورنا بضرورة التعايش مع الأفكار والتجارب الانسانية المعاصرة، فنحن نقرأ المترجمات، ونستمع الى الاذاعات، ونقرأ الصحف، ونسافر، وغير ذلك من أوجه النشاط التي تؤثر فينا وقد نؤثر فيها . واختيار الأفضل من هذا التفاعل الأخير هو أصعب تجربة يمر بها شعب متطور ذلك أن هناك رواسب تاريخية واجتماعية لدى شعبنا يصعب ان تتكيف بسهولة مع ما نحتاج اليه من هذا التيار ، وعلى كل حال فإني أرى ان هناك ضرورة للتفاعل الفكري ولا أقول التأثير الفكري لأن الشعب الأصيل هو الذي يستطيع ان يأخذ ويعطي أي ان يتفاعل مع غيره. اما الشعب الذي يتأثر فقط أي يأخذ فقط فما له في نظري إلا الاندماج في أحد التيارات المتصارعة وأعتقد ان الشعب الجزائري العربي يستطيع ان يقوم بدور المتفاعل لا بدور المتأثر فقط ...

السؤال الثاني عشر : ما هو موقف المؤتمرين من هذه التيارات ؟

الجواب : يبدو من المناقشات داخل لجنة التأثيرات ومن المقررات وتوصيات المؤتمر ان المؤتمرين مقتنعون بضرورة التفتح الفكري على التيارات العالمية، ولكنهم في نفس الوقت يفرقون بين تيارات مضرة وتيارات نافعة ولذلك أوصوا بضرورة حماية التراث القومي وتطويره حتى لا تذوب شخصية الثقافة العربية في المغرب العربي باسم الاخذ بأسباب التقدم الحديث .

السؤال الثالث عشر : ما هي الأسباب التي جعلت كتابنا بالفرنسية يتخلفون

الجواب : الواقع ان الدعوة قد وجهت الى الكتاب الجزائريين دون تمييز. وقد حضر الى آخر لحظة عدد ممن نطلق عليهم كتابا بالفرنسية، ولكن بعضهم قد اعتذر في النهاية وفي آخر لحظة لأسباب عائلية وأسباب صحية ونحو ذلك من الأسباب التي هي خارجة عن الاختصاصي. هذا من جهة ، ومن جهة أخرى

فقد كان في الوفد من يكتب بالفرنسية وبالعربية ، وأيضا فاني شخصيا أرى بأن الجزائر في وضعها الحالي يجب ان تمر بمرحلة يمكن ان نسميها (مرحلة تصحيح الأوضاع) فما دمنا نحاول ان نصحح هذه الأوضاع على الصعيد الاقتصادي والسياسي والاجتماعي فيجب في نظري ان نصحح الأوضاع أيضا فيما يتعلق بالثقافة والفكر والأدب كقطاع انساني قومي يجب ان يمثله الذين يؤمنون ويعملون في اطار الاتجاه القومي العربي للوطن. فاختيار الممثلين يجب ان يكون على هذا الأساس أي التمثيل القومي للوطن على الصعيد الفكري .

السؤال الرابع عشر : ما هي الأسباب التي جعلت مؤتمر كتاب المغرب العربي ينعقد بمعزل عن كتاب المشرق العربي ؟

الجواب : الواقع أنه ليس هناك عزلة في هذا المؤتمر، فانني أرى ان هذا المؤتمر كان عبارة عن محاولة لدراسة أوضاع الأدب والفكر في نطاق المغرب العربي، وفي نفس الوقت في نطاق الأدب العربي والثقافة العربية الشاملة، وكون هذا المؤتمر لم يضم سوى أربعة أقطار لا يعني أبدا أنه دعوة الى فصل الأدب والفكر المغربي عن الأدب والفكر المشرقي .

ان هناك ظروفا تاريخية معينة جعلت المغرب العربي ينعزل نوعا ما عن المشرق وبالتالي أدت إلى بعثرة وتجميد التطور الفكري ، ونعتقد أنه قد حان الوقت الذي يبعث فيه هذا الأدب من جديد ويربط بقافلة الأدب العربي في المشرق أيضا، وانتم تلاحظون في التوصيات والقرارات التي اتخذها المؤتمر ان هناك الحاحا على ضرورة تدعيم الثقافة العربية في المغرب وضرورة حماية اللغة العربية باعتبارها الأداة التي تربط الصلة بين الكتاب سواء في المشرق أو في المغرب أيضا . فهذا المؤتمر حينئذ ما هو الا مساهمة في تطوير الأدب والثقافة العربية في مفهومها الشامل وهو نفس الدور الذي يقوم به زملاؤنا في المشرق العربي .

من قضايا الأدب العربي

بعد عودتي من مؤتمر الأدباء العرب الذي انعقد بدمشق خلال شهر ديسمبر سنة 1971 طرحت علي الصحافة الوطنية عدة أسئلة حول القضايا التي عالجها المؤتمر وحول مشاركة الوفد الجزائري فيه وأدب المغرب العربي وعلاقته بالأدب العربي عموما ، بالاضافة الى مشاكل الأدب العربي المعاصر. وها أنا أورد أجوبتي على هذه الأسئلة مرتبة زمنيا، مع ملاحظة انني قد حذفت منها ما هو مكرر :

أ . أجوبتي على أسئلة المرحوم محمد طاع الله (الشعب) .

ب . أجوبتي للأستاذ الشاعر محمد أبي القاسم خمار (الصفحة الثقافية ـ الشعب) .

ج . أجوبتي للأستاذ أبي القاسم بن عبد الله (مجلة الجيش) .

حديث الى المرحوم محمد طاع الله

س : ما موقف المؤتمر من قضيتي تشاد واريتريا ؟

ج : من المعروف أن ثوار اريتريا يخوضون منذ أمد طويل معركة ضد الاحتلال الأثيوبي(1) في بلادهم. ومعظم البلاد العربية تعطف عليهم وتساندهم. لكن السياسة تتدخل أحيانا فتجعل بعض هذه البلاد لا تصرح بالمساندة. ومن المعروف ان سورية لا تخفي تأييدها لثوار أريتريا. وكذلك يخوض تشاد نضالي ضد النظام الحاكم في بلادهم، وهو نظام يعتبرونه ممثلا للرجعية

1) هكذا كتبتها أول مرة ولكن الجريدة من خلال المرحوم طاع الله قد غيرت التعبير الى «الاضطهاد القمعي» لاعتبارات سياسية .

والطائفية والاستعمار. ومن المعروف أيضا ان ليبيا تتعاطف مع هؤلاء الثوار. فليس بغريب ان تقترح بعض الوفود تأييد هاتين الحركتين الثوريتين وان يتبنى المؤتمر هذا الاقتراح. فالأديب العربي التقدمي يجب ان يرتفع فوق الاعتبارات السياسية وان ينظر الى القضية من زاوية المبدأ، والمبدأ هنا هو حرية هذه الشعوب التي تناضل من أجل شخصيتها وتراثها وكيانها الحضاري. ونعتقد أن تأييد المؤتمر لهذا المبدأ يتماشى تماما مع موقفه من نضال الشعوب عامة، وفي طليعتها الشعب العربي نفسه .

س : هناك أدباء ينتمون إلى أكثر من جيل ، فما هي علاقة ذلك بأزمة الأدب ؟ وما أهم خصائص الهوة بين هذه الأجيال ؟

ج : يجب ان نعترف بأن الثقافة العربية (والأدب جزء منها) تعيش في أزمة. فمنذ حوالي ثلاثة عقود لا نجد نهضة أو ما يشبه النهضة في الحياة الفكرية العربية. فهناك ركود واجترار. والذين يعبرون عن هذه المرحلة هم أدباء الشيوخ، هم أدباء الجيل الماضي. ولسوء الحظ أنهم ما يزالون يسيطرون على مقاليد الثقافة العربية، بما في ذلك اتحاد الكتاب. فهناك عقليات نستطيع أن نقول ان العصر قد تجاوزها. ومع ذلك فهي ما تزال تمسك بزمام الفكر. ولعل هذا صحيح في السياسة العربية أيضا. والى جانب هذه الطبقة الشائخة، اذا صح التعبير، هناك الجيل الجديد، جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية الذي أحسسنا انه يعيش في عزلة وفي غربة وأنه يتطلع إلى آفاق جديدة ، ولكن الوسائل الحالية لا تساعده على الوصول اليها . ولذلك يمكن القول بأن هناك صراع أجيال في المجال الثقافي العربي المعاصر، وان بامكان الجزائر (وهي بلاد تمثل في جميع مظاهرها الجيل الجديد) ان تلعب دورا في استقطاب الحركة الفكرية العربية وبعث نشاط فيها يكون عموده الفقري هذا الجيل المغترب في الوطن العربي .

س : كيف يفهم أدباء المشرق العربي الانتاج الأدبي والثقافي في الجزائر ؟

ج : لقد طرح علي شبه هذا السؤال أحد الصحافيين في سورية. والواقع ان هناك نظرة خاطئة لدى المشارقة الى أدب الجزائر. فهم يعتقدون ان الجزائر قد

«تفرنست» تماما وان كل أديب جزائري يكتب بالفرنسية. وقد ساعد على هذه النظرة عاملان : عامل تاريخي، وهو ان الاحتلال الفرنسي قد عمل على فرنسة الجزائريين في جميع المظاهر، بما في ذلك اللغة. أما العامل الثاني فهو أدبي، وهو ان الانتاج الجزائري الذي وصل الى المشرق كان أثناء الثورة، حينما ترجمت بعض الأعمال لمحمد ديب وكاتب ياسين ومالك حداد وغيرهم، وقدمت الى القراء العرب ضمن الأحداث السياسية والعسكرية على انها هي انتاج الجزائر الأدبي. ويمكننا ان نضيف الى ذلك عاملا نفسيا وهو «عقدة الشرق» في الاهتمام بكل ما هو غربي، ولو كان انتاجا عربيا مكتوبا بلغة أجنبية، واهمال ما سواه. وهذه النظرة الخاطئة مازالت للأسف شائعة. وقد أثبت المؤتمر انها لم تعد صالحة. وعلى الجزائريين ان يثبتوا شخصيتهم الحقيقية في المجالين المشرقي والعالمي، وان يناضلوا من أجل ذلك بالعمل لا بالقول. ولا شك ان الأدباء والمفكرين بالفرنسية يستحقون كل تقدير، ولكن العهد الذي عبروا عنه وكتبوا فيه قد ولى .

س : كيف نظر المؤتمر الى قضية تفرغ الأديب ؟

ج : ان تفرغ بعض الكتاب شيء جيد. وقد نصت توصيات المؤتمر على ذلك. وأعرف ان قوانين مصر وسورية تسمح بالتفرغ بشروط. وأملنا ان يكون في استطاعة الجزائر أن تحدث ذلك أيضا. حقا ان الأمر غير هين في الجزائر لأن عدد الكتاب قليل، وقليل منهم من يعتبرون أدباء بالمهنة. زد على ذلك حاجة البلاد الآن الى كل مثقف للمساهمة في مجالات النشاط المختلفة. ومن الطبيعي ان يكون التفرغ وسيلة للانتاج وجودته، وليس ترفيها واستراحة. ومن الأسف ان بعض ادبائنا قد قتلهم الوظيف وقضت عليهم لقمة العيش. فلا بد من اعادة النظر في هذه الظاهرة وطرح موضوع التفرغ بجدية .

س : في أي الاتجاهات الفكرية حدثت المطالبة بحرية العمل الأدبي ؟

ج : ان الحرية للفنان كالماء للسمك. والأديب الحقيقي غيور على حريته لأنها وسيلة انتاجه الصادق. ولكن الحرية ليست مطلقة. ومن هنا طرحت أيضا قضية الالتزام والالزام. ومعنى ذلك انه لا بد للأديب ان يكون ملتزما

بمبدأ أو قضية يكافح عنها. وفي اطار الالتزام تكون الحرية. أما الالزام فهو ما يرفضه الأدباء ويعتبرونه خرقا للحرية وانتهاكا لكرامة الانسان. فالالتزام ذاتي أما الالزام فهو عامل خارجي. والمهم ان يتمتع الأديب بحريته في اطار التزامه الذاتي بخدمة الانسان في أعلى معانيه .

س : هناك ما يشبه الاجحاف في مواقف الأوساط الأدبية العالمية من الأدب العربي فهل ذلك يعود الى قصور الانتاج العربي أو الى اعتبارات غير أدبية ؟

ج : هما معا. فالعرب ليسوا في عهد ازدهار ولكن في عهد نهضة. والانتاج العربي لم يبلغ المستوى العالمي الناضج لا في العلوم ولا في الأدب.ولكن هناك انتاج معترف به عالميا هو بلا شك دون الانتاج العربي في المستوى. «فالعالمية» اليوم قضية نقل المعارف الى اللغات الأخرى والوقوف الى جانبها سياسيا، أي في موقف القوى. والعرب اليوم في موقف الضعف سياسيا. لذلك فان انتاجهم سيظل محليا مهما بلغ من الجودة. ولكن علينا ان نبذل قصارى جهدنا من أجل نقل آدابنا الى اللغات الأجنبية ليتعرف الآخرون على آمالنا وطريقة حياتنا. أما الاعتراف بها فهو أمر مرهون بالقوة والاحترام السياسي .

س : ما هي العناصر التي يمكن أن تساهم في اعطاء اتحاد الأدباء العرب مزيدا من الفعالية ؟

ج : كل اتحاد يحتاج ، لكي يؤدي دوره على أحسن وجه ، الى تجديد وتفتح ومال . واتحاد الأدباء العرب في حاجة الى هذه جميعا. فهو في حاجة الى التجديد اداريا، وهو في حاجة الى الانفتاح فكريا ، وهو أيضا في حاجة الى ميزانية. وقد شعرنا ان هناك عناصر طيبة وفعالة يمكنها أن تلعب دورا في الاتحاد لو أتيحت لها فرصة الدخول فيه . ومن المعروف أيضا أن العالم يتجدد وان كل عقد من الزمن تقريبا له تفكيره ومفكروه. ومن هنا يتحتم على الاتحاد ان يساير هذه التجارب الانسانية، اذا لم نقل يسبقها. ولكي تتوفر ميزانية هامة للاتحاد لا بد من انضمام أكبر عدد من الاتحادات الفرعية ومساهمتها

في تمويله. ويمكن للاتحاد أيضا أن يلقي مساعدات مالية أخرى لو تضاعف نشاطه وبرزت شخصيته أكثر مما هو عليه الآن (1) .

(1) أجرى الحديث المرحوم محمد طاع الله (كتبه : طاع الله محمد) ونشره في جريدة الشعب) 27، ديسمبر، 1971 .

حديث الى الشاعر محمد أبي القاسم خمار

س : كيف كان نشاط الوفد الجزائري في المؤتمر ؟

ج : كان هدف الوفد الجزائري تمثيل الجزائر خير تمثيل والعمل على انجاح المؤتمر. وعلى هذا الأساس قدم الوفد بحثين وقصيدة. فقد ساهم الدكتور حنفي بن عيسى ببحث عن مشكلة التراث والمعاصرة. وشاركت أنا ببحث بعنوان (من حضارة الشعر الى حضارة العلم) (1) وقد حاولت أن أدرس فيه امكانية القيام بثورة ثقافية عربية. أما الدكتور صالح الخرفي فقد ألقى قصيدة في مهرجان الشعر الذي نظم بهذه المناسبة. ومن جهة أخرى شارك أعضاء الوفد في مداولات اللجان وصياغة التوصيات والمناقشات العامة، كما أدلوا بأحاديث الى الصحافة المحلية (السورية) والعربية . وقد ترأست الجزائر الجلسة الأولى للمؤتمر، وكانت مقررة في احدى الجلسات .

س : من الملاحظ ان أعضاء الوفد كانوا من أساتذة الجامعة فقط ، وكان عددهم لا يزيد عن ثلاثة ؟

ج : من رأيي أن نفتح المجال في المستقبل لمشاركة عدد من الجيل الأدبي الجديد وان لا نكتفي بارسال أولئك الذين تعودوا على هذه المؤتمرات. ذلك ان مشاركة جيل الشباب تتيح لهم فرصة التدرب من جهة، ومن جهة أخرى تجعلهم يتعرفون على أكبر عدد من الشعراء والكتاب العرب ويستفيدون من

1) نشر هذا البحث في كتابي (منطلقات فكرية) . الدار العربية للكتاب ، 1976 ، ط2 ، 1982 .

آرائهم وتجاربهم مباشرة. كما انها تفتح أمامهم مجالات الفكر والاطلاع على أهم القضايا التي تطرحها أبحاث المؤتمر ويثيرها النقاش. وبذلك يعودون بزاد من التجارب يكون لهم حافزا على الانتاج الجيد وعلى تطوير أفكارهم وآرائهم في الناس وفي الحياة . ومن رأيي أيضا تنويع الأعضاء المشاركين بحيث يكون من بينهم الشاعر والقصاص والناقد والمسرحي والناشر.. الخ. ذلك ان قضايا المؤتمر متنوعة، ومن الصعب ان يلم بها فرد أو أفراد متشابهون في التكوين والاختصاص .

س : هل دعت الجزائر لعقد المؤتمر القادم فيها ؟

ج : قد دعت الجزائر الى عقد المؤتمر القادم على أرضها. فرحب بذلك المؤتمرون ترحيبا شديدا. وأعتقد أن للجزائر جميع الامكانيات لانجاح هذا المؤتمر. فهي تتوفر على تجارب واسعة في ميدان المؤتمرات ولها القاعات الفسيحة ووسائل النقل والثروة السياحية الهائلة . أضف إلى ذلك سمعتها الثورية المشرقة سواء في الوطن العربي أو على المستوى العالمي. وسيكون المؤتمر فرصة لاطلاع الأدباء العرب على منجزات الثورة الجزائرية في مختلف الميادين. أما من الناحية الفكرية فان الجزائر تتوفر على امكانيات متنوعة حيث يتعايش الفكر العربي مع الفكر الغربي وحيث يلتقي انتاج جيل الثورة وما قبلها بانتاج جيل ما بعد الاستقلال. ويمكن، على المستوى التنظيمي، البدء في تكوين لجنة تحضيرية لاعداد برنامج وحاجات المؤتمر. وعلى المستوى الثقافي تجنيد الطاقات الأدبية لاعداد البحوث والدراسات وصقل قرائح الشعراء وشحذ مواهب الفنانين (1) .

س : ما الأهداف التي حققها المؤتمر في تطوير الحركة الأدبية العربية ؟

ج : لابد وان المؤتمر كان يهدف الى تطوير الحركة الأدبية العربية بهذا المعنى. ولعل أهم ما يقدمه للأديب العربي هو ربطه بالقضايا التي تعيشها أمته. مثلا ، كان شعار هذا المؤتمر (الأديب العربي في معركة المصير) . فالأدباء

1) انعقد هذا المؤتمر (وهو العاشر) في الجزائر سنة 1975 . ولم أتمكن من حضوره لأنني كنت مدعوا وقتها لإلقاء محاضرات بالقاهرة .

العرب المشاركون في هذا المؤتمر أو حتى الذين لم يشاركوا ، يشعرون بمدى دورهم أمام التحديات التي تواجهها أمتهم . ورغم أن مناقشات المؤتمر للقضايا المصيرية لم تكن ناضجة فان اثارتها وتجميع الاهتمام حولها يجعل الأديب العربي يعيش عصره أكثر من ذي قبل. على أن الأديب الواعي المتفتح على واقع أمته وتطورات العالم اليوم غني عن هذه الحوافز التي قد يعالجها وينتهي اليها المؤتمر. وأهم فائدة يوفرها المؤتمر هي هذا اللقاء الدوري بين أبناء الأمة الواحدة الذين تباعدت بينهم الأرض ومنعتهم كثير من الحواجز السياسية والمالية من التلاقي والنقاش. فهو فرصة لأن يجتمع الجزائري والسوري أو المغربي واليمني مثلا ويتعرفوا على تفكير بعضهم بعضا . وهناك فائدة أخرى لهذا المؤتمر، وهي اعطاء الأدباء العرب، مهما تباعدت أقطارهم، صوتا واحدا على المستوى القومي والعالمي. ولعل هذا هو أكبر مبرر لوجود الاتحاد في حد ذاته. أما دور الاتحاد، والمؤتمر صورة له، في تطوير الحركة الأدبية فهو مرحلة ما نزال، في نظري، لم نصلها بعد.

س : ما هو انطباعكم عن مهرجان الشعر الذي تلا المؤتمر ؟

ج : خلال الأيام الثلاثة الأخيرة للمؤتمر انعقد مهرجان الشعر العاشر. وقد شاركت فيه الجزائر بقصيدة لزميلنا الدكتور خرفي، كما سبق أن قلت، واشترك فيه عدد من الشعراء البارزين من الجيل الماضي كعمر أبو ريشة وبدوي الجبل والجواهري وصالح جودت وحتى نزار قباني، بالاضافة الى عديد من شعراء الجيل الحالي . وهم طائفة من الشباب الذين يحلمون بمستقبل باسم في الشعر. وقد أظهروا فعلا مواهب طيبة تبشر بذلك. ولو ان الجيل الأدبي الشاب في الجزائر قد اشترك في هذا المهرجان وفي المؤتمر لاستفاد فائدة جلى ولعاد ممتلىء الوطاب بالتجارب الشعرية الفنية والتي يمكن أن تكون عامل نهضة أدبية في الجزائر .

وقد لاحظ نقاد الشعر في هذه المناسبة ان المهرجان قد غلب عليه الشعر العمودي وان هذا الشعر قد ظهر قويا فائقا وان دولته لم تدل كما يزعم الزاعمون. وسمعت ان الشعر الحديث الذي قدم في هذه المناسبة كان دون المستوى.

ومن الملاحظ ان متزعمي هذا الشعر لم يحضروا المهرجان فليس فيه نازك الملائكة ولا فدوي طوقان ولا محمود درويش ولا أحمد عبد المعطي حجازي ولا صلاح عبد الصبور. كما سمعت من التعاليق من يقول بأن المهرجان قد أظهر ان العرب ما زالوا على عهدهم بالعكاظيات، وان تقاليد العرب في حب الشعر قد ظهرت جديدة فائرة هذه المرة. ومن الملاحظ ان مهرجان الشعر (الذي أقيم في مدرج جامعة دمشق) قد حضره خلق كثير لم يحضر المؤتمر نفسه، وان القاعة كانت غاصة بأحباب الشعر حتى لقد عاد الكثير من حيث أتوا لأنهم لم يجدوا مكانا يقفون فيه. ومن الملاحظ أيضا أن مجلة (الموقف الأدبي) السورية كانت تصدر ملحقا يوميا بوقائع المؤتمر، وقد غطت فيه أيضا مهرجان الشعر. ولكن بعض القصائد العمودية قد ظهرت ضعيفة مهلهلة ، وان بعض الشعراء والشواعر كان ينقصهم الذكاء ورهافة الاحساس فلم يفهموا انه ليس كل ما ينشدونه من شعر يجد آذانا صاغية. .

س : ما نظرتكم الى الحركة الأدبية في الجزائر من خلال الحركة الأدبية خارج بلادنا ؟

ج : ان الحركة الأدبية في الجزائر تعيش واقعا مؤلما. ويبدو لي أن أكبر خطر تواجهه هو عدم تحديد الهدف، أي لماذا يكتب الأدباء، كانوا أيام الاحتلال وأثناء الثورة يصورون آلام الشعب وتطلعاته الى الحرية والاستقلال وصراعه ضد الظلم والاضطهاد. ثم تعلقت همتهم بالاستقلال أثناء الثورة فأصبح هو الهدف الاسمى . وتحقق الاستقلال فتلاشي الهدف وبردت العزائم ولم يعوض أدباؤنا هدفا بهدف آخر. نعم ان معركة البناء لا تقل أهمية عن معركة الاستقلال ، ولكن الحماس كان هنا أقوى وأوضح منه هناك وقد كانوا في الماضي لا يتغزلون لأن شعبهم كان يتألم ، فلماذا لا يتغزلون اليوم؟ وكانوا لا ينصرفون الى الطبيعة يتغنون بها والى الذات الانسانية يستشفون أغوارها لأن مناظر الاضطهاد والفقر الذي كانوا يعانونه تمنعهم من ذلك. فما الذي يمنعهم اليوم ؟ وكانوا يشكون من قلة الكتب والمجلات ومن عدم الاتصال بالحركات الأدبية العالمية. فما الذي يقف اليوم في طريقهم؟ ويمكننا أن نستمر في هذه المقارنة بين وضعهم في الماضي وفي

الحاضر. ان هناك فنونا حديثة تتطوركالمسرحية والقصة والشعر الحديث والنقد، ومع ذلك فانها جميعا تكاد لا تذكر عندنا اذا قيست بالتجارب العالمية في هذا الميدان .

والواقع ان أدباءنا قد توزعتهم الحياة وشغلتهم أموالهم وأهلوهم. ففريق منهم، وهم جيل الشيوخ، قد شعروا ان مهمتهم قد انتهت وان المعركة التي كافحوا من أجلها قد تحققت. فركنوا الى الراحة واستسلموا للهدوء. وفريق اندمج في الوظيف والآدارة فهو مقيد بمواعيد في الدخول والخروج، وهو في اجتماعات طويلة وعقيمة تحطم الأعصاب وترهق الذهن يعود بعدها منهارا منقبضا مبتئسا. وفريق ثالث غاص في الحياة الأكاديمية فهو باحث علمي مقيد بمناهج وقواعد، وهو يجري وراء المخطوطات والوثائق وينافس من أجل الشهادة ويجري وراء العيش على حصان البحث العلمي اذا صح التعبير، وبذلك جمدت قريحته الأدبية وتقعدت نزواته الطموحة وسكنت، وأصبح لا يفكر الا «كأستاذ» متزمت وقور، وليس كأديب متمرد شرود. وهناك فريق آخر يكتب للمناسبات كأنه يريد ان يقول للناس انني مازلت حيا فلا تظنوا موتي، وهو يحاول أن يمارس الشعر لكن بدون شعور وان يكتب القصة ولكن بدون فن أو قواعد وأن يجرب المسرحية ولكن بدون ان يذهب الى المسرح أو يقرأ عنه .

والانتاج الذي يظهر من وقت لآخر يظل دون تقييم. فالناشر تهمه الكمية لا الكيفية. والبائع موظف لا يعنيه راج الكتاب أوكسد فهو سيتقاضى مرتبه من الشركة وليس من ثمن الكتاب. والمؤلف لا يهمه سوى أن يرى اسمه على الغلاف فاذا أضيفت اليه الف دينار مكافأة فهو أسعد الناس حظا وأعظم «المؤلفين» شهرة. أما قيمة الكتاب الفنية أو الأدبية أو العلمية أو حتى التجارية فهي أمر لا يهم الناشر ولا البائع ولا المؤلف في الوقت الحاضر. ومن هنا تظهر حاجة الحركة الأدبية في الجزائر الى ناقد نزيه وشجاع، ناقد يكشف عن الزيف والوهن والفقر في الأعمال التي تنشر على أنها أعمال أدبية، ناقد يرشد الى الأخطاء في هذه الأعمال ويوجه الى الجيد منه حسب

المناهج الأدبية العالمية. ومن رأيي أن الحركة الأدبية الجزائرية ستظل على هذا الضعف الذي تعانيه الى أن يظهر هذا «الفارس المنتظر» أي هذا الناقد الأدبي النزيه والمسؤول والشجاع .

س : هل لهذا المشكل علاقة بعدم وجود رابطة أو اتحاد يجمع وينسق بين أدبائنا ؟

ج : ويتصل بهذا المشكل مشكل اتحاد الكتاب الجزائريين : فلو ان لدينا اتحادا فعالا نشيطا لما ظلت الحركة الأدبية تتخبط هكذا وتعيش في بعثرة وتشتت. فمهمة الاتحاد الأولى هي تجميع الكلمة وتوحيد الجهود والسهر على الانتاج الأدبي في البلاد ، وان مثل هذه المؤتمرات والوقائع الأدبية تبرهن لنا كل يوم على ضرورة بعث الاتحاد أو خلق آخر على انقاضه. فالكتاب الجزائريون يجب ان يتجمعوا ولو اختلفت وجهات نظرهم في الحياة وفي الأوضاع عامة. وليس من الضروري ان يكون الاتحاد يمثل طائفة من الكتاب دون أخرى أو فكرة دون أخرى. ولهذا نعتقد انه من الواجب أن تذوب فيه كل التيارات والنزعات لأن الهدف منه بالدرجة الأولى هو خدمة الحركة الأدبية عامة، فهو على هذا الأساس اتحاد وطني وليس رابطة أو جمعية خاصة. ومن رأيي أيضا ان يكون على رأس هذا الاتحاد جيل الأدباء الجديد، جيل يعيش الحاضر والمستقبل أكثر مما يعيش الماضي .ومعنى ذلك انه ليس من الضروري أن يكون على رأسه الكتاب المعروفون جدا، على أن تكون العضوية في الاتحاد مفتوحة لجميع الكتاب باختلاف أعمارهم ووجهات نظرهم. وتسهيلا لعملية تكوين الاتحاد اقترح أن يترك الكتاب احرارا دون أي تدخل خارجي. ولا شك أن الاتحاد بعد تكوينه سيكون سندا للثورة الجزائرية الزاحفة وصوتا عميقا من أصواتها (1) .

س : ما هو اهتمام أدباء المشرق العربي بأدب المغرب العربي ؟

ج : من عادة المشارقة عدم الاهتمام بأدب المغرب العربي. وأقول «من عادتهم»

---

1) تكونت في آخر سنة 1973 لجنة تحضيرية لإعداد المؤتمر التأسيسي للاتحاد ، وقد كنت من بين أعضائها . وفي شهر يناير ، 1974 ولد الاتحاد . غير أني لم أدخل عضوا فيه لأن اقتراحي ببقاء الاتحاد حرا لم يتحقـق .

لأن الظاهرة تاريخية. خذ أي كتاب في تاريخ الأدب العربي ألفه أديب شرقي، ماذا تجد فيه عن الظواهر الأدبية والأدباء في المغرب العربي ؟

انك لا تكاد تظفر بشيء. هذا في الماضي. أما في الحاضر فرغم الحديث الطويل عن الوحدة العربية فان الاهتمام بهذا الموضوع ما زال ضئيلا، ان لم نقل معدوما، في بعض الأقطار. وقد نبهت الى هذه الظاهرة في كتابي الحركة الوطنية الجزائرية. ولكن المشارقة معذورون من بعض الوجوه. فالحركة الأدبية يجب ان يعرف بها أهلها أولا. ومن المعروف ان كتبنا ومجلاتنا لا تصل الى المشرق ولا تباع فيه. وقد وجدت اهتماما خاصا من أدباء سورية بأدب الجزائر. وعرفت أن بعض القصائد من ديوان (ثائر وحب) مقررة في سورية وان كتابي عن محمد العيد آل خليفة مدروس في بعض الأقطار العربية. كما وجدت اهتماما خاصا بالحركة الأدبية في الجزائر من الدكتور أحمد أبو السعد (لبنان) والاستاذ أنور الجندي (مصر). وكلاهما كتب وسألني عنها.

ولكن ضعف الاتصال ووجود عوامل تاريخية عن الاحتلال الفرنسي للجزائر أدت الى اهتمام المشارقة بأدب الجزائر المكتوب بالفرنسية أكثر من اهتمامهم بأدبها المكتوب بالعربية. فقد ترجموا أهم أعمال محمد ديب وكاتب ياسين ومالك بن نبي ومالك حداد الى العربية. وعرفت بهم صحفهم ناقلة ذلك عن الصحافة الفرنسية، خلال الثورة الجزائرية وبعدها، معتقدة أنهم هم الذين يمثلون الأدب الجزائري المضطهد، وانهم ضحايا الاحتلال الفرنسي الذي أبعدهم عن لغتهم الأصلية. وأصبح اهتمام الشرقيين بهم مقرونا بالشفقة والاعجاب بهم. ويظهر هذا الاتجاه في ترجمات سامي الدروبي وابراهيم الكيالي وقرينة سليمان العيسي وعبد الصبور شاهين وغيرهم ممن ترجموا لكتاب الفرنسية من الجزائريين. ويظهر هذا أيضا بشكل واضح في كتاب السيدة سعاد خضر (الأدب الجزائري المعاصر) وهي على ما أعتقد من لبنان، وكذلك كتاب السيد عبد العزيز شرف (المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر) وهو من مصر. فكلاهما اقتصر في كتابه على دراسة أدب الجزائر بالفرنسية رغم ان العنوانين لا يدلان على ذلك. ومن الملاحظ ان المؤتمر

الأخير وجه دعوة خاصة الى ثلاثة من كتاب الجزائر بالفرنسية دون أن يوجه الدعوة الخاصة الى أحد من كتابها بالعربية .

واعتقد ان مشاركة الجزائر في المؤتمرات الأدبية وتوصيل كتبنا الى الشرق . للأفراد وللبيع العمومي، وتكوين اتحاد الكتاب الجزائريين ودعوة بعض الكتاب العرب الى الجزائر في زيارات خاصة ـ كل ذلك كفيل بأن يزيل هذه الحواجز وان يؤدي الى تصحيح الأوضاع الأدبية هنا وهناك، وان يجعل الحركة الأدبية الجزائرية مؤثرة ومتأثرة بالحركة الأدبية في المشرق العربي (1) .

---

1) كتب الجواب يوم أول يناير ، 1972 ونشر في الصفحة الثقافية من جريدة الشعب 28 يناير ، 1972 .

حديث الى الأستاذ أبي القاسم بن عبد الله

س : إذا كان المؤتمر قد انعقد تحت شعار «الأديب العربي في معركة المصير» فهل معنى ذلك أن هناك اتجاها عاما إلى التزام أدبي واع بقضايا جماهيرنا العربية ؟ وهل كانت نتائج المؤتمر في مستوى الشعار ؟

ج : الواقع ان الأديب العربي عامة يحاول أن يعكس الحالة التي عليها الشعب العربي. فهناك تذمر ونقد وقلق من الأوضاع السياسية والاجتماعية التي عليها هذا الشعب اليوم. وهناك أحيانا دعوات صارخة الى التغيير والتحديث الاجتماعي، بل اننا نجد أحيانا نقمة لدى الأديب نتيجة الواقع الأليم الذي يعيشه وتعيشه معه الملايين من أمته. ومن الواضح أن وضع الوطن العربي منذ الحرب العالمية الثانية لا يثير في نفس الأديب المرهف الا الأسف والنقمة، اذ ليس هناك ما يدعو الى الفخر والاعتزاز. واذا كانت الثورة الجزائرية بانتصارها السياسي وتقدمها الصناعي والاجتماعي قد رفعت رأس العرب عاليا، فانها للأسف مازالت غير معروفة بالقدر الذي يجب في المشرق العربي ولا سيما المرحلة الثانية من تقدمها .

ولا نشك في أنه أمام الوضع الراهن في الوطن العربي فان الجزائر تعتبر الأمل، كما عبر لنا أكثر من واحد في المؤتمر، كما تعتبر الدرع في معركة العرب الحالية ضد التخلف والاستعمار بجميع أشكاله. وسلاح الأديب، مهما كان حادا، محدود الفعالية في الوقت الحاضر، لأن هذا الأديب

بعيد كل البعد عن مراكز القوة والتأثير في المجتمع، فهو متفرج أكثر منه متفاعلا، وهو مسجل للأحداث أكثر منه خالقا لها .

وقد حاول المؤتمرون، سواء عن طريق الأبحاث التي ألقيت أو من خلال المناقشات التي دارت، أن يكونوا في المستوى المطلوب من الأديب العربي أمام تحديات العصر المتمثلة في التخلف والصهيونية والامبريالية. فدعوا الى ضرورة اشراك الجماهير في الاعلام العربي ومساهمة الأديب الفعالة في الأحداث الجارية في وطنه، وتمتع الأديب بالحرية حتى يؤدي رسالته كاملة، وتسهيل وسائل نشر وترويج الكتاب .

ويظهر من البيان العام ومن التوصيات التي صدرت اثر المؤتمر أن الأدباء واعون لرسالتهم وملتزمون بمبادئ واضحة نحو القضايا الأدبية في وطنهم. ولكني أكرر هنا ما قلته في مناسبات أخرى من أن العبرة ليست في صدور البيان العام أو توصيات ، ولكن في تطبيقها . والأدباء ليسوا وحدهم المسؤولين على التطبيق. فهناك أجهزة كثيرة في الدول العربية تعتبر أيضا مسؤولة على على ذلك. ومن جهة أخرى يجب ان لا نبالغ في وضع كل المسؤوليات على عاتق الأديب في تغيير وتجديد المجتمع العربي. ففي الوطن العربي سياسيون منحرفون واداريون (بيروقراطيون) وأجهزة متعفنة . وما الذي يستطيع الأديب أن يفعل ازاء كل ذلك سوى أن يثور فيزج به في السجن أو يهمس فيشتبه في أمره أو يصمت فيرمى بعدم الولاء؟ ومرة أخرى أقول بأن نتائج كل مؤتمر تتجاوز المؤتمرين لأن أجهزة كثيرة في الحقيقة مسؤولة على تطبيقها، وليس المؤتمرين وحدهم .

س : أثيرت من جديد داخل المؤتمر قضية الالتزام كما أثيرت قضية حرية العمل الأدبي .. كضرورة للخلق والإبداع .. فما هو الإطار الفكري العام الذي أثيرت من خلاله هاتين القضيتين (كذا) ؟

ج : نعم لقد أثيرت القضيتان في المؤتمر، ولكن يبدو أنهما لم تعودا تثيران النقاش ولا الحماس الذي كانتا تثيرانه قبل عقد من الزمان. فقد أصبحتا في الحقيقة من التعابير الثقيلة والممجوجة. ومع ذلك فان النقاش دار حول ضرورة حرية

الأديب من جهة والقيام بدوره الفعال في المجتمع من جهة أخرى. ومعظم الأدباء متفقون على ان الحرية هي غذاء كل عمل أدبي جيد وان الأعمال الأدبية الأخرى التي تصدر عما يسمى بالالتزام تكون في الغالب فجه منحرفة دعائية خالية من الابداع. وكثير من الناس يخلطون بين «الاختيار» والالتزام وبين «الاجبار» والالزام. والواقع ان المهم في هذا الصدد هو أن «يختار» الأديب عن ارادة وبحرية قضيته ثم يكافح عنها بوسائله وأسلحته الممكنة بدون توان ولا كلل ، ومتى ظهر له أن يختار قضية أخرى يكافح من أجلها فله ذلك ما دام ضميره وحريته وارادته هي التي تقرر ذلك وليس عوامل خارجية مفروضة عليه فرضا. فالقضية اذن قضية اختيار ذاتي وبناء على رضى الأديب وليس قضية شعارات تردد في المؤتمرات أو في محافل سياسية .

س : ما هوموقف الأديب العربي المعاصر من .. التراث والنهل من منبع الأدب العالمي ؟

ج : منذ عقدين أو يزيد من الزمان أثيرت قضية القديم والجديد، وبلغت أحيانا حد المعركة. وكان لهذا الاتجاه أنصاره ولذلك أنصاره أيضا، وقد تأثر جيل كامل بتلك المعركة ولا يظهر ان النتيجة كانت في صالح القديم أو الجديد. فما يزال ، بعد كل ذلك ، للقديم مدرسته القوية كما أنه ما يزال للجديد مدرسته القوية . واليوم تظهر القضية من جديد بشكل آخر ولكن في نفس المعنى وهو التراث والمعاصرة. وما التعلق بالتراث الا انتصارا للقديم وما التشبث بالمعاصرة الا دفاعا عن الجديد . فالمعركة في الحقيقة قديمة جديدة في نفس الوقت. وقد درس الأدباء في المؤتمر هذه القضية وخرجوا منها كما هو متوقع بموقف يبدو أنه معتدل. في الوقت الذي قالوا فيه بضرورة الأخذ بأسباب الحضارة العالمية الحديثة ومسايرة الركب الانساني في العلوم والآداب والفنون الجديدة نادوا كذلك بضرورة التمسك بالأصيل من الثقافة العربية الإسلامية ونفض الغبار عن الخير منها والاعتزاز بمبتكرات هذه الثقافة العريقة وتعليم ذلك في التربية القومية والتوجيه الثقافي الوطني.

وهذا الموقف في نظري ليس توفيقا بين تيارين متنازعين في المؤتمر (مثلا القدماء والمحدثون) ولكن يبدو ان هناك ضرورة واقعية لذلك . فالأديب العربي

المعاصر لا يستطيع أن يتخلى عن مقوماته الروحية والفكرية (التراث) .
وهو في نفس الوقت لا يستطيع أن يبقى بمعزل عن التطورات العالمية المعاصرة في مختلف المجالات. وعلى هذا الأساس كانت هناك دعوة أيضا الى ضرورة ترجمة الآثار العربية الجيدة الى اللغات الأجنبية حتى يتعرف العالم على انتاجنا الحديث وطرق تفكيرنا ومناهجنا في الحياة المعاصرة .

س : بما أنكم ترأستم الوفد الجزائري في مؤتمر الأدباء العرب ، هل هناك انطباعات عامة خرجتم بها بعد انتهاء المؤتمر ؟

ج : لا يكاد الشرق يعرف أو يقرأ لأدباء الجزائر. وهذا راجع الى عدم توصيل انتاجنا الى المشارقة. فلا مجلاتنا ولا كتبنا ولا أفلامنا تصل الى هناك. لذلك يمكن القول بأن بلادنا تعيش في عزلة، ثقافيا على الأقل (1) والعتب ليس على الجزائريين فحسب بل على المشارقة أيضا .

س هل هناك بعض السمات التي تميز أدب المغرب العربي عن أدب المشرق ؟

ج : والحق ان هذا السؤال صعب ويحتاج الى رأي المختصين في الاداب المقارنة والمطلعين على كل جوانب الحركة الأدبية في المشرق والمغرب . ويبدو لي أن أدب المشرق أغزر وأكثر تقليدا واستمرارية. ويمتاز أدب المغرب العربي بمزاحمة اللغة الأجنبية (الفرنسية) له. فليس كل الأدباء ينتجون بلغة واحدة أو على الأقل لا يتفاهمون بلغة واحدة، بينما المشارقة يتفاهمون ويتكاتبون بلغة واحدة ولو انتجوا بلغة أجنبية أحيانا. غير أن أدب المغرب العربي باللغة الأجنبية أثرى وأقوى صلة بالآداب العالمية من زميله الأدب المكتوب بالعربية . وهناك ملاحظة لا بد من ذكرها ، وهي ان أدباء المشرق يأخذون كثيرا عن الانتاج الأجنبي. ومعظم كتاب المغرب العربي بالعربية يأخذون عن أدب المشرق أي أنهم يتصلون بالآداب العالمية بطريقة غير مباشرة . ولكن يلاحظ وجود حركة أدبية مغربية ناهضة الآن على رأسها

1) منذ هذا الحديث قامت الجزائر بعدة محاولات للتعريف بتراثها ونشاطها الثقافي في الوطن العربي وذلك بإقامة عدة أسابيع ثقافية في سورية والكويت والعراق والخليج واليمن وغيرها .

جيل ما بعد الاستقلال. وهو جيل واع متحمس متفتح. ولعل هذه الحركة يمكن أن تسهم في دفع الأدب في المشرق أيضا لأن الحركة الأدبية هناك يبدو أنها قد شاخت وهي في حاجة الى تجديد وتطعيم. وينظر أدباء المشرق، على الأقل القدماء منهم، نظرة تعال الى أدباء المغرب العربي. والى وقت قريب كان زعماء الفكر القومي في المشرق يعتبرون الأمة العربية منحصرة في الجزيرة العربية والشام والعراق. ولكن هذه النظرة قد تغيرت اليوم. ونعتقد أن نظرة شاملة لأدب الأمة العربية كلها قد أخذت اليوم في الظهور ولاسيما عند مؤرخي الأدب . ولكن النقد الذاتي يفرض علينا أن نقول بأنه لم يظهر في المغرب العربي أدباء ممتازون قد فرضوا أنفسهم على الجيل الأدبي في الوطن العربي (1) .

1) كتب الجواب في 16 يناير ، 1972 ونشر في مجلة (الجيش) ،عدد فيفري ، 1972 .

رحلات

رحلتي الى المغرب

قلما اتجه الرحالة الجزائريون في القديم الى المغرب أو الأندلس. كان اتجاههم مثل اتجاه المغاربة أنفسهم، نحو المشرق، للحج أو طلب العلم أو الهجرة. وكثرت الرحلات المغربية نحو المشرق حتى أن من أراد أن يكتب عن الجزائر الماضية مثلا لا يمكنه أن يستغني عن رحلات التمغروتي، والعبدري، والبلوي، والعياشي، والغساني، والزياني، والجامعي، وابن زاكور، والدرعي وأضرابهم .

وكان هؤلاء يسجلون انطباعاتهم كل حسب مشربه وتكوينه، فمنهم من غلب على كتاباته الطابع الديني، ومنهم من اهتم بالعلم ورجاله، ومنهم من تحدث عن المدن ووصف «المسالك والممالك». ولكن أعمالهم جميعا أصبحت لا غنى عنها للمؤرخين والجغرافيين والأدباء وعلماء الاجتماع .

(*) نشرت في مجلة الثقافة ، عدد 18 ، 1973م .

والرحالة الجزائريون قليلون اذا قيسوا بالرحالة المغاربة . وأقل من القليل أولئك الذين اتجهوا منهم نحو المغرب بدل المشرق. واذا كان القرن الثامن عشر الميلادي قد ترك لنا رحلتين جزائريتين نحو المشرق، رحلة ابن عمار ورحلة الورتلاني، فانه قد ترك لنا أيضا رحلة يتيمة نحو المغرب وهي رحلة ابن حمادوش التي أقوم بتحقيقها. وليس ابن حمادوش هو أول جزائري يتوجه الى المغرب، فقد سبقه كثيرون كابن قنفذ والونشريسي والمقري ولحقه كثيرون كالأمير عبد القادر والمشرفي، ولكنه أول جزائري حسب علمنا ترك لنا وصفا دقيقا لمدن تطوان ومكناس وفاس وأحوالهما الاجتماعية والاقتصادية والثقافية خلال القرن الثامن عشر .

وتعقبا لآثار هؤلاء واضرابهم ذهبت الى المغرب خلال الصيف الماضي . وقد سجلت أثناء رحلتي كعادتي في كل بلد أزوره، يوميات صببت فيها مشاعري ومشاهداتي وقراءاتي ولقاءاتي، صبا عفويا لا تنسيق فيه ولا تفنن. وعند عودتي إلى الجزائر نظرت في هذه اليوميات فوجدت فيها ما يصلح للنشر الآن وما لا يصلح للنشر الا بعد انقضاء جيل. ولتشابك هذين القسمين في اليومية الواحدة فضلت ان انسج هذا العرض لأخبار الرحلة نسجا آخر لا يتقيد باليومية ولكن بالحادثة نفسها، مقتصرا فيه على الأحداث والمناسبات الثقافية والمتصلة بها. وقد ذكرت في آخر هذا العرض بعض أسماء المخطوطات التي لم تكن تهمني مباشرة لأني أعرف أنها تهم بعض الباحثين في المغرب العربي والمشرق. أما اطلاعاتي وقراءاتي في المخطوطات الجزائرية فانني لم أذكرها الآن مؤملا ان افرد لها دراسة خاصة قريبا .

ولا أكتم نفسي ان الرحلة كانت ذات فائدة عظيمة لي. اذ لم أجمع فقط خلالها مادة جديدة نادرة لكتابي عن تاريخ الجزائر الثقافي، ولكنني تعرفت أيضا

على عدد من رجالات المغرب الحديث، شيبا وشبابا، يمينا ويسارا، وشاهدت في جولاتي (رغم أنها كانت محدودة) أشياء كثيرة انتزعت اعجابي لأنها جزء من حضارتي ووطني الأكبر. وقد كتبت يومياتي بحرية مطلقة كما استخلصت هذا العرض بحرية مطلقة اذ لم أكن مدينا بالولاء لأحد، فلا الجزائر أوفدتني حتى أشعر بالدين لها ولا المغرب استدعاني حتى أتقيد بدعوته .

* * *

زرت المغرب لأول مرة خلال الصيف الماضي (من 29 يوليو الى 19 اغسطس 1973). ومنذ أمد طويل والأمنية تراودني لزيارة هذا البلد الذي تربطني به أكثر من رابطة، ولكن الرياح كانت دائما تميل بسفينتي الى اتجاه آخر. فقد سبق لي أن زرت بلدانا أخرى أبعد منه مسافة، عربية وأوروبية وأمريكية. لذلك كنت كثير العتب على نفسي، لا سيما في الآونة الأخيرة. فنحن والمغاربة نتحدث كثيرا عن الماضى المشترك، ونتطلع أكثر الى المستقبل الواحد، ونتدارس تاريخ بعضنا في المدارس والجامعات ، وعندنا عائلات مغربية ، وعندهم عائلات جزائرية ، وتتوافد علينا وفودهم كما تتوافد عليهم وفودنا حاملة الى هنا والى هناك مشاريع للتعاون في مختلف المجالات .

والسفر بالنسبة لي كالماء والهواء. ولو انقضت علي سنة دون أن أتنفس هواء بلد آخر لأحسست بالاختناق حتى في وطني، لا لأنه يفتقد نقاوة الهواء وعذوبة الماء، ولكن لأن تغيير الهواء في حد ذاته يصقل الذاكرة ويجدد العاطفة ويبعث على الفضول الذي هو أساس المعرفة، ويحقق «خمس فوائد» كان الشاعر العربي قد اختصرها في قوله :

تفــرج هــم واكتســاب معيشــة وعلــم وآداب وصحبــة ماجــد

وأهواء العالم كمياهه لها أوزان وأذواق مختلفة، ومن ثمة مفعول خاص. فالهواء الذي امتلأت به رئتا زرياب غير الهواء الذي تنفسه بيتهوفن، والهواء الذي عاش به ابن رشد غير الهواء الذي استنشقه اينشتاين. وهكذا دواليك. من أجل ذلك عزمت على تحقيق أمنيتي بشم هواء المغرب هذا العام، والنهل من ينابيعه

الحضارية الثرة، واكتشاف بعض مجاهله، والتعرف على أهله، والتزود من مخطوطات خزائنه لكتابي عن تاريخ الجزائر الثقافي .

وقد استغرقت الرحلة على طائرة البوينغ التونسية، بين مطار الدار البيضاء بالجزائر ومطار النواصر بالمغرب، ساعة وربعا. وكانت الطائرة قد حلقت بنا فوق سحب كثيفة أخذت في الانقشاع كلما توغلنا في اتجاه الغرب. وكانت تطير بمحاذاة البحر، ثم حوالي منتصف الطريق انحرفت الى اليسار وتعمقت في المناطق الداخلية بالمغرب. وكانت الساعة تشير الى السادسة والربع عندما أعلنت المضيفة التونسية بصوت رخيم أن الطائرة ستبدأ في الهبوط بمطار النواصر. وشعرت عندئذ ان الطائرة كانت حمامة سلام ووحدة بين الأقطار الثلاثة . فقد تجمع فيها الجزايريون والمغاربة والتونسيون. واندمجت فيها طبائعهم المتكاملة : لطافة التونسي وانسانية الجزائري وشهامة المغربي .

- 1 -

ولم تستغرق الاجراءات في مطار النواصر سوى بضع دقائق. وعندما اقتربت من مفتش الحقائب سألني من أين، فقلت من الجزائر، فقال بود : أهلا وسهلا، تفضل ! مشيرا بيده الى الباب. وخرجت من المطار وأخذت مقعدا في السيارة العمومية التي تصل المطار بمدينة الدار البيضاء، بعد أن دفعت مقابل ذلك خمسة دراهم (5 دنانير جزائرية). كانت المسافة بين المطار ووسط المدينة حوالي خمسة وثلاثين كيلوميترا. وفي آخر المطاف وجدت المحطة مزدحمة بالمسافرين الى مختلف الاتجاهات، ومنها اتجاه الرباط. وحول المحطة أصحاب السيارات ينادون على المسافرين مرددين أسماء المدن أو الاتجاه. وبعد مفاوضات ومناورات مع أصحاب سيارات الأجرة، الذين هم خبراء كل بلد في العالم، وجدت نفسي داخل سيارة أجرة ضخمة قديمة من صنع أمريكي، وركب في نفس السيارة ثلاثة رجال وامرأتان، واحدة منهما زوج لأحد المسافرين، بالاضافة الى السائق. فمجموع من كان في السيارة سبعة أشخاص. وكانت الساعة تشير الى الثامنة والنصف عندما تحركت السيارة من الدار البيضاء في اتجاه الرباط. وقد سقط الليل. وبدأت أنوار المدينة تتلألأ، بعضها يشكل أسهما، وبعضها يشكل دوائر، وبعضها ينافس نجوم الليل

أو بروق العواصف واللغة العربية فيها تنافس الفرنسية. وكانت الألوان المتعددة والأشكال الهندسية المتنوعة تكاد تخطف الأبصار وهي جميعا من دلائل التنافس والتأثير على المارة والسواح. ولكن مثلي لا يستطيع أن يحكم على هذه المدينة عندئذ، فأنا لم أرها نهارا، ولم أتجول في دورها وشوارعها. بالاضافة الى أن الوقت كان مساء الأحد. وستتاح لي زيارة هذه المدينة الكبيرة أثناء الرحلة .

تبلغ المسافة بين الدار البيضاء والرباط حوالي تسعين كيلو مترا، قطعناها كلها في ظلام الليل الدامس ورطوبة المحيط الأطلسي وازدحام السيارة على اتساعها بالمسافرين. وقد قطعنا المسافة في حوالي ساعة ونصف. واستطعت ان أقرأ وسط الظلام والتعب فوق جسر علامة تشير الى وادي المالح ثم أخرى تشير الى وادي شراط. وظللنا طول الطريق صامتين، ولم ينبس احدنا ببنت شفة، ومن ثمة لم نتعارف. وكان أحد الرجال يغط في نومه طول الطريق .

وكانت احدى المرأتين بدينة تلبس جلابة مغربية وتجلس في المقعد الامامي، أما المرأة الأخرى فقد كانت تلبس ثوبا أروبيا وتجلس الى جوار زوجها في المقعد الخلفي. وأما الرجال فقد كانوا جميعا بالثياب الأروبية. وكان السائق كثير التدخين ويبدو أنه لم يكن يعمل لحسابه بل لحساب مالك آخر للسيارة. وكل سيارة من سيارات الأجرة الكبيرة التي تتنقل بين المدن تحمل رقما خاصا مع اسم البلد الذي تنطلق منه. بينما توجد في كل مدينة سيارات من النوع الصغير متميزة بأرقام وألوان .

توقفت بنا السيارة قرب مفترق شارعين رئيسيين في الرباط وهما : شارع الملك محمد الخامس وشارع الملك الحسن الثاني. ودفعت سبعة دراهم، ستة على الشخص وواحد على الحقيبة. وتوقفت قليلا أنظر يمينا وشمالا بحثا عن الاتجاه الذي سأسلكه. ثم سألت أحدهم عن الجهة التي فيها الفنادق، فأشار علي بالجزء الحديث من شارع محمد الخامس. وبعد أن سرت بضعة أمتار لمحت ضوءا يشير الى (فندق القولوا) الواقع في زنقة (شارع) حمص المتفرعة عن محمد الخامس. ولما كنت متعبا توجهت اليه وأخذت فيه غرفة بأحد عشر درهما. ورغم تعبي فلم أستطع أن أنام قبل أن أخرج وأسير قليلا في هذه المدينة التي سمعت عنها الكثير. فخرجت

أتجول وحدي في اتجاه جامع السنة (ولم أكن قد وصلته ولا عرفته في تلك الليلة)، وكان بصري لا يكاد يقع على الأرض، فقد كان معلقا في اللافتات وأسماء الشوارع والبنايات والأضواء الباهرة، وكنت التفت يمنة ويسرة احيانا في نفس الوقت، وأسير على غير هدى ويكاد من لا يعرفني عندئذ أن يقول عني بأن بي مسا من الهوس. وكان طقس الرباط أكثر لطفا من جو عاصمة الجزائر الرطب، وتتخلل الأنفاس نسمات منعشة يرسلها بحر الظلمات فتكسر من حدة لفح سموم الصحراء المترامية. يضاف الى ذلك روائح الطيب المرسلة من الحدائق والبساتين التي تمتليء بها مدينة الرباط. ولم أعد الى غرفتي الا بعدما انقضى الهزيع الأول من الليل ولم أعد قادرا على السير.

وفي الصباح خرجت حوالي السادسة والنصف من الفندق وشرعت في التجوال في الجزء الأعلى من شارع محمد الخامس (الجزء الذي مشيته البارحة وكأنني أريد التأكد مما رأيت) الى أن وصلت الى جامع السنة. وهو جامع ضخم وحديث مبني على الطراز الأندلسي - المغربي. وقد وجدت مكتوبا عليه أن الذي بناه هو مولاي محمد بن عبد الله سنة 1785م وأن الذي جدده هو الملك الحسن الثاني سنة 1969. ويضاء هذا الجامع ليلا كما تضاء صومعته العالية فيرى من بعيد كأجمل ما تكون الرؤية، وقد قيل لي بأن الفرنسيين كانوا قد خططوا لبناء كنيسة مكانه، ولكن الخطة لم تنجح لمعارضة المغاربة. فبنوا الكنيسة غير بعيد منه، ولكنها ظلت تفتقر الى الموقع الذي يمتاز به الجامع. وتوجد على يمين هذا الجامع ثانوية مولاي يوسف (اليوسفية). وعلى جنبات هذا الجزء من شارع محمد الخامس عدد من المنشآت الادارية والتجارية الهامة، كالبريد المركزي، ومجلس النواب، والبنك المغربي، ووزارة الاعلام وشركة طيران المغرب، وبعض دور السينما والفنادق، ومركز الشيكات، وغير ذلك. وفي وسط الشارع حدائق غناء تكسوها الخضرة وتعلوها الأشجار الباسقة. وتتفرع منه شوارع تحمل أسماء المدن العربية العتيقة والعواصم الحالية. مثل القاهرة وعمان ودمشق وجدة والطائف والقدس وبيروت وحلب وحمص. وهو تقليد أجاد فيه المغاربة وهو بلا شك مظهر من مظاهر العراقة والمحافظة على التراث العربي الاسلامي الذي سأتحدث عن بعضه.

وعندما فتحت المدينة أبوابها على الساعة الثامنة توجهت الى الخزانة العامة (المكتبة الوطنية) بحثا عن المخطوطات التي جئت من أجلها. وقد وجدتني خارج سور المدينة القديم في حي غارق في الأشجار المعشوشبة المخضرة، وتطل منه المنازل البيضاء الناصعة كأنها بقايا كثبان الثلج في غابة من غابات الشمال. وكانت الخزانة العامة تقع بالقرب من كلية الآداب لجامعة محمد الخامس، وتقع الكلية بدورها بالقرب من وزارة التعليم والفنون الجميلة. والى جانب قسم المطبوعات يوجد قسم الوثائق (المخطوطات) الذي هو ضالتي. وفي قسم الوثائق قضيت معظم أوقاتي ووجدت كل التسهيلات التي لم أكن أتصورها، وتعرفت في هذا القسم على بعض العاملين فيه، وبالخصوص الشيخ مولاي الطاهر الذي قضى ردحا من حياته عاملا فيه حريصا على كل ورقة فيه، عارفا بالموجود من المخطوطات والمفقود منها. وهو لا يبخل بمعارفه ولا يتوقف عن فلي البطاقات وتسجيل الأرقام الصادرة والواردة من المخطوطات، ومراجعا ما استرد منها وما بقي على ذمة أصحابه، متصرفا تصرف من هو على يقين بأنه أمين على أشياء ثمينة وان تلفها خسارة لبلاده وخسارة للعلم في آن واحد، وهو لا يفعل كما يفعل بعضهم في بلاد أخرى حيث لا وجود حتى لقاعة خاصة لمطالعة المخطوطات! ومنذ ذلك اليوم بدأت أطلب المخطوطات الجزائرية التي وجدت منها هناك ثروة لا تقدر بثمن. وكنت أعرف أسماء بعض هذه المخطوطات من قبل كما أعرف أرقامها في الخزانة، ولكن بعضها قد اكتشفته بعد ممارسة للبطاقات والتعرف على ما تحتويه المكتبة من ذخائر ونوادر.

كنت حريصا أثناء اقامتي بالمغرب على توفير كل وقتي للبحث الذي جئت من أجله. لذلك تفاديت لقاء الأشخاص والاتصال بالاصدقاء. وبالاضافة الى البحث فقد كنت أعرف أن الفصل كان وقت عطلة للمدارس والجامعات، بل ولبعض الموظفين في الادارات. ومع ذلك التقيت بعدد من المغاربة والجزائريين هناك بطريق الصدفة. من هؤلاء الاستاذ محمد ابراهيم الكتاني رئيس قسم المخطوطات بالخزانة العامة، الذي التقيت به عند خروجنا من المكتبة منتصف النهار. وقد سبق لي أن عرفت الأستاذ الكتاني في مؤتمر كتاب المغرب العربي الذي انعقد بطرابلس بليبيا سنة 1969، ولذلك لم يشعر أي منا بالغربة عن الآخر. والاستاذ الكتاني عضو

فعال في الخزانة العامة، يستفيد منها وتستفيد منه. وقد زرته في اليوم التالي بمكتبه بالخزانة فوجدته محاطا بأكداس من المخطوطات والمطبوعات القديمة وصناديق البطاقات حتى خيل الي ان الكتب هي طعامه وشرابه وكساؤه ووطاؤه. وقد أهداني بهذه المناسبة بعض أعماله الأخيرة منها :

1) أبو عبد الله بن المناصف، المجتهد المغربي، فصلة من مجلة (الباحث) عدد 2، 1972، ص 1 ـ 72 .

2) العثور على الورقات الأخيرة من كتاب البيان المغرب لأبن عذاري المراكشي، فصلة من مجلة (تطوان) عدد 10، 1965، ص 237 ـ 244.

3) سلفية الامام مالك ، دراسة في 39 صفحة . (دون ذكر مكان طبعها ، ولا تاريخ) .

4) بمناسبة مرور عشرين سنة على تأسيس جمعية العلماء، دراسة في 8 صفحات على الآلة الراقنة نشرها في جريدة (العلم) المغربية سنة 1951، تحدث فيها بالخصوص عن صلته بالشيخ الابراهيمي. وقد جاء فيها ان للمرحوم الابراهيمي كتبا مخطوطة منها : «كتاب كبير» في المقارنة بين تاريخ العلم بالمشرق وتاريخه بالمغرب، وآخر «مطول» عن الشيخ باديس، كان الابراهيمي قد كتبه في منفاه بآفلو، الخ ..

5) بيان تاريخي من مثقفي المغرب حول سياسة التعليم والغزو اللغوي الاستعماري للمغرب العربي، موقع من 500 شخصية مغربية، الرباط سنة 1970. 45 صفحة .

6) واجب الأمة نحو تاريخها وأبطالها، نبذة في أربع صفحات على الآلة الراقنة عن حياة المرحوم الابراهيمي، وصلة المؤلف به

7) صورة تذكارية بتاريخ 1935 بمدينة الجزائر. وتجمع الصورة الشيخ الكتاني جالسا بلباسه المغربي بين الشيخين ابن باديس والابراهيمي، يحوطهم بعض أعضاء جمعية العلماء البارزين عندئذ كالعقبي والزاهري ومحمد العيد والميلي الخ . وكان الشيخ الكتاني قد جاء الى تلمسان لحضور

المؤتمر الخامس لطلبة شمال افريقية المسلمين باعتباره وكيلا للطلبة الأفارقة بفاس .

وقد أطلعني الاستاذ الكتاني أيضا على نسخة من رسالة كان المرحوم الابراهيمي قد أرسلها اليه سنة 1936 يطلب فيها منه ارسال بعض الكتب والمجلات، ويخبره فيها أيضا أنه (الابراهيمي) بصدد تحقيق كتاب (الكتيبة الكامنة) لابن الخطيب. كما أطلعني الأستاذ الكتاني على مشروع دراسة له عن الشيخ ابن باديس .

وأهدى الي الأستاذ الكتاني أيضا نسخة من كتاب الدكتور عبد الله منصوري الذي طبع في العام الماضي بالفرنسية في فاس. وعنوانه (الفكر الاسلامي في نجدة الانسان الحديث) . وهو في 129 صفحة + 16 . وأخبرني أنه (الكتاني) يملك نسخة كاملة من (فهرس المشرفي) ..

وقد أفهمني الاستاذ الكتاني ان عطلته الصيفية تبدأ يوم فاتح أوت (أغسطس) ولكنه أعطاني بطاقة بعنوانه المنزلي وطلب مني أن أكلمه هاتفيا في كل ما أحتاج اليه. فاستكثرت خيره وأهديته نسخة من كتابي (دراسات في الأدب الجزائري الحديث) لأني أعرف اهتمامه بأدب المغرب العربي ورجال الاصلاح فيه. ومشينا معا حتى وسط البلد ، فكان يتحدث وأنا أستمع ولم أقاطعه الا نادرا، وكان كثير الاطلاع على حركة حزب الشعب والحركة الاصلاحية في الجزائر ورجالها وعلى العلاقة بينها وبين رجال الاصلاح والسياسة في المغرب، وكان له شخصيا دور في ربط هذه العلاقة حيث كان يتردد على تلمسان ويعود بالآراء التي تمثل وجهة نظر الجزائريين في القضايا المشتركة. وقد ذكر لي أسرارا عن خطط الشيخ باديس لو طال به الاجل وعن الشيخ الابراهيمي مما جعلني أتأكد من أن كثيرا من الجزائريين يجهلونها. وليت الأستاذ الكتاني يكتب مذكراته عن فترة الثلاثينات والاربعينات حتى يستفيد منها الجيل الصاعد وحتى لا تضيع كثير من الحقائق في صدور الرجال .

ومن الجزائريين الذين التقيت بهم في المكتبة الآنسة نادية داودي، وهي تعد أطروحة في النثر الفني الجزائري خلال القرن الماضي وأوائل الحالي لنيل شهادة

دكتوراه الدرجة الثالثة من جامعه الجزائر. والتقيت أيضا بالاستاذ محمود بوعياد مدير المكتبة الوطنية الجزائرية الذي جاء يبحث عن نسخ جديدة من كتاب الحافظ التنسي (نظم الدر والعقيان). ويعمل بوعياد على الجزء التاريخي من هذا الكتاب لنيل دكتوراه الدرجة الثالثة في التاريخ من جامعة الجزائر أيضا . وقد قال لي بأنه يعرف الرباط جيدا لأنه كان قد عاش طويلا في المغرب. وذات يوم جاء الأستاذ الهاشمي التجاني الى المكتبة أيضا. وكنت أعرف أنه يعد لدكتوراه الدولة بفرنسا في موضوع فلسفي، لكني أجهل عنوان بحثه بالضبط. وهو أيضا من الذين يعرفون المغرب لأنه عاش فيه طويلا بل أظنه من مواليده. والتقيت أيضا بالأستاذ عبد الملك مرتاض رئيس قسم اللغة العربية بآداب وهران. وكان يبحث في قسم المطبوعات عن مادة بحثه لدكتورا الدولة في الأدب من جامعة محمد الخامس بالمغرب عن النشر الفني الجزائري خلال عهد الاصلاح .

ورأيت وأنا في المكتبة شخصا كبير السن طويل القامة أبيض البشرة مرتديا ثيابا مغربية خفيفة بيضاء وحذاء أصفر. جالسا في ناحية منعزلة من القاعة. وكان يرفع صوتة اذا تحدث، ومنذ دخوله القاعة والعمال يسلمون عليه بتقبيل اليد وأحيانا الرأس. وكانت الكتب تحمل اليه في لمح البصر، وينادي هو بصوت عال فيأتيه بسرعة. ثم يتبسط في الحديث ويجلس عنده أحيانا ثلاثة أو أربعة من رواد المكتبة ، وينقطع صمت القاعة بالحديث عن مسائل فقهية أو أدبية أو معاصرة. وعندما سألت عنه قيل لي أنه الأستاذ عبد السلام الفاسي أحد أعيان المغرب وأحد الوزراء السابقين .

وتعرفت على الأستاذ محمد حجي ، وقد تفضل الأستاذ ابراهيم الكتاني بتقديمنا لبعضنا. والاستاذ حجي يدرس التاريخ في آداب جامعة محمد الخامس. وقد علمت أنه كتب رسالة نال بها الدبلوم في التاريخ عن (الزاوية الدلائية) ودورها في تاريخ المغرب وكم تمنيت لو اطلعت عليها، ولكن الحظ لم يسعفني. وتذاكرت معه قليلا لأنه كان أيضا في العطلة. تحدثنا عن مستوى الثقافة في المغرب العربي على عهد العثمانيين . و سالته عن كتاب (العكازين) الذي ألفه القسنطيني خلال القرن السادس عشر والذي جئت للبحث عنه في المغرب .

وأثناء وجودي في الخزانة العامة دخل شيخ طاعن في السن على رأسه قبعة رمادية (رغم الصيف)، ويميل الى القصر، وعليه سمة المصريين. انه الاستاذ عبد الله عنان المؤرخ المصري المعروف الذي اشتهر بآثاره عن تاريخ المغرب والاندلس. جاء الى قسم الوثائق يستعلم عن مخطوط قديم ويحاول الحصول عليه. وعندما عرفه الشيخ مولاي الطاهر قام له وقدم له الخدمات الضرورية. وكنت قد رأيت الاستاذ عنان في الطائرة التي جاءت الى المغرب. فقد كان في الجزائر يحضر الملتقى السابع للتعرف على الفكر الاسلامي، ثم توجه الى المغرب للبحث والدراسة، ولعله قد توجه الى الأندلس (اسبانيا) بعد ذلك. وقد تذكرت عندما رأيت ما عليه هذا الشيخ من الحيوية والنشاط والانتاج شيوخ الجزائر وهم من الكسل العقلي وجمود القريحة وخمول الذكر. ما يفجر قلب الصخر.

معظم المثقفين المغاربة يعرفون الاستاذ محمد المنوني. يعرفونه حيا عاملا في صمت، ويعرفونه كذلك مؤلفا باحثا خبيرا بالمخطوطات، وأستاذا في احدى الثانويات. وكنت قد سمعت به في الجزائر، بل ورأيت له بعض المقالات عن المخطوطات المغربية. ولكن الوقت، كما لاحظت في البداية، كان وقت عطلة صيفية عامة، ولذلك لم أتعرف على الأستاذ المنوني الا في اليوم الأخير لي في الخزانة العامة حيث جاء اليها في زيارة خاطفة. وقد أخبرني أنه أصدر حديثا كتابه (يقظة المغرب الحديث) الذي وصل فيه الى سنة 1930، وأنه بصدد نشر الجزء الثاني من هذا العمل. ورغم قصر الوقت فقد سألته عن رحلة ابن طوير الجنة المغربي التي تحدث فيها عن الجزائر في بداية الاحتلال فوعدني بالبحث عنها. ولو طالت مذاكرتي للاستاذ المنوني لاستفدت منه معلومات جمة عما جئت من أجله، ولكني عرفت منه أنه سيعود الى عمله بعد يوم فقط من مغادرتي للمغرب، أي يوم 1973/8/20.

وخلال الأيام الأولى بالمكتبة رأيت شيخا طويل القامة أسمر اللون، مرتديا جلابة مغربية وطربوشا، كان ينسخ كتابا لا أدري ما اسمه. وحمله كثرة ترددي على المكتبة على السلام علي فكنت أرد التحية من بعيد بالايماء. الى أن عرف انني من الجزائر، فتقدم مني ذات يوم وسلم ثم شكا إلي أنه كان قد أرسل مصحفا ومخطوطة عن تاريخ الجزائر القديم الى أحد المسؤولين الجزائريين ولم يصله رد وقال انه سيرسل معي نفس الشيء الى المسؤول (الذي سماه لي)، ولكنه في النهاية

لم يفعل وانقطع عن المكتبة. وقد حدثني أن أسرته من تلمسان وانها هاجرت منذ حروب الأمير عبد القادر . وعندما طلبت منه ان يكتب لي اسمه وعنوانه كتب في دفتري ما يلي : «محمد ابن تازروالت التلمساني من سلالة المهاجرين من القطر الجزائري، تاريخ الاحتلال الفرنسي، وكان تاريخ الهجرة الى فاس يوم الاربعاء 24 من رمضان 1250 موافق سنة 1830 ميلادي (كذا) ..»

ـ 3 ـ

وقد اعتدت أن أتجول في المدينة مساء بعد عناء النهار جلبا لراحة عيني . وأصبحت أتجه، بعد التعرف على خطة المدينة، نحو الأحياء الشعبية. وذات مساء كنت أتجول في الجزء الشعبي من شارع محمد الخامس فقادتني رجلاي الى مكتبة كبيرة هي مكتبة الطالب لعبد القادر المكناسي. ونظرت في واجهتها فاذا كتب كثيرة حديثة وقديمة عن المغرب منها (الترجمانة الكبرى) لأبي القاسم الزياني و (تاريخ البيدق). ودخلت أتصفح بعض الكتب فوجدت نسخة مجلدة سليمة من كتاب (تحفة الزائر) للأمير محمد باشا في طبعته الأولى (1903)، وسألت عن الثمن فقيل لي خمسة وعشرون درهما. وهذا في الواقع ثمن زهيد بالنسبة لقيمة الكتاب ومع ذلك لم أقدم على شرائه لعدم وجود النقود معي من جهة ولأني كنت اشتريت منه نسخة بالقاهرة سنة 1970 بثماني جنيهات كاملة . وفي هذه المكتبة عرفت أن كثيرا من المثقفين الجزائريين يترددون هناك، وقد أروني طرودا من الكتب جاهزة للارسال في اتجاه الجزائر برسم وزارة الثقافة. وعرفت ان هذه المكتبة بمثابة ملتقى لبعض مثقفي الجزائر والمغرب، ولا سيما من الجيل الماضي. ومن الأسماء التي وردت على الألسن عندئذ المشائخ عبد الله الجراري والد صديقنا الدكتور عباس الجراري، وعبد الوهاب بن منصور، ومحمد خير الدين، وأحمد توفيق المدني ..

وعند خروجي مرة من هذه المكتبة صادفت الدكتور عبد الكريم كريم أستاذ في التاريخ بآداب جامعة محمد الخامس ومسؤول المكتبات بوزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية والثقافة المغربية. وكنت قد تعرفت على الدكتور كريم في الربيع الماضي عندما جاء ضمن الوفد المغربي للمشاركة في الأسبوع الثقافي المغربي في بلادنا وفي لجنة التراث التي اجتمعت بالجزائر وضمت ممثلين عن أقطار المغرب العربي

الثلاثة. والدكتور كريم شأن كثير من أساتذة التاريخ في العالم يحب بلاده ويحاول اقناع الآخرين بحبها. وهو يتكلم باندفاع وحماس شديد ، وعندما عرف اني حديث عهد بالموصول الى المغرب أخذني في جولة على الأقدام في الحي الشعبي. فأراني مرتفع (العلو) من المدينة حيث دخل الفرنسيون ساعة اعلان الحماية على المغرب، وسور الأندلسيين الذي يحيط بالرباط. وحارة اليهود القديمة التي يسمونها الملاح (بتشديد اللام)، وشارع سيدي فاتح وبعض الفنادق حيث كان سفراء وقناصل الدول الأجنبية ينزلون في العهود القديمة.ورأيت هناك ميزانا ضخما قديما معلقا في سقف البهو. ومررنا بخانات عتيقة يسمونها (التربيعة) حيث كان يجلس المغاربة كما في العهود السالفة يشربون القهوة أو الشاي ويلعبون الورق . وعلى مشارف هذا الحي القديم رأيت على بعد قليل مدينة سلا تتلألأ أنوارها وتنعكس على صفحة مياه المحيط فتزيدها رهبة وجلالا. وقد أخبرني زميلي كريم ان مدينة سلا لا تبعد أكثر من ثلاثة كيلو مترات عن الرباط. كما أخبرني أن وفدا جزائريا يتكون من السادة عبد الحميد، سقاي، ومولود معمري وبغلي قد غادر المغرب حديثا وكان قد جاء للمشاركة في ملتقى الآثار المغربي المشترك .

ولم يبخل علي الدكتور كريم بوقته وامكانياته. فقد تجول بي في حي السويقة المليء بالخضر والبقالة والدباغة والذهب واللحوم ... وكان كل مرة يتقدم من الباعة ويسألهم في جرأة كبيرة عن الأثمان فيجيبونه مبتسمين أو متعجبين بالثمن الحقيقي أو القريب منه. وكان أحيانا ينادي الباعة بأسمائهم ويسلم عليهم دليلا على خبرته بالمكان وبأهله. ويلاحظ المرء وفرة البضائع وتنوعها ورخصها في المغرب، كما يلاحظ رحابة صدر الباعة وتأدبهم مع المشترين . ومن الملاحظ كذلك أن الأسعار تخضع للمساومة وحذاقة كل من البائع والمشتري . ولم يفارقني الدكتور كريم في هذه المرة الا وقد انهكني التعب عقليا من عمل النهار وبدنيا من جولان الليل .

ولكن خدماته لي لم تنته عند ذلك الحد. في صباح الغد حدثني مولاي الطاهر في المكتبة بأن الدكتور كريم قد هتف له من الوزارة وأوصاه بي خيرا. وبعد بضعة أيام جاءني الى الفندق وانضم الينا الأستاذ حسن الزهراوي المراكشي الذي كان يقضي بضعة أيام في نفس الفندق. وهو شيخ متقاعد يعمل في وزارة الثقافة والأوقاف والشؤون الاسلامية أيضا. وكان يرتدي الثياب المغربية. والأستاذ الزهراوي يعرف

الكثير عن الجزائر لأنه كان قد عاش فيها وعلم بالزاوية السنوسية بمدينة مستغانم، وكان قد قرأ لكتابها وعرف وجهات نظرهم، وما زال مثلا يذكر رأي الأستاذ توفيق المدني في العثمانيين منذ قرأ كتابه (محمد عثمان باشا) وقد جلسنا في بهو الفندق واحضر لنا الشاي الأخضر وسهرنا حتى قرب العاشرة ليلا. وتناولنا موضوعات شتى كالتأليف المدرسي والتعريب في الجامعة ونشر الكتب وحوادث التاريخ والرحلات. وبينما كان الدكتور كريم مندفعا في حديثه لا يكاد يترك المجال لغيره كان الأستاذ الزهراوي هادئا ينصت أكثر مما يتكلم. وتحدث الدكتور كريم بالخصوص عن عصر المنصور الذهبي الذي كتب فيه أطروحة الدكتوراه، وهو العصر الذي يوافق بداية العصر العثماني في الجزائر.

وتحدث زميلي كريم بحماس عن كتاب عبد العزيز الفشتالي الذي حققه ونشره بعنوان (مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا). وقد أهداني نسخة منه. وهو من مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية والثقافة لسنة 1973 ويقع في 307 صفحات بدون الفهارس. وقد كتب له مقدمة في 24 صفحة. وفي الكتاب أخبار كثيرة عن العلاقات الجزائرية المغربية خلال القرن السادس عشر الميلادي. وأرجو أن تتاح لي فرصة التعريف أكثر بهذا الكتاب. وقد مكنني الدكتور كريم من عمل ثمين تقوم به الوزارة هنالك وهو فهارس المخطوطات المغربية في مختلف المكتبات بالبلاد. وبفضل هذا العمل أصبح في امكان الباحثين ان يطلعوا على ضالتهم من المخطوطات حيث يوجدون بدون تجشم عناء السفر والاجراءات المرافقة له. ورغم بعض الهنات المطبعية الواردة في هذا العمل فان المشروع في حد ذاته عمل جليل وقد رأيت من هذا العمل فهارس مخطوطات مكتبة القرويين (ما زال غير كامل)، ومكتبة ابن سودة، وخزانة الجامع الكبير بمكناس، والمكتبة العامة بتطوان، وزاوية تنعملت، وخزانة الجامع الكبير بتازة، وخزانة ابن يوسف بمراكش، وخزانة تارودانت.

وقد أطلعني أيضا على نسخة من فهرس المخطوطات العربية في مكتبة الأسكريال (مدريد)، وهي في ثلاثة أجزاء أهداها له على ما أظن الملحق الثقافي الاسباني. غير أن هذا الفهرس قديم وهو مصور على نسخة ليفي بروفنسال. وأعتقد

أن في الجزائر نسخة منها أصلية. وذكر لي الزميل كريم بأنه يعمل الآن على اعداد فهرس لمصادر تاريخ المغرب .

وكما لم يبخل علي الزميل كريم بعلمه فانه لم يبخل علي بطعامه. فقد دعاني للغداء على مائدته. وقد حملني من الفندق في سيارته الى حي الليمون الجميل، وهو حي تكسوه الخضرة ومعظم مساكنه من المغاني (الفيلات) ذات الطابقين، ناصعة البياض وسط الأشجار الباسقة. وتوجد في هذا الحي بعض السفارات الأجنبية. أما اسم الشارع الذي يسكنه فهو أبو نواس وكان الفرنسيون يطلقون عليه اسم الفريد دي موسيه . ودخلنا المغنى فوجدت العمال يتناولون الغداء . وحولهم أدوات البناء. وقد أخبرني الزميل كريم بأنه يوسع من المسكن بزيادة طابق فيه، وأنه كان قد اشتراه منذ سنوات بطابق واحد، وان وسائل البناء عندهم متوفرة وكذلك الامكانيات كالسلفة للبناء ونحوه. كما علمت منه أن مرتب الأستاذ الجامعي في المغرب قد يصل الى ما يعادل أربعة آلاف دينار جزائري شهريا. لذلك لم أستغرب ان يقدم مثله على هذا المشروع الذي لا يقدم عليه الأستاذ الجزائري الا في الاحلام! وبعد التجول في حديقة المسكن توجهنا بالسيارة أيضا الى منزل صهره حيث تقيم أسرته مؤقتا في انتظار نهاية أشغال البناء. وهناك تناولنا الغداء بالأيدي كعادة المغاربة وكان ثالثنا ابنه جلال وهو تلميذ في الثانوية بينما ابنه الثاني الصغير، طه، يلعب من حولنا. وكان الحديث عن حملة استرداد الاراضي من الأجانب في المغرب وعن عيد مولاي ادريس الأكبر الذي كانت الاستعدادات جارية له في زرهون .

ـ 4 ـ

كنت قد تعرفت على الدكتور عباس الجراري في دمشق سنة 1971 أثناء مؤتمر الكتاب العرب، ثم عندما جاء الى الجزائر محاضرا خلال العام الماضي بدعوة من قسم اللغة والثقافة العربية بآداب جامعة الجزائر. وقد عرفت فيه التواضع الجم والباحث المجد. وسبق لنا أن تهادينا الكتب. ومما أهداني كتابه عن (الزجل في المغرب ـ القصيدة) الذي نال به شهادة الدكتوراه في الآداب من مصر. (ط. المغرب، 1971، 715 صفحة). ثم تتالت علي كتبه وأبحاثه : من وحي التراث

(ط. المغرب، 1971، 184 صفحة).والثقافة في معركة التغيير (ط. المغرب، 1972، 195صفحة). وموشحات مغربية (المغرب، 1973،؟ صفحة). وهو الآن أستاذ كرسي الأدب المغربي في آداب جامعة محمد الخامس مع عناية خاصة بالأدب الشعبي على مستوى المغرب العربي. ولهذه الاعتبارات كان السؤال عنه من المروءة. ولكني عرفت عند وصولي الى الرباط أنه كان مع أسرته ووالده في افران يقضون جزءا من عطلة الصيف. وبينما كنت ذات ظهيرة خارجا من المكتبة وجدته على أهبة الانطلاق بسيارته بعد أن جاء يتفقد بريده في كلية الآداب المجاورة . وقد أبى إلا أن يدعوني حالا للغداء في منزله الواقع بحي آكدال الذي يشكل مع حي الليمون وحي السويسي المناطق السكنية الراقية في الرباط. وأكدال تعني باللهجة المحلية (كثير الشجر) أي الغابة . ومنزله عبارة عن شقة حديثة في بناية جديدة ذات ثلاثة أو أربعة أدوار. وأدخلني مكتبه الغني بأنواع الكتب والتحف والصور. (وقد كان يعمل في الخارجية قبل أن يلتحق بالتعليم). وتناولنا الغداء بمشاركة حرمه التي تشتغل بالمحاماة وأطفاله الثلاثة محمد وألوف وعلا. وكانت حرمه عندئذ تحامي في محاكمة القنيطرة، بينما كانت تجري محاكمة أخرى في الدار البيضاء.

وقد أتاح لي الدكتور الجراري التعرف على نواحي كثيرة من المغرب الثقافي والاجتماعي، بل أنه بكرمه وعلمه سهل مهمتي ووفر علي كثيرا من الاتعاب. في أحد الأيام أقام لي مأدبة غداء دعا اليها أيضا أصدقاءه وأصدقائي الأساتذة : محمد برادة الذي كان عائدا لحينه من فرنسا بعد ان نال شهادة دكتوراه الدرجة الثالثة في النقد الأدبي برسالة عن أثر الناقد المصري محمد مندور . على ما أذكر . وابراهيم السولامي الذي أعد رسالته لنيل دكتوراه الدور الثالث عن (الشعر الوطني المغربي) في كلية الآداب بجامعة الجزائر . وكان يستعد لمناقشتها . وعبد الملك مرتاض رئيس قسم اللغة والثقافة العربية بآداب جامعة وهران. وكانت جلسة ممتعة تناولنا الطعام الشهي الذي تفننت في إعداده حرم الدكتور الجراري وأبرزت فيه
تناولنا الطعام الشهي الذي تفننت في اعداده حرم الدكتور الجراري وأبرزت فيه
كل محاسن الطبق المغربي . وكنت أعرف الأستاذين برادة والسولامي منذ مؤتمر كتاب المغرب العربي في طرابلس 1969. والأول ناقد وله مشاركة في كتاب

(فرانز فانون أو معركة الشعوب المتخلفة، المغرب ، بدون تاريخ، 132 صفحة). والثاني شاعر وله ديوان مطبوع بعنوان (حب، تطوان 1967، 104 صفحات) وكلاهما كان قد أهداني نسخة من عمله منذ 1969. ويمثلان، مع الدكتور الجراري، وكوكبة أخرى من الزملاء المغاربة، المثقفين الحريصين على تثبيت دعائم التعريب من جهة والانطلاق بالفكر المغربي في آفاق التجديد من جهة أخرى.

وفي احدى الجولات عرج بي صديقي الجراري بسيارته على الأحياء الهامة من مدينة الرباط. ومن هذه الأحياء باب شالة، والمشور (حيث القصر الملكي)، وحي السويسي حيث الحي الجامعي الجديد ومستشفى ابن سينا الضخم. وقد مررنا بفندق هيلتون حيث تنعقد المؤتمرات الدولية بالمغرب، وبالمرسى القديم لمدينة الرباط الذي اختفت معالمه الآن ، وبالوداية والعلو ، وحي يعقوب المنصور الشعبي ، وحي المحيط الذي كان يسكنه الاسبان. وكان الصديق الجراري أثناء كل ذلك يصف لي معالم المدينة ويحدثني عن خصائص كل حي. ثم ابتعدنا عن المدينة بحوالي اثنى عشرة كيلومترا فوصلنا شاطيء (تمارة) السياحي حيث المغاني (الفيلات) والمقاهي وفندق وسوق. الخ. وجلسنا في احدى المقاهي نتناول مبردات، وكنا في مواجهة المحيط الأطلسي. وقد أخذتني قشعريرة ورهبة وأنا أسرح ببصري وراء المنظور. وكانت الأمواج تعلو وتنخفض فلا تسمع الا تصفيق الماء على الصخور. وكان الليل قد أسدل ستائره على المنطقة وتراجع السابحون عن الماء الى السوق والمقاهي والمنازل، لأن رهبة المحيط وظلام الليل أقوى من طاقة الانسان. وقد سبح خيالي أحيانا وشعرت بأهمية هذا الموقع من العالم العربي والاسلامي بالنسبة للاطماع الدولية القديمة والمعاصرة .

واقتضاني البحث الاطلاع على ما في المكتبة الملكية من مخطوطات حول موضوعي. وخاطبت صديقي الجراري في ذلك فرافقني الى هذه المكتبة الواقعة في حرم القصر الملكي نفسه. وقد علمت أنها كانت مكتبة خاصة بالقصر ولم تفتح أبوابها للباحثين الا في السنوات الأخيرة. وهناك تعرفت على الأستاذ محمد داود مدير المكتبة الملكية ومؤلف موسوعة (تاريخ تطوان) التي بلغت حتى آلان أربعة عشر جزءا. كما تعرفت على الأستاذ مولاي أحمد العلوي نائب المدير والأستاذ محمد الروداني أحد المحققين والعاملين بالمكتبة. وقد رحبوا بي أحر ترحيب وفتحوا

لي أبواب المكتبة وأمروا العمال بوضع جميع الفهارس تحت تصرفي. بما في ذلك فهرسة المكتبة الزيدانية. ودار الحديث بيننا عن المكتبة وتنظيمها الجديد، وعن الحركة الفكرية في الجزائر. وعن الصلات الثقافية بين البلدين. وقد لاحظت أن مثقفي المغرب عموما يشكون من قلة الاخبار عن الحركة الثقافية بالجزائر. وذهب بعضهم الى أن ذلك يعود الى اختلاف نظم الحكم. وقد أجبت الجميع بأننا في الواقع نشكو نفس الشيء عن الحركة الثقافية بالمغرب وأنه يعود في نظري الى سوء تطبيق مفاهيم الوحدة الثقافية بين أقطار المغرب العربي. والى عجز الأجهزة المسؤولة على التوزيع والنشر في أداء مهمتها .

وقد تذاكرت مع الأستاذ محمد داود في حياة الشيخ أحمد الورززي التطواني الذي قد زار الجزائر في القرن الثاني عشر للهجرة، وفي رحلة ابن حمادوش الجزائري الذي زار تطوان ومدن فاس ومكناس خلال نفس الفترة. وكان الأستاذ محمد داود طليق اللسان متواضعا لا يبخل بمعارفه. بل انه لم يبخل علي بسيارته التي كان يدعوني الى مرافقته فيها عند الخروج الى وسط المدينة تفاديا لوهج الشمس واختصارا للمسافة. وكانت هذه المرافقة فرصة لاستئناف الحديث عن البحث العلمي في المغرب وفي الجزائر. أما الأستاذ أحمد العلوي فهو أديب، خبير بخفيات المكتبة عارف بأنواع الخطوط مطلع على تاريخ وأحوال المغرب. وقد التجأت اليه في عدة مرات لفك تاريخ غامض أو لقراءة كلمة أتت عليها الأرضة، أو لحل لغز اسم مؤلف مطموس. فكان يجود بما عنده بدون تحفظ وبكل تواضع .

وقد لاحظت أن المكتبة كانت مقصدا للباحثين من المغاربة والمشارقة والأروبيين. واذكر أنني رأيت وأنا هناك الأستاذ يوسف خياط من لبنان يدعو الى مساندة عمله في قاموس (لسان العرب) لأبن منظور. ولاحظت باحثا أجنبيا يتردد على هذه المكتبة (وكذلك على الخزانة العامة) وعندما سألت عنه قيل لي انه مستعرب روسي يسمى ماكسيم كيكتيف، وهو أستاذ الآداب العربية في جامعة موسكو. وقد جاء الى المغرب للاطلاع على نسخة نادرة من ديوان المتنبي الذي يقوم بتحقيقه. وكان الأستاذ كيكتيف يحي الجميع بأدب بالعربية وكان يسأل المشرفين على بعض غوامض التراكيب عند المتنبي . وقد تذكرت عندئذ قول المتنبي عن قوافيه :

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

ورافقني صديقي الجراري مرة لزيارة الأستاذ محمد بن عبد الله مدير مجلة (دعوة الحق). وقد وجدته راجعا لتوه من الجزائر بعد أن حضر الملتقى السابع للتعرف على الفكر الاسلامي. وقال لي بأن هذه كانت أول زيارة له للجزائر. وقد أبدى اعجابه ببعض علمائنا أمثال الشيخ أحمد حماني الذي دافع في الملتقى المذكور على الاتجاه العربي الاسلامي للجزائر ضد اتجاه المتبربرين الذين يستعملون الدين لضرب القومية العربية . والشيخ المهدي البوعبدلي الذي قرأ له تحقيق كتاب (الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني) لابن سحنون . والشيخ المرحوم نعيم النعيمي (الذي عرفه قبل وفاته) لتبحره في علوم الفقه والأخبار ودار الحديث حول أهداف الملتقى المذكور وتكاليفه، وتطرق الى الحياة الثقافية في الجزائر وفي المغرب. وقد أهداني العدد الأخير من مجلة (دعوة الحق) التي بلغ عمرها ست عشرة سنة والتي تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية والثقافة، وهي من أقدم المجلات الحية في المغرب وتلتف حولها نخبة من كتاب المغرب العاملين في حقل الدراسات الاسلامية والتاريخية والقانونية . ولفت نظري في هذا العدد (يوليو 1973) مقالة عن الشيخ عبد الحميد بن باديس بقلم الأستاذ الحاج أحمد معنينو. وقد ودعت الأستاذ بن عبد الله وهنأته بالسلامة لنجاته من الحادث الذي فقد فيه سيارته .

وكان يوم الأحد 13 أوت 1973 يوما مليئا بالتجارب. انه يوم الدار البيضاء! فقد توجهت اليها رفقة صديقي الجراري بسيارته. وكانت معنا أسرته وخادمته. وأخذنا طريق الصخيرات. وقد رأيت هناك من بعيد القصر الملكي الواقع مباشرة على شاطيء المحيط، ولا تظهر منه لراكب السيارة سوى بعض القباب والجدران وبعض المداخل المحروسة . أما باقيه فتحجبه الأشجار . ورأينا في الصخيرات أيضا مجموعة من المغاني (الفيلات) التي قيل ان الطبقة المغربية الغنية تسكنها. ومررنا على وادي ايكم ووادي شراط ووادي المالح. وظهرت لنا مدينة المحمدية على بعد قريب. كما مررنا على قرية بوزنيقة التي بدأت تكتسب أهمية لوقوعها في مفترق الطريق الرابط بين الرباط والدار البيضاء. وكان الطريق جيدا والأرض منبسطة ماعدا بعض التعاريج القليلة عند عبور جسور الوديان المذكورة. ويستطيع المرء ان يلاحظ بسهولة بعض مظاهر الريف المغربي. والظاهرة البارزة أنه خلافا للريف الجزائري

مازال محافظا على طابعه التقليدي. وقد أحسست بالارتباط بالارض تماما كما أحس به عندما أجتاز سهل متيجة أو الهضاب العليا في الجزائر.

وصلنا الدار البيضاء، حوالي العاشرة صباحا. لم نقض في الطريق سوى ساعة وربع. وترك صديقي الجراري أسرته عند أصهاره، عائلة الصائغ، وذهبت واياه نتجول في المدينة الكبيرة. وأول حي توقفنا فيه هو درب السلطان. وهو حي مليء بالمكتبات العربية من أعلى طراز، حيث توجد أحدث الكتب المغربية والمصرية واللبنانية. ومعظم ملاك المكتبات من المغاربة، ولكن هناك أيضا لبنانيون وفلسطينيون. ومن أسماء المكتبات العالقة بذهني: دار الارشاد، دار الوحدة، دار الثقافة، دار احياء علوم الدين، دار الفكر، دار الكتاب، الخ.. ومن سوء الحظ أن هذه المكتبات تغلق أبوابها يوم الأحد. وقد رأيت هناك كتابين للأستاذ محمد الميلي طبعا في لبنان وهما: (فرانز فانون والثورة الجزائرية)، و (ابن باديس وعروبة الجزائر). ولا أذكر أنني رأيتهما في الجزائر قبل ذلك. ومن المناسب أن أذكر بأنني رأيت في المغرب مجلة (الثقافة الجزائرية تباع. أما مجلاتنا الأخرى فلم أرها أثرا. ولا تصل جريدتا (الشعب) و(المجاهد) اليومية الا بعد أسبوع أو أكثر من صدورها. وقد رأيت هناك أيضا جريدة (الجزائر الأحداث). ومن ثمة عذرت المغاربة عندما يشكون من عدم وصول انتاجنا اليهم. ولا شك أن انتاجهم الينا يعاني نفس الظاهرة عندنا.

والدار البيضاء مدينة تجارية بكل معنى الكلمة. ففيها الشركات والبنوك المغربية والأجنبية بأعداد ضخمة. ومازالت بعض أسماء شوارعها لم تتغير كما تغيرت أسماء شوارع مدينة الرباط. وفي وسط المدينة حي تجاري للهنود الذين قيل أنهم نزحوا من مدينة طنجة بعد خضوعها للسيادة المغربية. ورأيت لفظة (حلال) مكتوبة بالعبرية على واجهة بعض دكاكين اللحوم. وتتمتع المدينة بساحات حديثة وشوارع فسيحة تتخللها الفوارات والاشجار والحدائق. وفيها مركز تجاري جزائري الى جانب مقر شركة الخطوط الجوية الجزائرية. ويحس المرء في هذه المدينة بأنه في نيويورك أو باريس لولا منافسة العربية للفرنسية في العناوين والاعلانات، ولولا بعض المظاهر الأخرى. ولها أحياء شعبية تعج أسواقها بالخلق حتى أنك تفقد صاحبك وسط الزحام لو تركته يغيب عن عينيك لحظة.

ومن وسط المدينة قصدنا بالسيارة ضواحيها. وقد مررنا على شاطيء المحيط حيث كان الناس يسبحون بأعداد تفوق خلايا النحل أو الطيور المهاجرة. وكأن الأرض صغرت فتجمع سكانها في شاطيء (الرمال الذهبية) و (عين الذئاب). وقد ضاقت المسابح الطبيعية فبنيت الى جوارها مسابح اصطناعية. وكانت السيارات الخاصة تصطف على جانبي الطريق تنافسها الحافلات العمومية. والناس يغدون ويروحون، يبيعون ويشترون. يأكلون ويشربون. يتحدثون ويغنون، نائمون أو سابحون. ومن حين لآخر كانت الأمواج تصعد مترا أو مترين ثم تتراجع وكأنها كانت في صراع مع المستحمين. أوكأنها قد ضاقت ذرعا بحرارة أغسطس التي أجبرت الناس على مغادرة بيوتهم الى المحيط. وفي الطريق الى منزل أصهار صديقي الجراري مررنا بالميناء التجاري الضخم الذي اشتهرت به مدينة الدار البيضاء. وتناولنا العشاء في منزل آل الصائغ على الطريقة المغربية التقليدية، بغسل الأيدي قبل وبعد الأكل، ثم تناولنا الطعام بمقدمة الأصابع في طبق واحد موضوع على صينية كبيرة لامعة، بينما نحن جلوس على الحشايا الوثيرة. ويقع منزل الصائغ قرب درب السلطان في ضاحية سكنية متصلة بالمدينة. وهو عبارة عن مغنى (فيلا) ضخمة من طابقين، وفي القاعة حشايا جلدية ناعمة، وقد زينت الجدران بالزليج الملون المشكل بمختلف الأشكال الهندسية. وفيها اجزاء منقوشة بنقوش مغربية ـ أندلسية. وقد علقت ثريا جميلة كبيرة وسط القاعة. وفي طرفي القاعة مقصورتان فيهما أيضا حشايا من نوع ولون آخر. وعلى الجدران علقت بعض صور الأسرة. ودار الحديث أثناء العشاء حول التقاليد الاجتماعية الجزائرية والمغربية. وكانت لحظات ممتعة تلك التي قضيتها مع هذه الأسرة الفاضلة التي جمعت بين القديم والحديث، كما جمعت بين الكرم العربي والعلم الأروبي .

وحوالي الساعة العاشرة مساء تحركت بنا السيارة نحو الرباط، سالكة طريق المحمدية. وقد مررنا ببعض المنشآت الصناعية مثل مصنع العجلات الذي تديره شركة (جنرال)، ومصنع آخر أظنه للعجلات أيضا باشراف (كوديير) ولكنه مازال لم يبدأ . وقد علمت أن سيارة (فيات) الايطالية يجري تركيبها في المغرب ، وكذلك بعض السيارات الفرنسية. ورأينا على بعد قريب شعلة بترول تلتهب عالية بحذاء المحيط، فكانت تعطي لسكون الليل وظلامه لونا وحياة خاصة. وكان القمر على

يميننا طول الطريق يؤنسنا بتألقه وشموخه وكأنه كان يتحدى جميع الأضواء التي نمر بها، باقيا على تقاليده شيخ النجوم ورفيق العاشقين. ولم نكد نصل حتى كان الأطفال نياما والكبار متعبين . ومع ذلك فقد وجدت حرارة خاصة في يدي وأنا أصافح بها صديقي الجراري على الفرصة الثمينة التي أتاحها لي بزيارة مدينة الدار البيضاء العجيبة .

وفي زنقة (شارع) القاضي عياض بالرباط تعرفت أيضا على الشيخ الأستاذ عبد الله الجراري ، والد صديقي الدكتور عباس، وقد تجاوز الشيخ الستين ولكنه ما زال في حيوية ونشاط ابن الأربعين. وقد قضى سني حياته في الأبحاث الاسلامية والتاريخية، وكنت قد سمعت به من قبل ورأيت بعض أعماله. زرته مرتين رفقة صديقي الدكتور عباس، الأولى للتعرف والثانية للغداء. وقد جلسنا في المرة الأولى بمكتبته الكبيرة التي يعتز بها كل الاعتزاز شأن العلماء العاملين. وهي مكتبة غنية بالمخطوطات والمطبوعات الحديثة والقديمة. وقد اطلعت على بعضها ، بما في ذلك بعض الآثار الجزائرية الهامة والنادرة . والكتب مجلدة، بعضها بطريقة فخمة. والتجليد عندهم جيد ورخيص الثمن بخلاف عندنا . بالاضافة الى أنه صناعة محلية رائجة، ينفنن فيها الحذاق بالخطوط والرسوم العربية الجميلة. وقد عرفت أن الشيخ الجراري يكتب الآن مذكراته ووصل فيها الى سنة 1950. وأثناء شرب الشاي وتناول المرطبات دار الحديث عن الحركة الاصلاحية في المغرب والجزائر، وهي الحركة التي عاصرها الشيخ وساهم فيها . وعن الطرقية والزوايا في البلدين . وعن تجدد بعض العوائد القديمة في المغرب مثل الاذكار والحلقات والرقص الديني كالذي تقوم به جماعة الهداوة والعيساوية. وحضر معنا بالاضافة الى صديقي الدكتور عباس، أخوه عبد الواحد الذي يعمل قاضيا ويواصل دراسته في الحقوق، وأخوه الثاني (لم أذكر اسمه) الذي كان يدرس الطب. أما الشيخ فقد كان حليق الوجه، لطيف الحديث، يلبس نظارة رمادية، وكوفية وثيابا أروبية، وحذاء مغربيا، وكان يرتدي جلابة مغربية فوق ثيابه الأروبية ولكنه نزعها قبل أن ينضم الينا.

أما في الزيارة الثانية للشيخ عبد الله الجراري فقد جمعنا فيها بين لذيذ الطعام وشهي الكلام. فبعد الجلوس في قاعة مفروشة بالزرابي المنمقة والارائك الهشة والمحلاة بالتحف الثمينة ، والمناضد المنقوشة بالزخرفة المغربية الأصيلة ، توجهنا إلى قاعة

الطعام حيث تحلقنا حول مائدة دسمة تبدأ بالبسطيلا المسكرة الملوزة، وتثنى بالدجاج المحمر المتبل وتنتقل الى الكسكسي المصفر بالزعفران الحر والمدهون بأصيل الدهان، وتختم بالفاكهة المنتقاة من خير ما تجود به حقول المغرب المعطاء . ومرة أخرى استغنينا بالأصابع عن الشوك والملاعق، وبالجلوس العربي عن الجلوس الأروبي، وبماء الابريق عن ماء العين. وعلى اثر الغداء عدنا الى قاعة الجلوس حيث شربنا القهوة ثم الشاي، وطاب الحديث وتشجن حتى شمل مواقف بعض العلماء في التاريخ من قضايا بلادهم ونظم حكوماتهم، وظهور وتطور التصوف والانعزال في العصور الاسلامية، وأحوال المغرب وشخصياته الغابرة. وأذكر أن الحديث شمل أيضا أثر الشيخ الجزولي صاحب (دليل الخيرات) في المغرب العربي، والخزرجي صاحب (الخزرجية) المشهورة ، وابن الونان صاحب القصيد المعروفة (بالشمقمقية) التي تباري الأدباء في القديم والحديث في تقليدها، وابن النحوي صاحب القصيدة المشهورة (المنفرجة) التي كنت حديث عهد بشرح العالم الجزائري أحمد النقاوسي عليها، والتي تبدأ هكذا :

اشتدي أزمة تنفرجي   قد آذن صبحك بالبلج

ولا إخالني مبالغا اذا قلت بأن كل مثقف مسؤول في الوطن العربي كان وما يزال يتمثل بهذا المطلع الفريد، والطالع السعيد!

ولعلي لوتماديت في ذكر ما دار في هذا الاجتماع لسال القلم مدرارا، واسودت الصحائف أخبارا . فلأقف عند هذا الحد ، مسجلا في نفس الوقت امتناني وعرفاني لآل الجراري الكرام .

ـ 5 ـ

ويحفل المغرب الى جانب شيوخ العلم ومحافظي المكتبات، الذين هم غالبا من الجيل القديم، بنخبة طموح تحاول الجمع بين أصالة الماضي وجدة المستقبل، بين التراث العربي الاسلامي والعلم الغربي الحديث. ومن الجيل الجديد التقيت بالاستاذ أحمد شحلان. تقابلنا عدة مرات في الخزانة العامة دون أن يكلم أحدنا الآخر، ثم أدى بنا تكرار المقابلة الى تبادل التحية، ثم أدى تكرار التحية الى التعارف وتبادل الحديث . وكان الأخ شحلان يسكن في نفس الفندق

الذي كنت أسكنه، بل وفي نفس الدور. وعرفت أنه يعد في باريس رسالة لنيل دكتوراه الدور الثالث في النحو بعنوان «الدراسات النحوية في المغرب والاندلس على عهد الموحدين» باشراف أحد العلماء الفرنسيين اليهود، ولعله الأستاذ كاهن. وكان الأخ شحلان هو الوحيد الذي ينافسني في الدخول الى المكتبة والخروج منها. فقد كان لا يمل الجلوس ولا يكاد يرفع بصره عن المخطوط الذي بين يديه، ولا يتحرك الا ليسأل الموظفين عن بطاقة أو استعمال ميكرو فيلم أو نحو ذلك. وكان لا ينفك في صراع مع علماء النحو ومؤرخيه أمثال : ابن مضاء واللحمي وابن خروف والسيوطي وأضرابهم ..

وقد أطلعني الأخ شحلان على مخطط بحثه وأبديت له فيه رأيي بطلب منه. وهو متأكد من صعوبة عمله، ولذلك لا يتوقف عن المطالعة وعن تعلم اللغة العبرية التي عليه أن يقارن بين نحوها ونحو اللغة العربية. واذكر اني مرة وجدته في بهو الفندق يقرأ في نسخة من القرآن الكريم مكتوبة بالعبرية قام بترجمتها يهودي هو هارون بن شمس، وظهرت الطبعة الأولى من هذه الترجمة في اسرائيل سنة 1971. وقد لاحظ صاحبي (وأنا لا أعرف العبرية) أن المترجم قد حذف من القرآن كل ما فيه مساس باليهود، وانه قدم وأخر في الترجمة .

وكثيرا ما رافقني الأخ شحلان في غدوي ورواحي ، وفي مطعمي وتجوالي . وطالما حدثني عن مدينته (مراكش) ومباهجها الماضية والحاضرة : سورها القديم ، ومكتبتها الكبيرة ، وصومعة الكتبية التي تعود الى عهد الموحدين ، وعن القصبة العتيقة ، وعن شهير العائلات في المدينة الحمراء . وهو الذي عرفني بأستاذه حسن الزهراوي الذي أشرت اليه والذي كان الأخ شحلان قد قرأ عليه عندما كان الزهراوي استاذا بكلية مراكش . والوفاء للاستاذ من شيم كرام الطلبة . وقد خرجنا ذات مساء نتجول واتجهنا نحو صومعة حسان الشهيرة وضريح المرحوم محمد الخامس . واليك ما كتبت في هذه المناسبة أنقله من يوميتي بتاريخ 4 أوت 1973 بدون حذف ولا زيادة ، لأنني أحس أنني لو بدلت فيه الآن لبردت معانيه ، وهو :

« كانت الشمس قد غربت ولم يبق في الأفق إلا الشفق . وطلع من الشرق القمر الذي أخذ يكبر ، وظهرت النجوم في السماء والمصابيح في الأرض ، هنا في

الرباط وهناك في سلا التي يفصلها (عن الرباط) وادي بورقراق .وظهرت مياه المحيط تغمرها حمرة الشفق . وصفحة وادي بورقراق تضيئها أشعة المصابيح والقمر . وعلى بعد رأينا القطار كأنه خيط من الضوء يتحرك وسط الظلام الذي بدأ يلف الأفق البعيد ، قال صاحبي انه قطار طنجة قادما الى سلا . هكذا بدت لي الطبيعة وأنا واقف أمام المحيط . على يميني ضريح وعلى يساري صومعة وبقايا عرصات جامع قديم . وفي جامع محمد الخامس الملحق بالضريح طالب شيخ يقرأ القرآن بصوت عال ، وهناك على بضعة آلاف من الأميال ، في الجانب الآخر من المحيط يرتلون الانجيل . انها ذكرى خالدة وصورة رائعة وموقف يدعو الى التأمل . تذكرت عقبة وهو كما تقول الأساطير يرفع سيفه ويدفع فرسه الى مياه المحيط يتحدى الخطر والظلام والمجهول ، وكأنه كان يلوح بيده الى الآخرين يعدهم ويمنيهم أو ينذرهم ويحذرهم ! تذكرت رجال الفتح ورجال السلطة الذين خلفوهم ، تذكرت الماضي والحاضر ، فاغرورقت عيناي وصمت في وجوم . ولاحظ صاحبي ذلك ، فقال انك لم تنظر شيئا . لو رأيت قصر الحمراء . ان المرء هناك يتفطر كبده ويصاب بالخرس . لقد أضعنا أشياء لا تعوض ! قلت هذا يكفي ! أنظر هنا ، أنظر هناك ! انني أعيش الآن في عصر آخر . دعني أتأمل دعــني ! ؟» .

وما زالت الأعمال جارية في ضريح محمد الخامس . ولكن الجزء الذي انتهى منه يمثل أعجوبة في الصنعة والذوق والمهارة . فهو يحتوي على فسيفساء نادرة ، ورخام ملون ، ونقوش مذهبة في الأسقف والجوانب العليا ، وقد حفرت آيات من القرآن الكريم على مدار القبة الخضراء والصفراء التي يزيدها لمعان الكهرباء جلالا وجمالا . وللضريح أيضا عدة أبواب في الأسفل بعضها يقود الى الجامع الملحق به ، وبعضها يؤدي الى الخارج . أما في الجزء الأعلى فله أربعة أبواب يقف أمام كل منها جندي يحمل سيفا ويلبس الأبيض في شكل برنس مطوي الى الخلف ، وعلى رأسه قبعة تميل الى الخضرة الداكنة . وقد علقت بالضريح أيضا مصابيح وثريات نفيسة . وبالاضافة الى الجامع فان الضريح ملحق به أيضا مكتبة قيل لي انها تحت اشراف الأستاذ عبد الوهاب بن منصور .

أما صومعة حسان العتيقة ذات الموقع المثير والمتصلة بالضريح كما عرفت ، فغير مضاءة ولكن آلات الاضاءة كانت موجودة .

وفي أحد ايام الآحاد غضبت شمسه وكثف ضبابه واشتعلت حرارته خرجت مع الأخ شحلان نتجول . كان يوم عطلة كما في الجزائر . توجهنا أولا نحو أعالي شارع محمد الخامس من جهة الحي الشعبي وصعدنا العلو حيث دخل الفرنسيون سنة 1912 . ويوجد على ما أظن بهذا المكان الآن ثكنة ومحكمة عسكرية . ووجدنا بالقرب من ذلك منفذا في السور يفتح على (مقبرة العلو) الواسعة والتي تلتصق يابستها بمياه المحيط . ومن ذلك المنفذ يجتاز بعض الناس المقبرة الى الشاطيء جاعلين ممرا قدميا بين الأموات . وقد عبرنا أيضا حتى وصلنا الشاطيء . كان ضيقا ومزدحما . وقد نصبت فيه الخيام (وليس مظلات كما في الجزائر) ، واندفع الناس الى الماء بلهفة ، وكنت تراهم من بعيد كما ترى أسرابا من سمك السردين أو أمواجا من الطيور السابحة فوق الماء . وكان المحيط هادءا على اتساعه وعظمته ، ورغم تسميته ببحر الظلمات عند العرب فقد كانت الشمس تخترق مياهه حتى تنفذ إلى أغواره البعيدة . وقد اختلط أمام الرائي منظر الأحياء السابحين بمنظر الأموات الهامدين ومنظر القديم بالجديد . وهذا الشاطيء يقصده العامة ومن ليس لهم سيارات . أما الآخرون فيذهبون الى شاطيء تمارة الذي سبق ذكره ، وبعض الشواطيء الأخرى البعيدة الواسعة والمجهزة .

وسرنا في طريق معبد حتى وصلنا الوداية وساحتها الكبيرة . ودخلنا من باب في هذا السور فوجدنا أنفسنا داخل حديقة غناء فيها من كل لون زهرة ، وفيها أيضا (متحف الوداية) الذي لم ندخله لأنه كان عندئذ مغلقا . وفيها أيضا صناع تقليديون يزوقون الخشب بشتى التزاويق ويتفننون في ذلك غاية التفنن . وكانت بعض أبواب الحديقة نفسها عليها رسوم هندسية ملونة تأخذ من الطابع العربي الاسلامي القديم ، من خطوط وزوايا ومنحنيات . وهناك أيضا مقهى سياحي يجلس فيه بعض السواح على الدكات المغطاة بالحصير يتناولون الشاي الأخضر بالنعناع ويطل المقهى على المحيط الذي تتصافح مياهه أمام الناظر مع مياه وادي بورقراق الهاديء الوديع . وقد رأينا من هناك بعض الزوارق التي تحمل الناس من ضفة

الى أخرى من الوادي ، أي من ضفة الرباط الى ضفة سلا والعكس . وكان بعض الناس قد ضاق بهم ايط فأخذوا يسبحون في الوادي .

وفي مساء نفس اليوم اقتنصتني جاذبية مدينة سلا. فأخذنا الحافلة اليها ودفعنا خمسة وعشرين مليما فقط للواحد، وعبرنا اليها قنطرة حديثة فوق وادي بورقراق تربط بينها وبين العاصمة. ووصلنا اليها في حوالي عشر دقائق فقط. وعندما دخلت سلا تذكرت المؤرخ الكبير أحمد الناصري السلاوي صاحب (الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى). ودخلت المدينة العتيقة فلاحظت فرقا واضحا بينها وبين مدينة الرباط في المستوى الاجتماعي. وتجولت في سوقها الضيق المليء بالبضائع المتنوعة. وتوقفت عند باعة الكتب على الأرصفة فوجدت من بين مبيعاتهم كتاب (تنبيه الغافلين) و (كتاب الرحمة في الطب والحكمة) ، و (الروض العاطر) و (ديوان أبي نواس) و (سجع الكهان في استحضار الجان)، وبعض كتب الأدعية والاذكار. ورأيت اثنين من كتاب الأحجبة فتوجهت اليهما وسألتهما عن المخطوطات (وفي بلادنا يعبث كتاب الأحجبة بالمخطوطات). لكنهما انكراني بعد ان عرفا مهمتي. وفي سلا يقبر الأموات في مواجهة المحيط أيضا. وبينما كنت أسير بحذاء المقبرة سألت عن احدى القباب فقيل لي أنها قبة سيدي ابن عاشر ، وعن مسجد فقيل لي انه لسيدي عبد الله بن حسون، وعن صومعة عالية لا شك ان القادمين من البحر يهتدون بها فقيل لي انها صومعة الجامع الكبير. وأثناء العودة الى الرباط تأملت مليا على ضوء الشمس صومعة حسان وضريح محمد الخامس اللذين كنت قد رأيتهما قبل أثناء الليل. ويشهد الأثر القديم والأثر الحديث بعظمة الاسلام وأصالة العروبة في الربوع المغربية .

ودعاني الأخ شحلان ذات مرة الى التعرف على صديق له هو الأستاذ مصطفى الشابي ومرافقتهما في جولة على شاطيء الرمال الذهبية. فقبلت الدعوة، وركبنا ثلاثتنا سيارة الأستاذ الشابي الى هناك. كان الوقت مساء السبت والجو حارا. وعرفت خلال الطريق أن الأستاذ الشابي قد انتهى من بحث لنيل الدبلوم عن وضع العائلات الكبيرة في المغرب خلال القرن الماضي، وانه يعمل الآن مدرسا في قسم التاريخ بكلية آداب جامعة محمد الخامس. ودار الحديث حول موضوع رسالته وحول الدراسات الجامعية عامة ومشكلة الاطارات الوطنية القادرة على الاحلال

محل الاطارات الأجنبية في المغرب وفي الجزائر. وقد سبح الاخوان قليلا، وعاد الأستاذ الشابي بحفنة من المحار . وأبت نفسي الا أن تعود بتذكار من المحيط فحملت معي محارة الى غرفتي في الفندق وتركتها هناك حتى نتنت قوميتها، ولا شك أنها قد تعذبت خلال اقامتها معي، ولكن الحب أيضا عذاب كما أن الموت عذاب!

ـ 6 ـ

لقد قطع المغرب أشواطا في ميدان التعريب. وقد أشرت من قبل الى تأصيل الحضارة العربية الاسلامية بتثبيتها في الشوارع التي أطلقت عليها أسماء مدن شهيرة. ويلاحظ المرء وفرة الكتب العربية القديمة والحديثة، اليمينية واليسارية، وتعدد مكتبات البيع ، وكثرة وتنظيم مكتبات المطالعة والبحث وتصدر في المغرب بعض المجلات والجرائد الأدبية والفكرية. فبالاضافة الى (دعوة الحق) هناك (الملحق الثقافي) لجريدة (العلم) وهو ملحق أسبوعي متنوع المادة كثير الفائدة ، وهناك مجلة (آفاق) التي يصدرها اتحاد كتاب المغرب، وهناك أيضا مجلة (أقلام) التي تصدرها نخبة من المثقفين ، بالاضافة الى مجلات متخصصة أخرى بعضها تصدر بالفرنسية. ويلاحظ المرء حرية المبادرة من جانب الهيئات والأفراد في ميدان النشر والتأليف. وحركة التأليف متقدمة الى حد كبير. ولا غرابة فالطباعة والوراقة والتجليد عريقة في المغرب. والتعريب الاداري يخطو كذلك أشواطا كبيرة. فالمغربي يحمل بطاقة تعريف وجواز سفر معرب أو مزدوج اللغة. ويستطيع أن يكتب الحوالة، ويعنون الرسالة، ويسجل البريد، ويترافع في المحاكم بالعربية. وليس هناك عقد ولا حساسيات كتلك التي تركها الاستعمار في بعض البلدان الأخرى. والناس يتكلمون في الشوارع والدكاكين، وفي الحافلات ودور السينما بالعربية، وقلما تسمع لغة أجنبية. لكن بعض العامة يستعملون أحيانا المحلية .وصمام الأمان لهذا الاتجاه نحو التعريب يكمن في غيرة المثقفين على لغة وطنهم وتحركهم عندما تقتضي الضرورة صفا واحدا كتلك الحركة التي نتج عنها البيان المشار اليه. وتساند هذا التيار تقاليد حضارية عريقة، وعائلات أثيلة كانت وما تزال تلعب دورا بارزا في خدمة الثقافة العربية الاسلامية، ونخبة متوثبة تلقت ثقافتها في المغرب، أو في المشرق وتقف الى جانب التعريب كمطلب وطني .

وقد سمعت وأنا في المغرب ان كلية الآداب بجامعة محمد الخامس ستعرب تماما ابتداء من هذا العام (1973 ـ 1974). وسمعت أيضا أنه تحقيقا لهذا الهدف توجهت بعثة مغربية الى المشرق لجلب الأساتذة. وقيل لي ان الشروط التي وضعها المغاربة في الأساتذة هي : كون الأستاذ من حملة دكتوراه الدولة، كونه قد مارس مهنته في الجامعة خمس سنوات، توقيعه لعقد مدة خمس سنوات، قبوله تدريس كل الساعات التي تطلبها منه الكلية. وفي مقابل ذلك تضمن له الكلية راتبا شهريا قدره خمسة آلاف دينار جزائري، مع بعض التسهيلات الأخرى. فاذا تحققت هذه الخطوة فان المغاربة سيضمنون تكوين اطارات جامعية كفأة خلال خمس سنوات، وسيحققون الاكتفاء الذاتي عن الشرق وعن الجزائر أيضا. واذكر بهذا الصدد ان بعض العناصر في جامعة الجزائر كانت تعرقل دخول النخبة المغربية (والتونسية أيضا) الى الجامعة خوف انتشار «عدوي» التعريب الجامعي الى القطرين الشقيقين. ولكن هذه الخطوة المغربية في ميدان التعريب ستكون بدون شك دعما لتجربة التعريب الجزائرية التي ما زال بعضهم يحاول محاصرتها والتضييق عليها .

ـ 7 ـ

ومن الكتب المخطوطة التي لفتت انتباهي دون أن تكون هدفا أساسيا لبحثي كتاب (فيض العباب وافاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة الى قسنطينة والزاب) لابراهيم بن أبي عبد الله النميري المعروف بابن الحاج. وقد تناول فيه حملة أبي عنان على قسنطينة ونواحيها ومنطقة الزاب وعنابة وتونس سنة 758هـ. وكتبه من تقاييد عمه الذي كان مرافقا للحملة. وفي الكتاب قصائد كثيرة قالها الشعراء المرافقون في أبي عنان، وفيه كذلك أسماء لقضاة وعلماء معاصرين، بالاضافة الى وصف أدبي للبلاد المذكورة وذكر أخبارها العلمية والاقتصادية والسياسية. والكتاب ناقص من أوله حوالي ورقة فقط ، وكذلك ورقة رقم 2 و 3 مفقودة منه وهو مرقم الصفحات وآخر صفحة منه تحمل رقم 352. وهو بخط جميل ومعنون بالأحمر وبأسلوب أدبي فضفاض تضيع فيه أحيانا الحقائق التاريخية التي يهدف المؤلف الى ايصالها. وبعض أوراقه ملونة بالازرق أو الأصفر، الخ. وهو بدون تبويب، لكن فيه عناوين في اطار أحمر تبدأ هكذا (ذكر كذا..) في عبارة مسجعة. وفيه

تآكل أرضه . ومن المدن المذكورة فيه : تازي (كذا) ، المدية ، حمزة ، بجاية قسنطينة، عنابة، نقاوس، بسكرة، طولقة، القنطرة، تلمسان، مقرة. ويبدأ الاهتمام فيه بأحوال الجزائر من صفحة 107 الى آخر الكتاب وهو صفحة 352. ولا يوجد في المخطوطة اسم لناسخ ولا تاريخ نسخ .

وهناك كتاب في مخطوط ضخم بعنوان (تحبير السياسة في تدبير الرياسة) ويسمى أيضا (بدائع السلك في طبائع الملك) تأليف العالم المؤرخ محمد بن علي بن الأزرق ، الأصبحي الأندلسي ، المتوفي في سنة 875هـ والنسخة التي اطلعت عليها تعود الى سنة 1272هـ وهي بخط جيد. وفي الكتاب مقدمة وبابان. تناول الكاتب في المقدمة التحذير من محظورات تخل بالمطلوب شرعا وسياسة . وتناول في الباب الأول جوامع ما به السياسة المطلوبة من السلطان، أما في الباب الثاني فتحدث عن الواجبات التي يلزم السلطان القيام بها سياسيا. والمؤلف عميق النظرة واسع الاطلاع، وهو من مؤرخي الحضارات اذا صح التعبير، فقد أكثر من النقل عن ابن خلدون ووصف أحوال المغرب العربي والأندلس وقارنها مع أحوال المشرق، وتوسع في الحديث عن العلوم والعمران. ويذكر الكتاب أحيانا تحت عنوان (روضة الاعلام بمنزلة العربية من علوج الاسلام) ولعل هذا كتاب آخر للمؤلف . وعلى كل حال فقد رأيت ارقاما كثيرة لكتاب (بدائع السلك) وفي مختلف المكتبات : العامة، واليوسفية، والملكية، والأوقاف، والكتانية الخ .

وكنت مهتما برؤية كتاب (الاكتفاء في أخبار الخلفاء) لأبي مروان عبد المالك بن أبي القاسم التوزري المعروف بابن الكردبوس، لأن عبد الرزاق بن حمادوش صاحب الرحلة التي أقوم بتحقيقها قد نقل عنه الكثير، وكان يسرد (كتاب الاكتفاء) مع شيخه ابن ميمون الجزائري. وتذكر المصادر أن ابن الكردبوس كان حيا سنة 575هـ. وكنت أعرف من قبل أنه توجد من هذا الكتاب نسخ في تونس، بلد المؤلف، وفي مدريد ، وقد رأيت منه في المغرب نسخا كثيرة . منها واحدة في جزئين ضخمين في المكتبة الكتانية. والجزء الثاني غير التام يبدأ بتاريخ الدولة العباسية. وتوجد منه أيضا نسخ في العامة، والملكية، وتطوان، وغيرها. ومازلت الى الآن لم أقابل بين الأصل ونقول ابن حمادوش منه .

وتوجد نسختان من (ديوان ابراهيم الرياحي) التونسي الشاعر السفير العالم، الذي تخرج عليه الكثيرون ، منهم بعض الجزائريين ، وهو سفير تونس إلى المغرب . ولمحمد السنوسي التونسي أيضا (كناش) يحتوي على أشعار تونسية بخط السنوسي نفسه. والسنوسي رحالة وعالم تولى عدة وظائف في تونس خلال القرن الماضي. وله رحلة مشرقية مخطوطة سجل فيها مقابلته مع الأمير عبد القادر. ورأيت نسخة كاملة من كتاب المؤرخ التونسي الشهير ابن أبي الضياف (اتحاف أهل الزمان ...) في أربعة أجزاء ، وكنت قد رأيت أيضا نسخة كاملة منه في اسطانبول سنة 1970 . ومما رأيت لعلماء تونس أيضا (تحفة العروس) للتجاني، توجد عدة نسخ منها، و (بشائر أهل الايمان...) لحسين خوجة، نسخة من القسم الأخير منه، و (نزهة الأنظار في عجائب التاريخ والأخبار) لمحمود الصفاقسي. وكنت قد رأيت نسخة من هذا الكتاب في باريس سنة 1972 ونبهت عليها بعض التونسيين لعلهم يحققونها. وقد وصل فيه المؤلف الى سنة 1818، كما يحتوي هذا الكتاب على أخبار العلماء وتاريخ صفاقس. وكتب أحدهم (مجهول) عشر ورقات في (ترجمة ابن أبي الضياف) ما تزال مخطوطة. ولا أظن أن محققي تاريخه في تونس قد اطلعوا عليها .

واطلعت على أجوبة الشيخ التسولي التي أجاب بها الأمير عبد القادر حين سأل علماء المغرب عن بعض الفتاوي الفقهية. وكان التسولي قد أصدر اجابته باسم السلطان مولاي عبد الرحمن. وهي في مجموع من صفحة 2 إلى صفحة 94. وكان ابن الأمير محمد باشا قد اختصر الجواب في كتابه (تحفة الزائر) . ورأيت لأبي القاسم الزياني كتابه (الترجمان المعرب) نصفه بخط المهاجر الجزائري أبي حامد العربي المشرفي ، أي من صفحة 341 الى آخر الكتاب الذي يصل الى صفحة 632. وكان الزياني قد ألف كتابه هذا في مدينة تلمسان. وقد بداه بآدم عليه السلام. ومن أبوابه آل عثمان وفتوحاتهم (الباب 14)، وبنو مرين وبنو عبد الواد حتى تغلب الترك (الباب 18)، السعديون بالمغرب والسودان (الباب 19)، ودولة الشرفاء بسجلماسة (الباب 20). والزياني كان صاحب مكانة في الدولة المغربية على عهده، وهو صاحب (الترجمانة الكبرى) التي نشرها الأستاذ عبد الكريم الفلالي ، وصاحب (رحلة الحذاق لرؤية البلدان والآفاق) التي توجد منها نسخة مخطوطة. وقد توفي الزياني سنة 1249هـ .

والى جانب هذه المخطوطات هناك (رسالة المعادن والأحجار) للعالم الجزائري التونسي أحمد التيفاشي ، و (زهر الأفكار في جواهر الأحجار) له أيضا . ويوجد من الأول نسخة على الأقل ومن الأخير عدة نسخ. وقد اعتنى بترجمة آثار هذا العالم الأروبيون . أما اليوم فأعرف أن صديقنا الأستاذ أبو القاسم كرو يجمع آثار التيفاشي ويعتزم نشر بعضها والتعريف بحياة صاحبها .

وكنت أعرف أيضا أن ابن حمادوش قد نقل عن عبد الرحمن الحنبلي العليمي صاحب تاريخ (أنس الجليل بتاريخ القدس والخليل) لذلك اهتممت به ولاحظت وجود نسخة منه. كما ذكر ابن حمادوش أنه قرأ كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ) لابراهيم الاجدابي الطرابلسي فكان يهمني أن أعثر على نسخة منها وقد تحقق لي ذلك . أما محمد بن علي الخروبي الطرابلسي أيضا ودفين الجزائر والذي يقال انه ذهب في سفارة جزائرية الى المغرب، فتوجد من آثاره نسخ كثيرة من (كفاية المريد) و (الدرة في أصول الطريقة الزروقية) و (شرح صلاة ابن مشيش) ، وغيرها من كتب الطريقة والاذكار التي أثربها على معاصريه حتى قيل انه كان (عميل) السلطة العثمانية في الجزائر .

ولعلي لو ذكرت هنا كل ما وقعت عليه عيناي من كتب الرحلات والتاريخ والآداب خلال رحلتي لأثقلت على القاريء . وحسبي هذه العجالة . أما ما طالعته أو قيدته عن الجزائر بأقلام جزائريين «فحدث عن البحر ولا حرج» وهو بيت القصيد من كل الرحلة. ولعلي أقدمه في مناسبة أخرى بشكل أبجدي يفيد المستفيد، ويستزيد منه المستزيد .

الجزائر ، 14 نوفمبر . 1973

رحلتي الى الجزيرة العربية

السفر الى الجزيرة العربية ليس كالسفر الى أي جهة أخرى(*). فاذا كنت في بقية الأسفار تستعد ماديا للسياحة أو لحضور اجتماع دولي أو لأداء مهمة رسمية، فانك بالنسبة الى الجزيرة العربية تستعد قبل كل شيء، استعدادا روحيا مهما كان غرضك المادي من السفر، سيما اذا كان سفرك اليها لأول مرة، كما كان الحال بالنسبة لي . ذلك أنه طالما راودني الخاطر للسفر اليها استجابة لنداء روحي داخلي وحبا في الدراسة والاطلاع وربطا للماضي بالحاضر. ولكن الأقدار لم تهيء لي هذه الفرصة الا خلال هذا العام . فأنا منذ نعومة أظفاري أدرس تاريخ العرب والاسلام، انطلاقا من الجزيرة العربية وأسمع من الحجاج المحدثين وأقرأ للقدامى منهم حقائق وأساطير . فيتمثل لي أهلها وأحوالهم . فتارة أتصورهم بدوا رحلا لا فرق بينهم وبين أهل الجاهلية سوى الادانة بالاسلام، وتارة أتخيلهم في منتهى التحضر والرقي، جمعوا بين أمجاد الماضي المتمثل في الشيم العربية والقيم الاسلامية، وبين تقدم الحاضر المتمثل في الصناعات البترولية والتحول الاجتماعي الذي قلب المفاهيم وأطاح بالكثير من التقاليد . ولكن المشاهدة أقوى دليل .

فمنذ اتصلت من جامعة الرياض بدعوة للمشاركة في الندوة التي تنظمها عن مصادر تاريخ الجزيرة العربية عزمت على تحقيق أمنيتي القديمة وشرعت في الاستعداد الروحي والمادي معا. وكنت أمني نفسي بزيارة الأماكن المقدسة ورؤية الأرض التي

(*) كتبتها بعد عودتي من حضور (الندوة العالمية الأولى لمصادر دراسات تاريخ الجزيرة العربية) التي انعقدت بالرياض ، أبريل ، 1977 . ولم أقدمها للنشر لأنها ظلت في مسودتها ولأنني سافرت بعدها في حالة تفرغ من جامعة الجزائر إلى الولايات المتحدة الأمريكية .

انبثق منها نور الاسلام وسارت منها قوافل الجهاد تنشر القرآن الكريم والسنة النبوية في مشارق الأرض ومغاربها. ورغم حادث سيارة فظيع وقع لي في آخر الصائفة الماضية فاني ظللت على استعدادي للمشاركة في الندوة وتحقيق أمنيتي القديمة. وكان هذا يعني الرجوع الى مصادر كثيرة والاستغراق في البحث مدة طويلة حتى أسهم في الندوة بقسط وافر ومشرف. وقد رأيت أن أنسب موضوع لهذه الندوة هو الكشف عن كتابات الجزائريين عن الجزيرة العربية، وبعد دراسة لجوانب الموضوع الزمنية والنوعية استقر الرأي على أن يكون بحثي عن (الرحلات الجزائرية الحجازية خلال العهد العثماني) (1) .

وقد سجلت، كعادتي في كل بلد أزوره، يوميات وانطباعات ومشاهدات، تغطي جميع مظاهر الحياة التي يصل اليها انتباهي وفضولي العلمي. ولعلي لم أسجل من ذلك على بلد كما سجلت على رحلتي الى الجزيرة العربية. ويعود ذلك لأهمية الحادث في حياتي من جهة ولأهمية الجزيرة العربية في تاريخ العرب والمسلمين من جهة أخرى. وقد تجمع لدى من ذلك كراسة لو نقحت وطبعت لجاءت في مجلد وسط. وليس في نيتي الآن ولا في امكاني نشر كل ما سجلت من يوميات وانطباعات. وحسبي أن أستعرض جوانب من هذه الرحلة تتعلق خصوصا بموضوع الندوة التي دعيت اليها وما يمت اليها بصلة من زيارات وحفلات ومشاهدات وأحاديث وقراءات .

وقد انعقدت الندوة في مدينة الرياض، ولكن من يستطيع أن يزور السعودية دون التعريج على الحرمين الشريفين ؟ ثم من يزور الحرمين أول مرة ولا يسجل ما تركاه في نفسه من أثر؟ ومن يستطيع أن يدخل مكة والمدينة دون أن يصف ما يحدثه دخولهما أول مرة في نفسه من وقع وما شاهده فيهما من آثار وأعمال ونشاط؟ هذا هو اذن مجال هذه الرحلة . فهي تغطي زيارتي لعاصمة المملكة العربية السعودية وللمدينتين الشريفتين : مكة والمدينة، وما وقع لي في هذه الأماكن مما يمكن البوح به الآن .

---

1) نشر هذا البحث في كتابي (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) ، الجزائر، 1978 ، ط 2 ، 1982 .

وقد بدأت تسجيلاتي من مطار الجزائر ذهابا الى مطار جدة عائدا. فقد كان سفري يوم 21 أبريل صباحا، سنة 1977 وفي مطار الجزائر خضعت لتفتيش دقيق وليس ذلك من عادة الجمارك معي عندما أسافر الى اتجاهات أخرى. ولكن هذه المرة سألني الجمركي. الى أين أنت متوجه؟ فقلت له في نشوة وغبطة: الى جدة ان شاء الله. فقال : ما عندك؟ قلت حاجاتي الشخصية. فقال : افتح الحقيبة! ففتحتها. فأخذ يفحص ما فيها من ثياب قطعة قطعة وجيبا جيبا، ثم فحص جيوب الحقيبة نفسها . ثم أخذ محفظة أدوات الحلاقة وفتحها أيضا وتلمسها من جوانبها وأخرج بعض ما فيها. ولما رأيت الأمر قد وصل الى ذلك الحد، انقلبت نشوتي أسفا، وخفت ان أفقد أعصابي فأفوه بعبارات تغضب الجمركي، فتشاغلت بالحديث مع زميلي الدكتور عبد الله ركيبي الذي تفضل بتوصيلي الى المطار. وعندما انتهى الجمركي من فحصه الدقيق غير العادي طلب مني جواز السفر فأعطيته له فنظر فيه ثم أعاده الي قائلا: خلاص! فأخذت أعدل حاجاتي في الحقيبة ثم أغلقتها وأنا أتذكر ما كنت قرأته في مجلة (العرب) للشيخ حمد الجاسر السعودي منذ أربعة أعوام عن التفتيش الذي خضع له يوم ان كان خارجا من الجزائر في نفس المطار. ولم نكد نصدق وصفه عندئذ في الجزائر حتى ان أحد موظفي وزارة الثقافة عزم على كتابة رد على ما جاء في مقاله. ولكن المشاهدة، بل التجربة، أقوى دليل .

وبهذه المناسبة أذكر أنني سمعت سعوديا كبيرا في حفلة العشاء التي أقامها السيد مدير جامعة الرياض لوفود الندوة يشكو لأحد المشاركين في الندوة من قسوة المعاملة التي خضع لها هو شخصيا في مطار الجزائر، وقال ما معناه: لقد ساعدنا الجزائريين يوم ثاروا ضد فرنسا لكنهم عندما استقلوا لم يقدموا لنا حتى الاحترام ، وقارن هذا الشاكي السعودي بين معاملة مطار الجزائر له ومعاملة مطار بلاد ذلك المشارك الذي كان يتحدث اليه والذي كان من بلاد مجاورة للجزائر. وقد كنا سمعنا كثيرا من هذه الأخبار من الأساتذة الذين يزوروننا ويتعاونون معنا ، ولا نكاد نصدق أيضا . غير أنني شاهدت بنفسي مرة حادثة صغيرة وكبيرة في نفس الوقت. فقد جئت مرة أودع الدكتور سهيل ادريس صاحب مجلة (الآداب) فاذا بالجمركي يسأله، بعد أن قدمته له على أنه كاتب لبناني وناشر الخ: هل عندك قهوة؟ فنظر الي الدكتور سهيل ادريس

في استغراب كما نظر اليه. وتفاديت الأمر فقلت له: انه يسأل عن القهوة لأنها في بلادنا زهيدة الثمن وهي غالية في بعض البلدان، وأجابه الدكتور ادريس بأنه لا يحمل سوى حاجاته وبعض الكتب . ومع ذلك أصر الجمركي على فتح الحقيبة . وبعد التفتيش لم يعثر على القهوة طبعا. ويبدو ان بعض الاخوان في مطار الجزائر لا يفرقون بين المهربين والباحثين، بين العلماء والعمال، بين المسافرين في مهمات وطنية وعلمية والمسافرين في أغراض شيطانية دنيئة. وللتفريق بين هذا وذاك يحتاج المرء الى ذكاء حاد ونظر ثاقب وحاسة قوية .

* * *

والطائرة التي أقلتنا من مطار الجزائر سعودية كانت قادمة من المغرب. وقد توقفت بنا في مطار تونس ومطار طرابلس ومنه مباشرة الى مطار جدة. وعندما توقفت في مطار تونس واجتمع ركاب العبور اكتشفت وجود أعضاء الوفد المغربي المتوجه أيضا الى ندوة الرياض. وكل أعضائه معروفون لدي، بعضهم تربطني بهم رابطة المودة والعلم وأكل الخبز والملح مثل الدكتور عباس الجراري والدكتور عبد الكريم كريم ، وبعضهم تربطني بهم معرفة قديمة جمعتنا الكتب والأبحاث مثل الشيخ محمد ابراهيم الكتاني والاستاذ محمد المنوني . والأستاذ عبد العزيز بن عبد الله . والدكتور عبد الهادي التازي . وكان من المنتظر ان يصعد على نفس الطائرة أعضاء الوفد التونسي أيضا . ولكن ثلاثة منهم وهم الدكتور عبد الجليل التميمي والدكتور رشاد الامام والدكتور الحبيب الجنحاني، تأخروا فلم يأتوا الى الندوة الا في اليوم الثاني أو الثالث. أما العضوان التونسيان الآخران، وهما الأستاذ عبد المجيد الذويب والدكتور مصطفى كريم. فقد وجدناهما أمامنا في الرياض .

وصلنا مطار جدة حوالي الحادية عشر والربع مساء بالتوقيت المحلي. وهو وقت متأخر بالنسبة للمطار. وكان الطقس حارا ورطبا، فلم نجد أحدا في انتظارنا، رغم أن الشركة أكدت لنا بأنها أبرقت بوصولنا . وظننا أن الأمور ستتعقد ، فليس هناك طائرة خاصة ولا عامة متوجهة الى الرياض قبل الساعة السادسة صباحا. ومعنى ذلك ان علينا ان نبيت في مكان ما. أما الفنادق فليس هناك حجز لنا فيها. ثم أنه لم يبق الا بعض الساعات على موعد سفر الطائرة الى الرياض. والبقاء

في المطار بعد رحلة طويلة من المغرب الى المشرق يزيدنا ارهاقا قد لا تتحمله أجسامنا. وليس هناك عشاء أيضا. وكاد الأمر ينقلب الى حركة احتجاج لولا وجود منقذين من السماء . والمنقذ الأول هو الدكتور ناصر الرشيد ، الأستاذ بكلية الشريعة بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة والذي كان عائدا من المغرب في اطار الأسبوع الثقافي السعودي هناك والذي تولى الموضوع مع سلطات المطار والجمارك وشركة الطيران الخ. أما الثاني فهو الأستاذ محمد الزلفة الذي كان عائدا إلى السعودية لحضور الندوة من الولايات المتحدة ، حيث يدرس التاريخ هناك . وقد تعاون الأستاذان ونجحا . وفي الشرق كثير من المشاكل تنحل بعد لأي وبعد أن يصل المرء فيها أحيانا الى لحظة اليأس. وشيئا فشيئا انقلب الوضع من تكشير الى ابتسام، ومن جفاء الى ترحيب فحجزت الأماكن في أول طائرة إلى الرياض ، وقادونا إلى مطعم المطار وتحركت المراوح والمكيفات الهوائية وحضر الشراب والطعام من محفوظات الشركة، وصفت المائدة . وقد عرفنا فيما بعد أن هذا التحول في الوضع قد تم بعد التأكد من كوننا ضيوفا على الندوة ولسنا من المسافرين لأغراض أخرى. وعلى كل حال فقد بتنا تلك الليلة مسافرين أيضا على مقاعد المطار، كما قضينا النهار السابق مسافرين على مقاعد الطائرة. لذلك أخذ منا التعب مأخذا شديدا، وتحجر النوم في العيون حتى أصبح كالرصاص أو أشد منه ثقلا. وعندما أشرقت شمس الجزيرة العربية لم تستطع أن تحطم صخور النوم التي استقرت في عيوننا .

وحوالي الساعة السادسة توجهت بنا الطائرة العمومية في أول رحلة صباحية لها الى الرياض. وقد استغرقت الرحلة حوالي ساعة. وعندما تقدمنا من عتبة المطار وجدنا مستقبلين بزيهم العربي الوطني وحولهم لافتة مكتوب عليها شعار الندوة. وشعرنا، رغم التعب، أننا قد أصبحنا في أيدي أمينة قادتنا الى سيارات كانت في انتظارنا، فتوجهت بنا الى فندق (زهرة الشرق) حيث نزلنا. وقد وجدنا هناك مستقبلين من نوع آخر. في مدخل الفندق يوجد مكتب العلاقات الذي يحل مشاكل البطاقات ويسمع لمختلف الرغبات ويسلم المفاتيح للاقامة. كما وجدنا عددا من أعضاء الندوة في بهو الفندق يغدون ويروحون. واستلمنا المفاتيح، وارتمى كل منا على سريره وهو يكاد يكون فاقد الاحساس من التعب وقلة النوم، فقد مضي علينا أكثر من ست وثلاثين ساعة ونحن على سفر، مع تغيير الطقس ومواعيد النوم .

ولما كان ذلك اليوم يوم جمعة فان راحتنا كانت قصيرة رغم ذلك . فقد توضأنا وخرجنا كلنا في وهج الشمس اللافح وضيائها الذي يعمي العيون ويبهرها بالبياض المنعكس على التراب الأبيض وعلى الجدران. وتوجهنا الى جامع قريب من الفندق، وحضرنا الخطبة. وبعد أداء الصلاة عدنا الى الفندق واسترحنا حوالي ساعة فقط، لأن الافتتاح الرسمي للندوة كان قد أوشك على البداية، وذلك في قاعة المحاضرات بجامعة الرياض. وفي الساعة المحددة اجتمع عقد الندوة وصعد المنصة المسؤولون يتقدمهم السيد وزير التعليم العالي وهو الرئيس الأعلى للجامعات. وتم الافتتاح بتلاوة آيات من القرآن الكريم، ثم الكلمات على التوالي : كلمة السيد الوزير، كلمة السيد مدير الجامعة ، كلمة السيد عميد كلية الآداب ، ثم كلمة السيد رئيس قسم التاريخ والآثار، وهو رئيس الندوة. وعقب ذلك انفض العقد، ولكنه اجتمع ثانية مباشرة لافتتاح معرض الكتاب الذي سيأتي الحديث عنه. ثم جاء موعد العشاء الذي أقامه السيد الوزير على شرف الوفود. وهكذا انتهى اليوم الأول من وصولنا الى الرياض. وفي اليوم التالي بدأ العمل العلمي للندوة .

* * *

والموضوع الرئيسي لها وهو (الندوة العالمية الأولى لمصادر دراسات تاريخ الجزيرة العربية)، موضوع واسع جدا يتناول مصادر تاريخ الجزيرة العربية خلال العصور المختلفة وفي جميع ظواهرها . ولعل هذا هو ما جعل المشرفين على الندوة يقررون في نهايتها ان يخصصوا الندوة القادمة لتاريخ الجزيرة العربية في القديم فقط. وكان الاستعداد للندوة قد بدأ منذ أمد، غير أن الدعوات بدأت توجه منذ الصيف الماضي. وقد وجهت الدعوات الى عدد كبير من الباحثين العرب والأجانب تجاوز عددهم المائة باحث في مختلف مظاهر تاريخ الجزيرة العربية . وبالنسبة للأبحاث يلاحظ وفرة المشاركين من العالم الانكلوسكسوني . أما من العالم الاسلامي فيلاحظ غياب علماء الشرق الأقصى بينما مثلت تركيا وايران . ومن الوطن العربي يلاحظ غياب ليبيا وموريطانيا والصومال واليمن الجنوبية ولبنان . وهناك من البلدان العربية من أخذ حصة الأسد كمصر ومن أخذ نصيبا ضئيلا كسورية التي مثلها عالم واحد وهو الدكتور

كامل عياد. أما الجزائر فقد مثلها الدكتور رشيد بورويبة ببحث عن مصادر مسجد المدينة المنورة ، وصاحب هذه السطور الذي ألقى بحثه المذكور (الرحلات الجزائرية الحجازية...)، ورغم ان الدعوات قد وجهت الى عدد آخر من الجزائريين فانهم لم يشتركوا لأسباب لا نعلمها ، ولكن يبدو أن أهم سبب كان وراء ذلك هو الكسل العقلي الذي يعاني منه الجزائري والذي يحرمه من المساهمة في الندوات والمؤتمرات العالمية وتمثيل بلاده فيها أحسن تمثيل. وقد أصبحت هذه ظاهرة تلفت النظر لدى علماء الجزائر في كل الملتقيات. ذلك ان تونس مثلا قد اشتركت بخمسة من الباحثين بينما اشترك المغرب الأقصى بستة منهم .

أما الأبحاث عامة فقد تعددت وتنوعت مشاربها واختلفت مستوياتها. فقد تناول الباحثون مختلف عصور الجزيرة العربية فلم يتركوا حجرا أثريا الا حفروا تحته ولا حرفا لغويا الا تتبعوه ولا مخطوطا الا حققوه. ولا ظاهرة اجتماعية الا نقدوها ولا موقفا سياسيا الا حللوه وعللوه، وهكذا. وقد بلغني ان الأبحاث المقبولة قد تجاوزت المائة. وهناك بعض الأبحاث لم تقبلها لجنة المؤتمر أساسا. واختلفت الأبحاث أيضا عمقا وسطحية، عرضا وتحليلا، حسب مشارب أصحابها واتساع أو ضيق آفاقهم والتزامهم أو عدم التزامهم بخط سياسي أو ديني معين. ومما يلاحظ أن لجنة المؤتمر قد اتسع صدرها للآراء المختلفة بل حتى للمستويات المختلفة .

ويلاحظ كذلك ان الموضوع في حد ذاته (الجزيزة العربية) يهم الحاضرين جميعا بل يهم غير الحاضرين أيضا. فلو كان الموضوع غير ذلك لكان الاهتمام به محدودا والتعمق فيه محدودا أيضا. ولكن تاريخ الجزيرة العربية يهم كل العرب وكل المسلمين، بل يهم كل العالم باعتباره تاريخ منطقة حيوية حساسة في العالم القديم والوسيط والحديث . وهكذاتجد العربي يتناول بحثه عن الجزيرة العربية باعتبارها منبع الأصول للأمة التي يعتز بالانتماء اليها سواء كان يعيش اليوم فيها أويعيش في أطراف المحيط الأطلسي أوسواحل البحر الأبيض والأحمر. بينما يتناول المسلمون أبحاثهم عنها باعتبارها مصدر انطلاقة الاسلام الكبرى وحضارته الراسخة سواء كان هذا المسلم يعيش في شبه القارة الهندية أو في أعماق افريقية أو في أرياف البلقان أو حتى في مدن أمريكا وجزر أندنيسيا. أما غير العرب والمسلمين فقد كانوا

يكتبون عن الجزيرة العربية باعتبارها نقطة تقاطع لتيارات دينية ولغوية واقتصادية ، وخصوصا في العصر الحديث .

وقد سمعنا ابحاثا في غاية الجودة والموضوعية كان أصحابها يحاولون البحث عن الحقيقة بقطع النظر عن التيارات الظاهرة والخفية للموضوع الذي يعالجونه واستوى في ذلك العرب والمسلمون وغيرهم ، ولكن سمعنا بعض الأبحاث التي حاول أصحابها تحريف التاريخ تملقا لهذه الجهة او تلك . وسمعنا بعض الباحثين العرب يشيدون بأبطالهم من الأروبيين الذين لهم صلة بالجزيرة العربية ، تقليدا لأحكام الأروبيين والامريكيين على هؤلاء الأبطال الذين كانوا في الواقع مغامرين أو جواسيس يعملون لصالح دولهم ويقصدون التعرف على نقاط الضعف في الحكومات العربية القائمة عندئذ لضربها عند الحاجة . ومن حسن الحظ أن بعض المؤتمرين قد كشفوا عن هؤلاء المتورطين (أو المورطين) في الحين وناقشوهم الحساب بسرعة وحسم . ومن حسنات هذا المؤتمر حرية المناقشة داخل الزمن المسموح به لكل متحدث أو مناقش .

ونعتقد أن اخواننا في السعودية قد استفادوا استفادة جلى من هذه الندوة . فمهما صرفوا من مال وجهد ووقت على هذه الندوة فانهم يظلون ، من الناحية العلمية . هم الرابحون . ذلك ان هذه الندوة عن مصادر بلادهم (وبلادنا في الحقيقة) قد جعلتهم يتعرفون على العديد من الوثائق والمخطوطات في مظانها وأرقامها ومحتواها وقيمتها . وهي عملية شاقة ومكلفة لأموال طائلة في زمن طويل لو أراد اخواننا السعوديون ان يتعرفوا عليها بطريق آخر غير طريق هذه الندوة . ولو فرضنا ان نصف الأبحاث المذكورة فقط جيد تأكدنا أن الندوة قد غنمت حوالي خمسين بحثا على الأقل في مستوى رفيع ، وهو مكسب علمي كبير .

وقد أشرفت على الندوة أثنا عشر لجنة توزعت جميع النواحي التي تهم المؤتمرين وتوفر لهم الراحة والمساهمة الفعالة . ومنها اللجان التأسيسية والتنفيذية والأعلام والنشر والادارة والمالية والعلاقات والترجمة والعلمية الخ ...

وكان رئيس الندوة والمحرك لهذه اللجان والمنسق بينها هو الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصاري ، رئيس قسم التاريخ والآثار بكلية الآداب بجامعة الرياض . ومنذ اللحظة

الأولى وزعت اللجنة المختصة البرنامج في كتيب مطبوع باللغتين العربية والانكليزية ، وهو يتوزع على ستة أيام كاملة. وقبل نهاية المؤتمر وزعت اللجنة المذكورة كتابا باللغتين أيضا يضم ملخصات الأبحاث التي ألقيت والتي كان أصحابها قد بعثوا بها قبل انعقاد الندوة بحوالي شهرين. ومع هذه الملخصات نشرت أسماء وعناوين المشاركين في الندوة مما يصح أن يكون دليلا علميا في المستقبل للباحثين الذين يهمهم الأمر. ومما تمتاز به جامعة الرياض أنها تملك مطبعة خاصة بها. ولذلك كانت المطبوعات تأتي تباعا وبانتظام مع وفرة الورق وجودة الطباعة .

وتوزع المؤتمرون على قاعتين من قاعات الجامعة : قاعة المحاضرات العامة وخصصت للأبحاث المتعلقة بالعصر القديم والاسلامي، بما في ذلك بعض الأبحاث عن العهد العثماني. وفي هذه القاعة ألقيت بحثي المذكور كما ترأست احدى الجلسات بالاشتراك مع أحد الباحثين الانكليز. (وكانت رئاسة الجلسات دائما زوجية). أما القاعة الثانية فهي قاعة المركز الترفيهي التي قد خصصت للعصر الحديث والمعاصر. وكانت الأبحاث توزع في وقتها، أي قبل الجلسة المعدة لالقاء البحث، اما في الفندق او عند مدخل القاعة المعنية. وكانت الوسائل الفنية متوفرة بشكل واضح. فالترجمة الفورية من العربية والعكس مضمونة. والمصورون وعمال التلفزة والمشرفون على الكهرباء والصوت والتبريد ونحو ذلك يتخللون القاعتين من آن الى آخر يؤدون مهمتهم في انتظام ودقة. كما ان الانضباط في المواعيد كسر كل اشاعة من أن العربي لا يعرف معنى للوقت . فقد كانت السيارات تتحرك من الفندق الى القاعتين في الموعد المضروب بالضبط، وهي تنطلق منهما أيضا في الموعد المضبوط. ويكاد المتخلف عن الموعد يضيع فرص الحضور تماما. لذلك كان المشاركون حريصين على أخذ مقاعدهم في الحافلات والسيارات في الموعد المضروب، والا فاتهم الركب، ومن ثمة كل الجلسة .

* * *

ورغم كثافة الجلسات واتصالها فان المشرفين قد وضعوا برنامجا اضافيا للحفلات والمعارض والمناسبات الثقافية . ومن الحفلات حفلة العشاء التي أقامها السيد وزير التعليم العالي والرئيس الأعلى للجامعات على شرف الوفود المشاركة

في نادي الفروسية . وقد جاءت هذه الحفلة مباشرة بعد افتتاح معرض الكتاب في مبنى المركز الترفيهي لجامعة الرياض من طرف السيد الوزير نفسه . وكان المعرض فرصة لعرض كثير من الكتب حول الجزيرة العربية على اتساعها وفرصة أخرى لأن يشتري عدد من الباحثين كتبا كانوا في أشد الشوق اليها . غير أن الوفد الجزائري قد اكتفى بالنظر لأن النقود المسموح بها له عند الخروج لا تكفي حتى بقشيشا للحمالين فما بالك بشراء الكتب. وقد عرضت عدة دور نشر مطبوعاتها بهذه المناسبة ووزع المشرفون على المعرض كتابا يضم أسماء الدور المشتركة وكتبها المعروضة .

ومن الحفلات أيضا حفلة العشاء التي أقامها السيد مدير جامعة الرياض في الموقع الجديد للجامعة في الهواء الطلق حيث اصطفت الوفود على شكل قوس كبير على فرش وارائك. وقد قدمت لهم القهوة العربية قبل تناول العشاء . ثم صففت جفان الأرز باللحم وأعقبوها بالشاي. وكان من المنتظر، حسبما أخبرني بعض الزملاء، ان تأتي فرقة سعودية تقليدية لتؤدي (رقصة السيف) أمام أعضاء الندوة. ولكنها لم تتمكن من الحضور لأنها كانت في نفس الوقت تؤدي رقصتها في مناسبة أخرى رسمية. واذا كنا قد حرمنا من رؤية هذه الفرقة على العيان فاننا قد رأينا لقطة من رقصتها في اليوم التالي على شاشة التلفزيون .

وقد سبق للسيد مدير الجامعة ان قام بافتتاح معرض آثار (الفاو) بمبنى كلية الآداب. وهو معرض يضم آثارا عثرت عليها هيئات أثرية بقيادة الدكتور عبد الرحمن الانصاري في مدينة الفاو القديمة. والفاو مدينة تبعد حوالي سبعمائة كيلومتر عن الرياض، وهي تقع في الربع الخالي. وقد نظم المعرض تنظيما دقيقا، واحتوى على أشياء ثمينة تعود الى عهود ما قبل الاسلام، وتكشف عن ماضي العرب في جنوب شرق الجزيرة العربية . ومن ذلك أنواع العملة وأشكال من أواني زجاجية وتماثيل وأدوات منزلية وكتابات بالخط المسند تعود الى القرن الثاني بعد الميلاد.

أما الزيارات فقد تضمنت خاصة زيارة (الدرعية) منشأ الدولة السعودية الأولى . وهي تبعد عن الرياض بعدة كيلومترات فقط بحيث أن عددا من مشاريع

مدينة الرياض ستنقل اليها. والمواصلات بين المدينتين متوفرة وسهلة والطرق معبدة على أحدث طراز. وفي الطريق اليها مررنا بعدة قصور ملكية وأميرية حول مدينة الرياض، كما شاهدنا عن قرب وعن بعد عدة مشاريع عمرانية حديثة. والدرعية القديمة عبارة عن خرائب لمباني قديمة استراتيجية، وهي تقع على وادي بو حنيفة، وحولها النخيل والأشجار وبعض الكدى. وهي تذكرك ببعض مدن الصحراء الجزائرية مثل بسكرة وبوسعادة. ويذكر المؤرخون ان جيش محمد علي والي مصر هوالذي هدم الدرعية سنة 1811 تنفيذا لأوامر السلطان العثماني بالقضاء على الحركة الوهابية عندئذ. وما زالت هذه الخرائب، وهي عبارة عن قصور وقلاع ومقاصير وأبواب خشبية مزخرفة وأشكال هندسية جديرة بالدرس والمحافظة لأنها جزء من تراث الجزيرة العربية من جهة ومن تراث العربي والمسلمين عامة. وأذكر أن الدكتور بو رويبة قد أخذ ورقة وقلما وبدأ يرسم بعض البوابات والأشكال الهندسية على بعض الجدران، ولكن أحدهم تقدم منه وأخبره بالتوقف عن ذلك الا بعد اذن. وأخبرني الدكتور كامل عياد ان الدرعية وما جاورها كانت في التاريخ القديم موطن قبائل طي وأسد. أما الدرعية الحديثة فهي قرية صغيرة ذات مياه وأشجار ومباني بسيطة، وفيها على ما سمعت مدرسة ابتدائية واحدة .

وفي مساء أحد الأيام تجولنا في مدينة الرياض فاذا هي عاصمة كبيرة تمتد على مساحات شاسعة وتتخلها الشوارع الواسعة الطويلة والأشجار الباسقة التي لولاها لكان للشمس ضحايا كثيرون هناك. كما يشاهد المرء فيها المباني الحكومية الفخمة ذات الطراز المحلي الواقي من حرارة الشمس والعمارات الشاهقة والفنادق التي تنسيك أحيانا أنك في صحراء نجد وتجعلك تحس انك في أعظم عواصم العالم الحديثة. وأذكر ان معظم أعضاء الوفود كانوا يقيمون في فندق (زهرة الشرق) الذي يعتبر من أكبر الفنادق في الرياض، فهو مكيف الغرف وفيه بهو واسع، وكان يعرض فيه أثناء اقامتنا فيلمان ، أحدهما عربي والآخر أجنبي . وشاهدنا فيه حفلات زواج على الطريقة الحديثة .

وفي احدى الجولات الجماعية دخلنا المتحف الوطني بالرياض، فاذا هو، على صغره تحفة من حيث التنظيم والتنسيق وطريقة العرض، وقد رأيت أحد الأعضاء الذين كانوا يدعون في بلادهم التقدمية على الطريقة الفرنسية، متعجبا وهو يقول :

هكذا والا فلا! اين نحن مما كنا نعتقد في العالم العربي؟ (وهولا يؤمن بالوطن العربي). أما في بعض جولاتي الخاصة فقد دخلت أحد الأسواق العامة (سوبر مارشي) فاذا فيه كل شيء على الطريقة الأوروبية والأمريكية. ورأيت هناك عدة أزواج، عرب وغير عرب، يشترون ثم يخرجون لسياراتهم التي تنتظرهم في الخارج وهم، فيما يبدو من هندامهم ، من المتعاونين كما نسميهم عندنا . أما العمال في هذا السوق فأغلبهم من اليمن. وفي الطريق مررت بعدة دكاكين تؤدي دورها الحيوي في الحياة الاقتصادية اليومية .

أغتنمت فرصة من الوقت وذهبت رفقة بعض الأعضاء الى مكتبة جامعة الرياض. والمكتبة الحالية من أحدث طراز ، وفيها جهاز ذاتي لاطفاء الحريق. وقيل ان المانيا الغربية هي التي بنتها في ظرف عام فقط. وتضم قسمين أحدهما للمطبوعات والثاني للمخطوطات. وكنت أرغب في زيارة القسم الثاني بالدرجة الأولى. ولكن ضيق الوقت لم يسمح لنا الا بزيارة القسم الأول، بما في ذلك جناح الدوريات وبعض المكتبات الخاصة الملحقة بها مثل مكتبة المرحوم خير الدين الزركلي صاحب معجم (الاعلام) الذي أهدى مكتبته لجامعة الرياض. وقد قيل لنا ان المكتبة الحالية حديثة العهد وتضم أربعين ألف كتاب مطبوع وبين أربعة الاف وخمسة الآف مخطوط . ولما كان حضورنا يصادف أيام الامتحانات فقد وجدنا المكتبة عامرة بالطلاب والمطالعين وفيها أقسام متخصصة للفهرسة والتبادل والشراء، ولها ادارة حازمة .

وفي احدى المناسبات زرت أيضا مبنى كلية الآداب وتجولت في أقسامها وكانت الكلية، أيام تواجدنا، خلية نحل بالعاملين في الندوة لأن سحب البحوث يتم هناك ورئاسة الندوة نفسها هناك أيضا .

* * *

وخلال انعقاد الندوة تعرفت على عدد من علماء السعودية من الجيل الجديد ومن الجيل القديم. أما من الجيل الجديد فقد عرفتهم من مشاركتهم في الندوة بأبحاثهم أو بحكم اشرافهم على لجان الندوة أو بحكم الاشتراك في التخصص .

أما من الجيل القديم فقد سبق لي أن راسلت الأستاذ الشيخ حمد الجاسر الذي يسمونه بحق علامة الجزيرة العربية والذي ألف وحقق أكثر من كتاب حول تاريخ وأدب وأنساب وجغرافية ولغة الجزيرة العربية ، وهو صاحب مجلة (العرب) الشهيرة وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة . وقد سبق له أن زار الجزائر مرتين على الأقل ، ولكن الحظ لم يسعفنا باللقاء . أما هذه المرة فقد التقينا وتناولنا أطراف الحديث في عدة مناسبات في قاعة المحاضرات وفي بهو الفندق وآخرها في الطائرة التي أقلتنا من الرياض الى المدينة المنورة . وقد أهدى الي عددا من مجلة (العرب) حقق فيه هو رسالة لأحد علماء الجزائر (1) ، وسألني بعض المعلومات الاضافية عنه . وقد قام أحد المعجبين به بجمع آثاره وكتبه فاذا هي كتيب كامل وزع على أعضاء الندوة .

وأما الشخصية الثانية من الجيل القديم فهو الشيخ عبد القدوس الانصاري صاحب التآليف العديدة أيضا ، ومنشيء ومحرر مجلة (المنهل). وهو الذي كان قد احتضن المرحوم أحمد رضا حوحو عندما كان في المدينة ، فكتب في مجلته وترجم لها آثارا ما زالت إلى حد الآن لم تجمع ولم تعرف . ولكن الأستاذ الانصاري (وهو الأخ الكبير لعبد الرحمن الأنصاري رئيس الندوة) يعرف عن هذه الآثار ويعرف عن صاحبها (حوحو) الشيء الكثير ، وقد حدثني عنه بما يضيف الجديد عن حياته وأعماله . والأستاذ الأنصاري مهتم بآثار المغاربة أيضا كزميله الأستاذ الجاسر ، ولا سيما تلك الآثار المتعلقة ببلاد الحجاز . وقد قيل لي ان أصل عائلة الأنصاري من بلاد شنقيط . وأثناء حفلة العشاء التي أقامها السيد مدير الجامعة جلست الركبة حذو الركبة مع الأستاذ الأنصاري وتعلمت منه طريقة أكل الأرز باليد . أما المشوي فله طريقة واحدة في الاكل سواء كنت في الجزائر أو في السعودية .

وهناك غير هؤلاء من الجيل القديم. وبهذه المناسبة اذكر أن أحدهم قد طبع كتيبا باللغتين (العربية والانكليزية) ووزعه على أعضاء الندوة وبعنوان مكتبة محمد العقيلي .

---

1) وهي في وصف مكة والمدينة والقدس منسوبة لمحمد بن أبي بكر التلمساني . مجلة (العرب) جزء 6.5 . وللتلمساني أيضا كتاب (الجوهرة) في نسب الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه العشرة . حققه محمد التونجي ، مكتبة النوري ، دمشق ، 1982 .

وفي السعودية كثير من شخصيات الجيل القديم تعتز بمكتباتها الخاصة، وتسهر عليها، وتتفاخر بها. والحديث في ذلك طويل. وسأعود الى الحديث عن المكتبات أثناء زيارتي لمكة والمدينة .

كان برنامج الندوة ينص على زيارة آثار العلا ومدائن صالح بعد الانتهاء من القاء الأبحاث في الرياض. وكان الذهاب الى هناك عن طريق المدينة المنورة. ونظرا الى كثرة الأجانب غير المسلمين في الندوة فقد اقتضى البرنامج زيارة أماكن أثرية غير دينية. ومن ثمة زيارة العلا ومدائن صالح. وكانت خطة السفر تقضي بأن تحمل الوفود طائرة الى مطار المدينة ومنه يركبون الحافلات الى العلا ومدائن صالح مع تفادي الدخول الى المدينة. وبعد قضاء ليلتين تعود الوفود الى نفس المطار ومنه الى جدة بالطائرة. ومن جدة تتفرق الوفود : فغير المسلمين يعودون الى أوطانهم، وكذلك المسلمون غير الراغبين في العمرة. أما الذين يرغبون فيها من هؤلاء فتحملهم سيارات من جدة الى مكة. ثم تعود بهم الى جدة التي يطيرون منها الى أوطانهم أيضا. ولكن هذه الخطة تجعل، كما هو واضح، زيارة المدينة غير واردة، كما أن زيارة مكة المكرمة نفسها كانت ستقتصر على أداء العمرة .

غير ان وضع البرنامج على هذا النحو قد جعل وفود المغرب العربي خاصة تلح على الأخوة السعوديين بالسماح لهم بالبقاء في المدينة انتظارا لعودة الوفود الأخرى من مدائن صالح . كما انهم طلبوا تمديد اقامتهم بمكة . وكانت وجهة نظر وفود المغرب العربي ان حضورهم الى الندوة كان يهدف أساسا الى المشاركة في الندوة من الناحية العلمية وزيارة الحرمين من الوجهة الدينية . اما ماعدا ذلك من زيارة المدائن والاثار فثانوي بالنسبة اليهم . ومن حسن الحظ أن الأخوة السعوديين قد اقتنعوا وتفهموا وجهة نظرنا نحن المغاربة . وكانت خشية السعوديين تقوم على أن وفودا أخرى قد تطلب نفس الطلب وتكون النتيجة تفرق الوفود وتعدد المسؤوليات . بينما الأمور قد وضعت في الأصل على أساس البرنامج المذكور .

وهكذا تحقق لي أمل عريض عندما تخلفت في مطار المدينة مع وفد المغرب ووفد تونس ووفد اليمن وعضو من وفد الأردن وأستاذ من ايران ، بينما توجهت بقية الوفود الى العلا ومدائن صالح كما كان مخططا . ولم أكد أصدق أنني أسير

على تراب المدينة وأنظر الى جبالها ونخيلها وعمرانها عندما كانت السيارة التي أقلتنا من المطار تقطع الطريق إلى فندق (الرحاب) الذي وضعنا فيه رحالنا والذي كان معدا لاقامتنا والذي لا يفصله عن الحرم النبوي سوى الطريق . وبعد أن اغتسلنا وغيرنا ملابسنا توجهنا فورا الى الحرم فأدينا حق المسجد وحق قبر الرسول صلى الله عليه وسلم . ولا استطيع في هذه العجالة أن أصف المشاعر التي غمرتني وأنا أشاهد المسجد من بعيد ثم وأنا داخله من قريب ، وكذلك عندما كنت أقف عند الضريح الطاهر .

ومهما كان الأمر فقد كنت أتعجب وأنا أقرأ تاريخ الرحلات القديمة الى الحجاز ووصف العلماء والرحالة لمشاهداتهم ازاء هذا المكان ، ولكن عندما وقفت نفس الموقف عذرتهم في تأثرهم . بل استغربت كيف لم يتأثروا أكثر من ذلك . حقا، ان المرء يشاهد هناك أمورا مبالغا فيها ليست من الدين في شيء وهي بلا شك نتيجة الجهل الذي خيم على أجيال من المسلمين . فأنت ترى الباكين والنائحين، والمقبلين للحجر والحديد ، والداعين غير الله ، وتسمع قراءات منكرة لآيات من القرآن والأحاديث والادعية . وكانت الشرطة تنهي عن فعل بعض هذه الأمور، ولكن بلا جدوى ، لأن التربية الحقيقية في نظري تعود الى موطن المسلم الأصلي حيث على الحكومات الأسلامية وأولي الأمر ان يثقفوا الانسان المسلم الثقافة الاسلامية الحقيقية وان يعلموه الدين على حقيقته ، فيأتي الى الحرم وهو يعرف حدود الله وحدود غيره . وقد شاهدت في البقيع أيضا مناظر غريبة عن الدين يقوم بها بعض المسلمين الزائرين رغم التعليمات الواضحة المنبهة الى غير ذلك .

وفي المدينة التي بقيت فيها ثلاثة أيام اهتممت بشيئين الأول التعرف على الأماكن الأثرية التي قرأنا عنها في الكتب القديمة كأماكن الغزوات ومساكن الصحابة والمساجد التاريخية ونحو ذلك . أما الشيء الثاني فهو المكتبات . ولتحقيق الشيء الأول اكترينا (أنا وبعض المغاربة والتونسيين بعد صلاة الصبح مباشرة سيارة حملتنا في جولة الى مكان غزوة الأحزاب وموضع سيدنا حمزة ، ومسجد قبا ومسجد بنات النجار . وشاهدنا هناك أيضا عدة مساجد بنيت على مايقال ، على أنقاض بيوت الصحابة والخلفاء كالامام علي وسيدنا عمر وسيدنا أبي بكر ،

وشاهدنا كيف وسع الحرم النبوي وكيف سيوسع في المستقبل حيث أضيفت له ناحية كاملة مازالت معدة اعدادا مؤقتا . ويجري الان هدم أحياء قديمة كاملة حول الحرم وتعويض أهلها ، لتوسيع الحرم توسيعا كبيرا . وقد تجولت في المدينة وأسواقها وحدي تارة ومع غيري تارة أخرى . وصعدت على سطح الفندق العالي ليلا ونهارا وتعرفت على محيط المدينة ووسطها وأطرافها ، واستحضرت الماضي وقارنته بالحاضر .

أما البحث عن الشيء الثاني فقد قادني الى التوقف عدة مرات عند باعة الكتب حول الحرم ، كما قادتني خطاي إلى مكتبة عارف حكمت المشهورة ، ولكني وجدتها مغلقة لأن يومها كان عطلة ، وصادفت اليوم الثاني يوم جمعة فلم أستطع دخولها . أما المكتبة الثانية التي تمكنت من الدخول اليها فهي مكتبة الأوقاف المجاورة للحر،م أيضا وقد وجدت فيها عددا من القراء ، وسألت عن فهرس مخطوطاتها فأخبرت أنها مجموعة بأمر أعلى ، واستأذنت مديرها الشيخ محمد بكير المغربي (ولعله من أصل تونسي) فمكنني من فهرس أو أثنين ، ولكن ضيق الوقت لم يسعفني ، وأنا دائما أكون في صراع مع الوقت عندما التقي بالكتب .

وحول الحرم محلات تجارية كثيرة بعض مالكيها من غير العرب على ما يبدو من ملامحهم ومن اللغات التي يتحدثونها . ويبدو ان الموسم التجاري كان في ركود عندما كنا هناك . وقد أخبرني بعض العارفين بأن موسم الأنتعاش التجاري سيبدأ بعد أسابيع استعدادا لموسم الحج . ولعل كثرة غير العرب هو الذي جعل السعودية تتخذ اجراء يقضي بأن يمتلك السعودي خمسين في المائة على الأقل من رأس مال كل محل تجاري . وعند باب السلام على ما أظن التقيت بأحد الجزائريين المهاجرين من مدينة سور الغزلان ، وأهل المدينة مؤدبون جدا في معاملاتهم . والمواصلات متيسرة الى جميع الاتجاهات انطلاقا من المدينة . وتبدو الحياة فيها سهلة . وترد عليها باستمرار كتائب الزائرين ، رجالا ونساء وأطفالا . وترى الشراة والعباد فيها من جميع الأجناس والألوان . وكان الاستاذ السعودي الذي يرافقنا خلال اقامتنا بالمدينة من اطيب خلق الله خلقا ، لطيف المعشر ومتواضعا .

وفي مساء اليوم المعد لمغادرة المدينة جاء بعض أعضاء الوفود الاسلامية من رحلة مدائن صالح لأداء الزيارة . وكان من حظهم ان جمعوا بين الحسنتين . أما نحن

فقد فزنا بحسنة واحدة . ولكنها تعادل في نظرنا كل الحسنات الأخرى . وتوجهنا الى المطار ، فوجدنا هناك الوفود غير الاسلامية في الانتظار . وعندما اجتمع الشمل أديت صلاة المغرب بمسجد المطار وودعت تراب المدينة . ثم استقللنا الطائرة إلى جدة

ومن مطار جدة توجهنا الى أحد الفنادق ، وأحرمنا وقصدنا مكة المكرمة بالحافلة في نفس الليلة . وقد حملت معي حقيبتي للاقامة في مكة بدلا من جدة . ووضعنا الحقائب في فندق (زهرة مكة) المطل على الحرم ، ثم قادنا المطوف الى الحرم لأداء العمرة . وكان الوقت حوالي الساعة الثانية صباحا ، وكان الجو رطبا والنفس مشوقة رغم الحاجة الى النوم والطعام . ومع ذلك فان شعور المرء بأنه يمشي على الأرض التي ولد فيها الرسول ونزل فيها الوحي وانهزم فيها الكفر وانتصب فيها مقام ابراهيم جعل كل تعب يهون وكل حاجة دنيوية تتضاءل . وكان المطوف خبيرا باداء الشعائر فصيح اللسان . ويبدو انه متمرس أيضا على الطواف بالوفود الرسمية . ذلك أننا سمعنا بعض المطوفين الاخرين يقرأون قراة مكسرة ويزيد المطاف بهم ذلك تكسيرا وتحريفا . وقد كان معنا بعض الجهلة باللغة العربية من الوفود العربية فكانوا ، يرددون الخطأ ويزيدونه لحنا من عندهم . كما كان معنا بعض العلماء يدعون دعاءهم الخاص بصوت هادئ وخشوع تام . وقد لاحظت ، بعد أداء العمرة ، لأحد هؤلاء العلماء (وهو الشيخ الكتاني المغربي) مدى تعدد السنة المسلمين واختلاف اشكالهم وازيائهم وألوانهم فأجابني بكل تأكد وبساطة : ذلك هو المجتمع الإسلامي الذي أراده الرسول صلى الله عليه وسلم فرغم اختلاف عناصره وتعدد أصقاعه فإن أهله يجتمعون حول الكعبة في كتلة متراصة لا فضل فيها لعربي على عجمي إلا بالتقوى .

بقيت في مكة خمسة أيام منها يومان في الفندق المذكور ضيفا على الندوة والثلاثة الأخرى عند أخي البشير سعد الله المهاجر منذ أكثر من ربع قرن والذي لم أره طول هذه المدة حتى أنه عندما رآني لم يكد يعرفني . وفي مكة ، كما في المدينة ، عكفت على تحقيق أمرين . الأول إشباع فضولي الديني والثاني إشباع نهمي العلمي . وقد حققت الأول عن طريق مجاورتي للحرم بحيث لا أكاد أخرج منه إلا للضرورة . بل حتى أخي كنت لا أذهب إلى داره إلا ليلا . ثم أنني أجرت سيارة حملتني إلى الأماكن الشهيرة مثل جبل حراء وعرفات ومنى والمزدلفة

ونحوها . أما الأمر الثاني فقد حققته عن طريق قضاء عدة ساعات في مكتبة الحرم المكي ومكتبة الحرم . والثانية تقع في ما كان يعتقد أنه مسقط رأس الرسول صلى الله عليه وسلم في بطن جبل أبي قبيس ومنبت بيوت بني هاشم . وفي المكتبة الأولى تعرفت على مديرها ومساعده . وقد وجدت منهم كل المساعدة والتفهم والاستعداد العلمي . وقد عثرت في هذه المكتبة ، التي توجد مؤقتا في مكان بعيد (حي التيسير) عن الحرم ، وستنقل قريبا إلى مبنى جديد مجاور للحرم ـ عثرت على أخبار علمية كثيرة عن موضوع كتابي (تاريخ الجزائر الثقافي) . ولكن النصوص والوثائق التي كنت أبحث عنها وخصوصا رحلة أحمد بن عمار ورحلة عبد الرزاق بن حمادوش ، لم أجد لها أثرا .

وفي مكة عدد كبير من الافريقيين ، عمالا ومهاجرين ومعتمرين وتجارا . وفيها حي يدعى (حي بورنو) وهو يمتليء بالزنوج الذين يتكلمون لغتهم فيما بينهم ، كما أن الحرم يمتليء بهم ، وأطفالهم ينتشرون هنا وهناك . وقد سمعت أن الجامعة الإسلامية تضم عددا من الطلاب الأفريقيين . وقد تجولت في أحياء مكة وخاصة سوق الليل وسوق أبي سفيان . كما زرت رواق المغاربة الذي قيل انه قد حبس عليهم من عهد سيدنا عثمان وجدد لهم خلال عهد الفاطميين . وقد دخلت هذا الرواق فوجدت فيه أحد المغاربة من الدار البيضاء (المغرب) فاعترض على لبسي خاتم الزواج قائلا لي ان لابس الذهب سيكوى به يوم القيامة . وقد وجدته يطعم القطط لحما . كما وجدت فيه بعض المرضى والعجزة . وفيه وجدت شيخا جزائريا من (العفرون) ، وهو الذي قادني إلى منزل أخي ومنزل الشيخ حروز القماري . وقد قيل لي انه يمتليء أيام الحج حتى أنك لا تجد فيه مكانا لإبرة . وتعرفت على شوارع مكة حتى أنني كنت أقطعها وحدي راجلا من سفح جبل أبي قبيس إلى شارع منصور حيث يقيم أخي وحيث حي الجزائريين ، ولا سيما مهاجرو (وادي سوف) . والحركة فيها حية طول الليل والأمن شامل والناس يقومون بمهماتهم كل في حال سبيله .

وتلاحظ بسهولة أن الحياة بسيطة . ذلك أنه يكفي من اللباس ما أحاط بالجسم ويكفي للقدم نعل مفتوح ساذج . ويكفي لتغطية الرأس ما خف للوقاية من الشمس . وسرعان ما تجف أطرافك إذا توضأت وما تنشف ثيابك إذا

غسلتها . ويبدو أن المأكل والمشرب أيضا بسيط . حقا ان المشروبات المباعة والمبردة في صناديق الثلج تملأ المحلات والمراوح الهوائية في البيوت وأجهزة تكييف الهواء أصبحت من ضرورات الحياة . وقد اشتكى لي سائق السيارة التي حملتني إلى عرفات من أن أطفاله (وهو متزوج من أكثر من زوجة) مصابون بسعال حاد من هواء المراوح والمكيفات وأنه لا يدري كيف يعالجهم . غير أني قلت له ان ذلك من أثر الحضارة الحديثة عليكم ، أما أجدادك فلم تكن لهم مراوح ولا مكيفات ، ومع ذلك كانوا ينامون ويستمتعون بحياتهم .

ويلاحظ المرء نهضة عمرانية ضخمة . فسواء كنت في الرياض أو جدة ، في مكة أو المدينة ، تجد المشاريع الكبيرة لتعبيد الطرقات وتشجيرها وإقامة الحدائق والساحات وتجديد الأحياء القديمة وتوسيع الحرمين وتسهيل أداء الحج والعمرة وتكبير المطارات والمراسي ، وخاصة ميناء جدة ومطارها . وقد أصبح أسطول الطيران السعودي من أكبر الأساطيل الجوية على ما بلغنا . وامتد عمران جدة حتى كاد يغزو حدود مكة وانتقل اليها (جدة) كبار الصناع والتجار ودور الصحافة الخ .

وهناك عدد من الجامعات منها جامعة الرياض التي تأسست في أوائل الخمسينات ، وجامعة محمد بن سعود الإسلامية ، وجامعة الملك عبد العزيز ، بالإضافة إلى وجود عدد كبير من الطلاب يدرسون في الخارج . وهناك رغبة ملحة وأكيدة في إحلال الإطارات السعودية محل الإطارات المتعاونة . وهي نفس الرغبة التي توجد عندنا في الجزائر بالنظر إلى المتعاونين ، بل أحيانا تصبح في السعودية أكثر حدة . وتضم الجامعات أحدث المكتبات شكلا والمخابر والأدوات والمطابع .

أما الصحافة فأنت تقرأها كأنك تقرأ صحفا دولية ، فهي تتضمن الأخبار الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . وبودي أن ألح على الظاهرة الأخيرة . ففي الصحافة السعودية أخبار فنية لا تختلف عن أي صحافة مماثلة في العالم كأخبار المرأة وصورها وأخبار المطربين والمطربات وأخبار الشعر والأدب . كما أنها تحتوي على جانب كبير من الإعلانات من شتى الأنواع .

وهناك عناية خاصة بالرياضة سواء في الصحافة أو التلفزيون أو في الإذاعة وقد شاهدت جزءا من مباريات على التلفزيون . وكان الإقبال عليها عظيما والحماس شديدا . ويغطي التلفزيون الأخبار العامة والأفلام العربية (مصريه ولبنانية) والأجنبية الناطقة بالانكليزية مع ترجمة لها بالعربية . كما يغطي ألوانا من الصور المتحركة الأجنبية وأنواع السيرك والحصص الثقافية العامة . وشاهدت ذات مرة وأنا أسير في المدينة المنورة حصة على التلفزيون الملون تتناول طرق التجميل لدى المرأة بالصور . ولا يوجد في السعودية ، على ما بلغني ، دور سينما ولكني لاحظت كما سبقت الإشارة وجود أفلام في نفس الفندق الذي كنا نقيم فيه بالرياض . ولعله يوجد نفس الشيء في الفنادق الكبيرة الأخرى ، وخصوصا في جدة . وقد لاحظ أحد أعضاء الندوة بأن المجتمع السعودي يمر بتحول اجتماعي كبير ، وان نتائج هذا التحول ستظهر قريبا .

* * *

ويوم الخامس من مايو 1977 صليت الصبح في الحرم المكي مع أخي ، ثم اكتريت سيارة حملتني الى جدة رفقة زميلي المغربي، الدكتور عبد الكريم كريم . وفي أقل من ساعة كنا في جدة . وكان الجزء الأول من الطريق غير واضح لاختلاط الليل بالنهار ، أما الجزء الثاني منه فقد رأينا فيه اعلانات ضخمة عن شركات الطيران الدولية والشركات التجارية . ومن وقت لآخر كنا نشاهد بعض الأشجار والتجمعات السكنية البسيطة . وعلى جانبي الطريق تختلط الرمال بأحجار الجبال والكدي فتذكر المرء بأجزاء كثيرة من صحراء الجزائر وطبيعتها مما قد يفسر سرعة انتشار الإسلام في المغرب العربي وسرعة تأقلم الإنسان العربي خارج بلاده الأصلية . وقد دل امتداد مدخل جدة من جهة مكة على تضخم جدة وامتدادها نحو الشمال الشرقي. ورغم ان النوم كان يثقل اجفاني فاني كنت التفت ورائي محاولا تكحيل جفوني بآخر مناظر مكة وآخر جبالها ونواحيها .

وكان المفروض أن نصل الى مطار جدة حوالي السابعة، ولكننا بكرنا فوصلناه حوالي السادسة. فخرجنا نتجول في أسواقها القريبة، فاذا المدينة تعج بالسيارات وكتائب القادمين والرائحين لأغراض شتى. أما العمال فأنت تراهم قادمين من أقصى أنحاء العالم. وقد عرفت هناك عمالا من المغرب الأقصى ومن الشرق

الأقصى (كوريا) . وبعد أن حان وقت السفر دخلنا المطار وأخذنا أماكننا في انتظار النداء للتوجه الى الطائرة السعودية التي ستقلنا الى القاهرة .

وأثناء مروري بشرطة الجوازات بحث الشرطي عن الحرف العربي في جواز سفري فلم يجده، فرفع بصره الي وقال بأدب جم : يا أخي متى تعربون جواز سفركم؟ ألم تخرج فرنسا من عندكم؟ وقد حز كلامه في نفسي، وكدت لا أجد ما أقوله له لأنني كنت شخصيا مقتنعا بكلامه. ففرنسا قد خرجت من الجزائر منذ خمس عشرة سنة. ونحن ندعي الثورة الثقافية التي أساسها التعريب، ومع ذلك فان الجزائري يسافر بجواز سفر مكتوب كله بالحروف اللاتينية، والعبارات الفرنسية. وكان يكفي أن يكتب باللغتين كما تفعل بلاد عربية كثيرة. ذلك اننا بابقائنا على جواز السفر على ما هو عليه كأننا نفرض على العرب ان يتعلموا الفرنسية ليعاملونا في أسفارنا على أساسها. وليست ملاحظة الشرطي السعودي أول ملاحظة أسمعها على قضية الجواز ، فقد سبق لي أن سمعت مثلها من شرطة بلاد عربية أخرى (1) .

وفي الساعة المحددة للطيران طلب من الركاب تغيير قاعة الانتظار وقيدوا الى قاعة مجاورة معدة للانتظار الطويل. وبعد حوالي ربع ساعة من الدهشة والتوقعات جاءنا خبر بالغاء الرحلة تماما، وبعد ساعتين من الانتظار الاضافي ركبنا طائرة سعودية أخرى غير التي كانت مقررة، حملتنا الى القاهرة في ظرف ساعتين. وعندما صعدت الطائرة في سماء جدة، وحومت فوق الميناء، وسارت محاذية لضفاف البحر الأحمر كانت خواطري موزعة. فالحنين الى مهبط الوحي ومنبت العربية يشدني اليه، والشوق الى مسقط الرأس ومراتع الأهل والخلان تناديني بألف صوت. وتذكرت ، والطائرة تفارق أرض الجزيرة العربية في اتجاه الغرب، مقالة أحد السعوديين عندما ذكرني بما كان الخليفة عمر بن الخطاب يقوله للمسلمين بعد أداء فريضة الحج، وهو : يا أهل الشام شامكم، ويا أهل المغرب مغربكم ! وتساءلت : ما مصلحة الاسلام اذا كان جميع المسلمين يقطنون الجزيرة العربية ؟ ثم وليت وجهي نحو المغرب مرددا مقالة الخليفة العظيم : يا أهل المغرب مغربكم !

ابن عكنون (الجزائر) ، 7 يوليو، 1977

---

1) من حسن الحظ أن الجواز الجزائري يكتب الآن باللغتين .

زيارة لخنقة سيدي ناجي

كل من قرأ ما كتبه الرحالون والدارسون عن خنقة سيدي ناجي قبل الاحتلال الفرنسي تحن نفسه الى رؤيتها اليوم للاطلاع على ما بقي من آثارها. وأنا من هؤلاء. فقد شغلت مآثر الخنقة القديمة حيزا طيبا من كتابي (تاريخ الجزائر الثقافي) خلال العهد العثماني(1). وكنت قد قرأت ما كتبه عنها عبد الله العياشي المغربي(2). والحسين الورتلاني (3) . وخليفة بن حسن القماري (4) وغيرهم . لذلك كنت أتحين الفرصة لزيارتها وربط حاضرها بماضيها . ولم أتمكن من ذلك إلا خلال عطلة الشتاء (*) .

في يوم 8 فبراير 1980 توجهت بكرة (الساعة السادسة صباحا) رفقة الأستاذ علي باشا، وهو مدير لمتوسطة مختلطة في بسكرة والمنظم لهذه الزيارة. والأستاذ ميموني الغسيري والشيخ الأخضر الخنقي. الى خنقة سيدي ناجي انطلاقا من بسكرة. وكانت المسافة بين النقطتين حوالي 95 كلم . وفي الطريق مررنا بإزاء مدينة سيدي عقبة وزريبة الوادي وبعض القرى الأخرى ، ولم يبق بيننا وبين ليانة سوى بضع كلم وحين اقتربنا من الخنقة كاد جبل ششار يسد الطريق في وجوهنا حتى لقد تساءلت أين المدينة وسط هذا المثلث الصخري الهائل. ولولا بعض رؤوس النخيل وبعض

1) الجزء الأول، الفصل الثالث .

2) الرحلة (ماء الموائد) ج 2

3) رحلته (نزهة الأنظار) ، ص: 177 .

4) خصه الشيخ محمد الطاهر التليلي بتأليف سماه (اتحاف القاريء بحياة خليفة بن حسن القماري)، مخطوط .

(*) نشرت بمجلة (سرتا) السنة الثانية العدد 3 ، مايو ، 1980 .

القباب القديمة في سفح الجبل لما عرفنا أن العمران قد حط رحاله ذات يوم في هذا «المخنق» أو الخنقة الصعبة المنال . وتقدمنا تدريجيا في طريق بين الجبل ووادي العرب فاذا العمران القديم يكثر واذا الناس في زيهم المحلي (البرانس أو القشبية) يختلفون في الأزقة وعند الدكاكين القليلة إلى أن وصلنا ما يشبه الساحة قريبا من ديار أولاد حسين. فتوقفنا. وقد جاء من سلم على الشيخ الأخضر لمعرفة سابقة به. وتحادث هو مع من يفهم مهمتنا ويسهل غرضنا. ومن هؤلاء السيد عبد الكريم الدريدي مؤذن مسجد السوق .

فقد استضافنا السيد الدريدي بداره على العسل والجوز . وأحضر لنا بعض الكتب ، منها (منار الأشراف) (1) لعاشور الحنفي ، وهو مطبوع ، وتقرير مطبوع بالعربية للسيد جونار ، الوالي العام على الجزائر في وقته (حوالي سنة 1918) (2) فشكرته على كرمه وأخبرته بأن هذه الآثار معروفة لدى وإنني أبحث عن غيرها ، ولا سيما المخطوطات والوثائق القديمة. والسيد الدريدي ابن شهيد ومن خفظة القرآن الكريم.

وأثناء جلوسنا في دار السيد الدريدي مر أمام النافذة شيخ في حدود الثمانين من عمره ملتحفا بغرارة فقط (رغم شدة البرد) وكان حاسر الرأس والمخاط يسيل من أنفه والدموع من عينيه ، فسألنا عنه فقيل لنا انه من بقايا أسرة أولاد حسين الشهيرة في هذه الناحية وأنه درويش من أهل الله يسكت متى شاء ويتحدث متى شاء . وقد أشار اليه السيد الدريدي بالدخول ومشاركتنا ولكنه انصرف عائدا إلى داره دون أن يعبر بشيء .

ومن الذين حضروا هذه الجلسة أيضا السيد صالح السالمي ، وهو متوسط العمر ويعمل الآن منسقا لشؤون الفلاحة في بلدية الخنقة. وقد روي لنا أخبارا مثيرة عن أيامه في المحتشد أثناء الثورة. وحدثنا عن أحوال الخنقة اليوم وأعطانا صورة عامة عن معالمها الباقية بالتعاون مع السيد الدريدي. وهي المعالم التي سنذكرها بعد قليل .

---

1) مطبوع ، الجزائر ، 1914

2) تولى على الجزائر ثلاث مرات ، 1901 ، 1018 . وأطول مدة قضاها خلال الفترة الثانية ، أنظر : عنه كتابنا (الحركة الوطنية الجزائرية) .

وعند خروجنا من دار السيد الدريدي توقفنا عند وادي العرب العظيم الذي تحوط به الدور من جهة والنخيل وأشجار الفاكهة والخضر من جهة أخرى . ونظرت نظرة طائر هنا وهناك فاذا الخنقة خلافا لمدن وقرى القطر الأخرى، لاتنمو كثيرا . فالمباني الجديدة قليلة وتوسعها جغرافيا محدود . وقد قيل لي أنها أوشكت على الخراب سنوات الثورة اذ لم يبق فيها الا عدد من السكان حين اتخذها الفرنسيون نقطة إرتكاز لموقعها الجغرافي ، ثم أن كثيرا من أهلها ـ وخصوصا العائلات الموسرة والشبيبة ـ لم يعودوا اليها بعد الثورة وانتشروا في المدن الأخرى مثل مدينة الجزائر وقسنطينة وبسكرة وخنشلة . على أن قصر زيارتي لم يسمح لي بالتوسع في هذه النقطة لاعرف عدد مدارس الخنقة الحالية ومراكز العمل فيها وصناعتها وفلاحتها. كما أن هذه النواحي في الواقع لم تكن من اهتماماتي الأساسية ، وانما اهتمامي الآن بالمعالم الأثرية والمراكز العلمية لهذه المدينة التي عرفت ازدهارا علميا في القرن الثاني عشر للهجرة (18م) فاذا بها اليوم تنسحب من المسرح تماما .

وقد نظم الأخوان أيضا زيارة دار الشيخ أحمد زروق بلمكي الذي هو ، على ما قيل لي ، من أبرز علماء الخنقة الأحياء . فذهبنا الى داره ، وخرج الينا مسلما ولكنه اعتذر عن الجلوس معنا ومحادثتنا لأنه ـ كما قال ـ جاء يقضي عطلة فقط ثم يعود إلى عمله وهو إمامة جامع ابن باديس بخنشلة ، وان له ارتباطات أخرى ذلك اليوم (وهو يوم جمعة) . وأثناء الوقوف معه في مدخل الدار اخبرني أنه من مواليد سنة 1910 وأنه قد درس في الخنقة قبل توجهه ، سنة 1921 ، إلى تونس للدراسة في جامع الزيتونة. وقد تخرج منه سنة 1933 . ومن زملائه في الدراسة هناك الشيخ المهدي البوعبدلي. كما أخرج لي ملفا فيه بعض الآثار المخطوطة، منها قصيدة لوالده في شؤون الدين لم أسجل عنوانها. وقد وعدني بنسخ نسخة منها . ودار الحديث معه ، رغم وقوفنا بالباب حول نسبته الى الطريقة الزروقية (المنسوبه الى أحمد زروق الفاسي البرنوسي) (1) ، فأجابني بالنفي ، وافترقنا على أمل المراسلة

وقد علمت من الأخوان الدريدي والسالمي وغيرهما ان المراكز الدينية والعلمية بالخنقة في القديم هي :

1) توفي بطرابلس الغرب سنة 899 هـ .

1) ـ الجامع الكبير المعروف أيضا بجامع سيدي مبارك الموجود ضريحه في ملحق بالجامع ، وهو جامع الجمعة العتيق الذي يبدو أن تأسيسه يعود الى القرن الحادي عشر (17م) ، كما سنرى .

2) ـ مسجد السوق الذي تقام فيه الصلوات الخمس . وقد بني حسب التواتر خلال القرن الثاني عشر (18 م) .

3) ـ مسجد زاوية الشيخ عبد الحفيظ الخنقي ناشر الطريقة الرحمانية في القرن الثالث عشر (19م) . وقد جدد هذا المسجد أخيرا فقط (سنة 1979) السيد رشيد ، حفيد الشيخ عبد الحفيظ .

4) ـ مسجد كرزدة (اسم احدى القبائل القديمة) الذي اندثر الآن ، لأن الفرنسيين هدموه سنة 1957، وبنوا فوقه وسكنوا البناء الجديد ثم غادروه بدون أن يبقى أثر للمسجد .

5) ـ مسجد سدراته (اسم قبيلة أيضا) ، وقد بني قبل دخول الفرنسيين ، وتقام فيه الصلوات الخمس بطريقة غير منتظمة . وهو المسجد الذي قرأ فيه الشيخ أحمد زروق بلمكي المذكور قبل ذهابه الى خنشلة. وكان في الخنقة زاويتان: الناصرية والرحمانية . فالناصرية المنسوبة الى محمد بن ناصر(2)، قديمة تعود الى القرن الحادي عشر الهجري . وأما الزاوية الرحمانية فهي حديثة نسبيا ، اذ تعود الى القرن الثالث عشر ، ومؤسسها هو الشيخ عبد الحفيظ بن محمد الخنقي المذكور . والرحمانية تنسب الى الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري الجرجري المتوفي سنة 1208 . وتسمى أيضا بالخلوتية .

وكانت الزاوية الناصرية ، بجامعها الكبير ومدرستها ، هي التي أشعت على الناحية بالعلم والمعرفة طيلة قرنين أو يزيد . وكانت موئل علماء الزاب والصحراء

---

1) أنظر:عنه آخر المقال . ولا نعرف بالضبط متى قدم سيدي مبارك إلى الخنقة . والغالب أن يكون ذلك في بداية القرن الحادي عشر الهجري. وكان أخوه، الشيخ التواتي حيا سنة 1065هـ.وهذا هو الذي درس عليه عيسى الثعالبي الجزائري قبل سفره الى المشرق سنة 1061هـ .

2) محمد بن محمد المعروف بابن ناصر الدرعي ، المتوفي سنة 1085 ، والطريقة الناصرية مستمدة من الطريقة الشاذلية .

والأوراس وقسنطينة وزواوة بل وتونس وطرابلس أيضا . وكانت المدرسة التي ما تزال قائمة ، تحتوي على خمس عشرة غرفة ، وتضم كل غرفة من خمسة الى عشرة طلاب . وفي احدى هذه الغرف درس الشيخ المرحوم أحمد السرحاني ، تلميذ ابن باديس . وقد قيل لنا ان من طلابها أيضا الشيخ المرحوم العربي التبسي ، وقد تجولت في هذه المدرسة التي تعرف بالناصرية ، وفي الجامع وبين الاضرحة فوجدت وسط المدرسة باحة وحولها الغرف لسكنى الطلبة في طابقين ، ولها بابان ، باب خارجي على الزقاق وباب داخلي يؤدي الى الجامع . ذلك أن الطالب كان يقرأ القرآن في المدرسة ويبيت فيها . وعندما ينضج علميا يحضر حلقات الدرس في الجامع المجاور (جامع سيدي مبارك أو الكبير). وعلى الباب الخارجي لهذه المدرسة وجدت كتابة منقوشة على الرخام تفول انها بنيت على يد أحمد بن ناصر في شهر رجب سنة 1171 (1) والغالب على الظن أن هذا التاريخ هو تاريخ التجديد وليس تاريخ البناء الأصلي . ولهذه المدرسة بالإضافة الى الغرف حمامات وكوشة وصخور منحوتة بأحواض ماء لمحو الألواح . وتوجد نقوش رائعة الجمال على الرخام المحاط بالباب الخارجي للمدرسة تحتاج إلى التصوير والحفظ في أحد المتاحف لأنها على وشك الضياع ، فهي تحفة فنية من التراث المحلي والوطني فليت مصلحة الآثار تلتفت الى هذه النقوش فتصورها وتحفظها . وقد لفت نظري أن مصلحة الكهرباء قد ثقبت جزءا من ذلك الرخام المنقوش لتمد أحد الخيوط دون مراعاة الأضرار التي لحقت بهذا التراث .

وكذلك كان الجامع الكبير مأثرة جليلة. فهولم يكن فقط لأداء الصلوات بل كان مركزا لنشر العلم حيث تتحلق فيه حلقات الدروس من شيوخ قال عنهم الورتلاني انهم اشتهروا بالنحو والفقه والحديث ولكنهم لا يحبون تدريس التوحيد والمنطق . وطالما تبادل هؤلاء الشيوخ الرسائل والأجوبة في مختلف قضايا العلم مع علماء قسنطينة وتونس ، ونذكر من هؤلاء الشيخ خليفة بن حسن القمارى ناظم الشيخ خليل الذي أجابهم عن صحة الاستدلال بالأثر(أو الجرة) وعن حكم الشرع في الزوج الذي وجد مع زوجه أجنبيا عنها فضربها فطالب وليها بطلاقها .

1) يغلب على الظن ان نسبة المدرسة الى (الناصرية) هي نسبة الى مجدد بنائها وليس الى الطريقة الناصرية الشاذلية .

والجامع واسع يحتوي على ست وعشرين عرصة وله صحن غير مغطي ملحق به ، ولهذا الصحن محراب أيضا . وللجامع صومعة عالية ما زالت جيدة الصنع . وقد بلغت درجتها 62 درجة على الأقل . وكانت هذه الصومعة فيما مضى لاسماع الآذان وللمراقبة أيضا عند الأخطار ، فهي تشرف على جميع الوادي والمدينة والمدخل والطرقات . وقد صعدت هذه الصومعة رفقة الإمام الشيخ نور الدين بلمكي (وهو أخ الشيخ أحمد زروق سابق الذكر) الذي تفضل بالتجول بنا في الجامع والمدرسة والمقابر التابعة . وهناك تواريخ منقوشة على محراب وقبة الجامع . من ذلك ما وجدته منقوشا على المحراب وهو أن باني الجامع هو محمد بن محمد الطيب أواسط شهر صفر سنة 1147 . كما وجدت أن ناقش المحراب هو أحمد بن عمر التونسي . وهناك تاريخ آخر يشير إلى أن القبة (قبة ضريح الشيخ سيدي مبارك) والجامع قد بنيا سنة 1171 ، وان تكاليف البناء قد بلغت 8113 بعملة ذلك الوقت . أما على ضريح سيدي مبارك نفسه فقد وجدت مكتوبا عليه أن علي بن حسين باي قد أودع فيه شهادة أن لا إله إلا الله ، وان ناقشها هو الاصطا حسين سنة 1151 . وهناك أضرحة كثيرة في غرف خاصة تضم أجداث أولاد حسين وأولاد مبارك وأولاد بلمكي ، بعضها ما زال يحمل تاريخ الوفاة والبعض محت الرطوبة والبلى تاريخه . وقد قرأت في مقبرة أولاد حسين أن أحمد البدوي بن حسين توفي سنة 1352 (1934) . وتوجد خارج الجامع أيضا مقبرة أخرى خاصة بأولاد سيدي ناجي الذي تقول الروايات انه جد أولاد سيدي مبارك . (1) .

أما زاوية الشيخ عبد الحفيظ فليس هناك تاريخ مضبوط لتأسيسها . وتوجد لوحة خشبية عند ضريح الشيخ عليها كتابات بالسمق في اتجاهات مختلفة. ويبدو أن الزوار كانوا يسجلون تاريخا أو حكمة أو بيتا من الشعر أو دعاء في هذه اللوحة حتى أساؤوا الى السطور الأصلية التي يبدو أن محمود(دفين تونس) ابن الشيخ عبد الحفيظ قد أرخ فيها لوفاة والده . ولم نستطع رغم المحاولات مني ومن زملائي ، على ضوء الشمع والكبريت ، قراءة تاريخ وفاة الشيخ الذي يظهر أنه أواسط ربيع الأول سنة 1267 .وضريح الشيخ عبد الحفيظ معتم ورطب وفيه خرق كثيرة

1) بناء على ما جاء في رحلة العياشي فان سيدي ناجي هو والد **الشيخين سيدي مبارك وسيدي التواتي**. وليس جدهما .

الألوان وعليه سبحة ضخمة ذات حبات بنية اللون الواحدة منها في حجم حبة الكرز . وقد قيل لي أنه كان بها ألف حبة ، غير أن الزوار أخذوا منها للتبرك فتناقصت . ولم يسلم باب الضريح (وهو نفسه "تحفة أثرية) من العبث اذ نقش عليه أحد الزوار بيتين أو أكثر من الشعر بطريق التثقيب في الخشب. ويقع الضريح داخل المسجد الذي قلت سابقا انه قد جدد خلال العام الماضي فقط . ولاشك أن زاوية الشيخ عبد الحفيظ قد بدأت بنشر العلم واقراء القرآن واطعام الطعام للفقراء، شأنها في ذلك شأن معظم الزوايا في القديم ، ثم اختفى دورها العلمي مع تقدم الإستعمار ، واقتصرت وظيفتها على الأمور التعبدية ، حتى اقراء القرآن قيل لي انه لم يعد بها منذ اندلاع الثورة .

وعندما سألت عن المكتبات التي اشتهرت بها الخنقة ، ولا سيما مكتبة المدرسة الناصرية التي غذت أجيالا من الطلبة والعلماء، أجابني المجيبون أجوبة غير مقنعة. وعلى كل حال فان المدرسة اليوم وكذلك الجامع بدون مكتبة. فقد اندثرت كتبهما تماما ، وليس في زاوية الشيخ عبد الحفيظ سوى. صندوق بجانب الضريح فيه بعض المصاحف، وقد أعاد محدثي انقراض الكتب من هاتين المؤسستين الى أحداث الثورة وخروج الناس من الخنقة، قائلا لي لقد مرت بنا سبع سنوات عجاف حتى ان أحدا لم يصعد منا الى صومعة الجامع للآذان ، ومن المشهور عند الناس الذين تحدثنا اليهم وغيرهم ان للشيخ أحمد زروق بلمكي مكتبة كبيرة وان له تآليف وتقاييد من انتاجه. كما قيل لي ان كناشا ضخما فيه تقاييد بآثار الخنقة موجود الآن عند السيد العربي بن حسين الساكن في وهران .

والتقينا في مسجد الشيخ عبد الحفيظ بالشيخ المسن(حوالي 82 سنة) محمد المولود بوغديري أخبارا نوردها كما هي لأنها أخبار تقوم على الذاكرة وليس على الوثائق المكتوبة ، قال الشيخ : كانت الخنقة في القديم عبارة عن غابة ، وان سيدي مبارك قد جاء من الساقية الحمراء ، وبعد أن قرأ بفاس جاء الى ورقلة ، وبقي سنين هناك ثم حل بزرينة الوادي. وكانت بينه وبين الشابي (1) ، مطاردات أدت الى

1) يظهر من السياق أن عهد سيدي مبارك يتفق مع عهد عبد الصمد الشابي . (ت 1025) ومحمد بن مسعود الشابي (ت 1028). ونظرا إلى أن عبد الصمد هو الذي اشتهر بحروبه ضد العثمانيين والقبائل المستعصية عليه فانه يبدو أنه هو المعنى بهذه القصة. أما أخوه محمد المسعود فقد اتجه اتجاها صوفيا. وكلاهما عاش فيما هو الآن الخنقة ونواحيها فترة .

أن أخذ له الشابي غنمه، فرحل سيدي مبارك الى بادس ثم حل بالخنقة يرافقه أربعة عشر عرشا واستقروا ، ومن الذين كانوا يأتونه قبيلة طرود التي تسكن اليوم وادي سوف، وكان الشابي من خصومه. وسيدي مبارك هو الذي جاء بالطريقة الناصرية ، وأخذ في نشر العلم واقراء القرآن. وقد سميت الخنقة(خنقة سيدي ناجي) لأن سيدي ناجي هو جد سيدي مبارك . أما الشيخ عبد الحفيظ فهو هجرسي ونجني وليس من أولاد سيدي مبارك . وقد توقفت المدرسة الناصرية (مدرسة وجامع سيدي مبارك) عن نشر العلم منذ الاحتلال الفرنسي . وأقام في الخنقة على باي (باي تونس) حوالي ثلاث سنوات . كما أقام فيها أحمد القلي (باي قسنطينة) وكذلك الحاج أحمد باي الذي التقى فيها بالشيخ عبد الحفيظ . أما الشيخ عبد الحفيظ فقد قتله الضابط الفرنسي ـ جيرمان ـ .

وهنا دخل الشيخ بوغديري ـ الذي ما يزال قوي الذاكرة ، شهيرا عندهم بالحفظ ـ في متاهات تاريخية تحتاج الى توثيق وتأكد . وقربت ساعة عودتنا الى بسكرة لارتباطات أخرى سابقة . فودعنا الجميع بحرارة على أمل الرجوع والمكوث طويلا لجمع معلومات أغزر وأضبط عن هذه المدينة ـ القرية التي كانت عروسا فأصبحت عجوزا . فهل تمتد اليها الأيدي الغيور وتعيد اليها شبابها ، العلمي على الأقل . وتحفظ آثارها من الضياع ؟

وعند مرورنا بزريبة الوادي حان وقت صلاة الجمعة فأديناها في مسجدها الذي لا يكاد يرى من بعيد حتى اضطررنا للسؤال عنه عدة مرات ، لأنه لا صمعة له . وهو جامع واسع ضخم العرصات ومبني بالجبس وكان غاصا بالمصلين . وخلافا للخنقة وجدنا الزريبة ، مثل كل القرى الجزائرية اليوم ، تتجدد وتتوسع وفيها الحي القديم والجديد . ولا يسعني في نهاية هذه الكلمة الا شكر الأخوة الذين رافقوني وسهلوا اتصالاتي رغم قصر المدة التي عبرت فيها عن رغبتي في زيارة الخنقة . وكذلك الأخوة الذين استقبلوني وساعدوني على أداء مهمتي العلمية .

مدينة الجزائر . 25 فبراير . 1980 .

حول رحلة ابن طوير الجنة (*)

قرأت في هذه المجلة (1) ما كتبه الدكتور صفاء خلوصي عن (كتاب حجة أحمد بن طوير الجنة) الذي نشره الدكتور نوريس بالانكليزية . وقد لاحظت أن الدكتور خلوصي قد عرض الكتاب مكتفيا بما جاء على غلافه، كما لاحظت ان الدكتور نوريس قد اقتصر في تحقيقه على نسخة واحدة. لذلك رأيت من المفيد للباحثين أن أضيف هنا بعض ما أعرفه عن الموضوع .

1 ـ في البحث عن الرحلة :

علمت بوجود شخصية الطالب أحمد المصطفى ين طوير الجنة أوائل الستينات عند قراءتي لكتاب (المرآة) لحمدان بن عثمان خوجة الجزائري الذي كتبه سنة 1833 (2). فقد شكا حمدان في كتابه من اجبار السلطات الفرنسية للجزائريين على توفير وسائل الراحة للشيخ ابن طوير الجنة وحاشيته عندما حلوا بالجزائر في طريق عودتهم من الحجاز إلى شنقيط . وظللت أبحث عن آثار هذا المرابط الذي جعلته الأقدار رغم أنفه يعيش بين الفرنسيين فترة حتى أصبح غير محمود من اخوانه الجزائريين نظرا لاهتمام الفرنسيين به. فقد كان هؤلاء يرجون من ورائه الحصول على معلومات هامة عن افريقية الغربية والمغرب الأقصى على الخصوص

(*) نشرت في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق مجلد 54 ـج 3 .

1) الجزء 3. المجلد 53، ص: 665 .

2) كتبه أصلا بالعربية وترجمه السيد حسونة دغيز الطرابلسي الى الفرنسية ونشر في باريس، 1833. وقد ترجم الكتاب أخيرا الى العربية (لأن أصله العربي مفقود) في ترجمتين احداهما لمحمد العربي الزبيري والأخرى لمحمد بن عبد الكريم .

لأنه قدم اليهم نفسه (أو هكذا فهموه) على أنه أمير أو ملك ودّان ونواحيها وليس مجرد مرابط درويش .

وحوالي سنة 1969 وجدت في (المجلة الافريقية) (1) خلاصة عن رحلة ابن طوير الجنة قدمها بالعربية السيد ديستان الفرنسي مدير مدرسة الجزائر في وقته. وكان ديستان قد زار غرب افريقية وقضى في السنغال ثلاث سنوات (1907 ـ 1910) وخالط الأهالي هناك واطلع عندهم على مخطوطات عربية هامة في شتى الفروع فنسخ بعضها وتصفح أخرى مليًّا واكتفى من بعضها بالتصفح السريع. ومن بين هذه المخطوطات رحلة ابن طوير الجنة المسماة (رحلة المُنَى والمنَّة). ولما كنت عندئذ أعدّ مادة كتابي (تاريخ الجزائر الثقافي) فقد سجلت المعلومات التي أوردها ديستان عن رأي ابن طوير الجنة في الاحتلال الفرنسي للجزائر في انتظار العثور على نسخة كاملة من الرحلة. وترجع أهمية هذه الرحلة بالنسبة لموضوعي ان صاحبها قد حل بالجزائر غداة الاحتلال الفرنسي، سنة 1832، وسجل انطباعه عن ذلك. ولعل ابن طوير الجنة هو أول عربي مسلم قد زارها في ذلك التاريخ المبكر للاحتلال .

ولكن المعلومات التي أوردها ديستان عن الرحلة لم تكن كافية رغم ان خلاصته عنها بلغت ست عشرة صفحة. وحوالي سنة 1972 طلب مني الزميل الدكتور عبد القادر زبادية (الذي كان عندئذ في بريطانيا) تصوير ما كتبته جريدة المونيتور الجيريان *le Moniteur algérien* الفرنسية عن زيارة ابن طوير الجنة للجزائر لتقديم المصورة الى الدكتور نوريس. واطلعت من ذلك ومن مراسلات الدوق دي روفيقو، الحاكم الفرنسي للجزائر، على موقف الفرنسيين من ابن طوير الجنة وما كانوا يتوقعونه منه .

وكنت اعتقد ان نسخة من (رحلة المنى والمنة) لا بد ان تكون في احدى خزائن المغرب . فرجعت إلى (دليل مؤرخ المغرب) لأبن سودة فلم أجده قد ذكرها في باب الرحلات. ومع ذلك لم أفشل. فحين زرت الرباط سنة 1973 بحثت عنها فلم أجدها أيضا. فسألت البحاثة الأستاذ محمد المنوني فاستغربها ثم قال انه يعرف من يحمل هذا الاسم (ابن طوير الجنة) من مراكش ولكنه

---

1) سنة 1911، ص: 216 ـ 231 .

لا يعرف عن الرحلة شيئا. غير أن ذاكرة الأستاذ المنوني احتفظت بالخبر وظل يبحث عنها. وفي لقائنا اثناء المؤتمر الأول لتاريخ الجزيرة العربية الذي انعقد بالرياض سنة 1977 بادرني الأستاذ المنوني، بعد السلام، بأنهم حصلوا (وهو يعني الخزانة العامة بالرباط) على نسخة مصورة من رحلة ابن طوير الجنة فشكرته على الخبر ورجوته ان يصور لي منها نسخة، ولكن علاقات بلدينا لم تسمح لكلينا بانجاز الوعد.

ومن جهة أخرى قرأت رسالتين كتبهما دي لابورت. قنصل فرنسا في طنجة عن ابن طوير الجنة، وذلك سنة 1833 (1) . وكان دي لابورت قد التقى عدة مرات به بعد عودته الى المغرب على الباخرة الفرنسية (لافليش) التي حملته (ابن طوير الجنة) من الجزائر الى طنجة عبر جبل طارق. وقد حاول ديلابورت التأثير عليه والاستفادة منه والتعرف على مكانته في قومه وعلاقته بسلطان المغرب .

كما قرأت في نفس المكان ما كتبه البارون روجيه الفرنسي الذي حذر قومه من الاعتزاز بالمعلومات التي يعطيها لهم ابن طوير الجنة وأمثاله لأن المرابطين يبالغون في اظهار نفوذهم وقوتهم طمعا في هدايا الأوروبيين واشادة بقوتهم وخيرات بلادهم .

وفي لقاء في جامعة ميشيغان بيني وبين الدكتور محمد دغيم الليبي ولديه الأستاذ أحمد الفيتوري (ابريل سنة 1978) جرنا الحديث الى رحلة ابن طوير الجنة. وقد طلبت منهما مساعدتي على الحصول على نسخة منها. فقال لي الدكتور دغيم إنه كان منذ سنوات عند الدكتور نوريس في بريطانية فأطلعه على نسخة من هذه الرحلة وطلب منه ان ينشرها اذا رغب. ولكن الدكتور دغيم (وهو متخصص في أدب الأندلس) لم يهمه ابن طوير الجنة . وقد وعدني بالاتصال بالدكتور نوريس والحصول منه لي على صورة من نسخته . غير أنه لم يمض على هذا اللقاء شهر حتى وصلتني رسالة (وكنت عندئذ في جامعة منيسوتا) من الأستاذ أحمد الفيتوري يخبرني فيها بأنه علم بأن رحلة ابن طوير الجنة قد نشرها بالانكليزية الدكتور نوريس. وبقدر ما سررت بخروج الرحلة الى الضوء بقدر ما حزنت على عدم ظهورها بالعربية. ومع ذلك سعيت في الحصول على نسخة من طبعة الدكتور نوريس حتى نجحت .

---

(1) Bull. de la Société de Géographie, Paris, 1833, p. 343-348.

2 ـ تحقيق الدكتور نوريس :

والواقع ان الدكتور نوريس لم يحقق رحلة ابن طوير الجنة التحقيق العلمي المتعارف عليه وانما ترجم النص وقدم له وعلق عليه معتمدا في ذلك على نسخة واحدة. وقد سجل أنه حذف بعض الفقرات كما اختصر بعضها . ورغم أهمية المدخل الذي كتبه فان معظمه يبدو بعيد الصلة بموضوع الرحلة. كما ان تعقيباته بعد كل فصل قد جعل موضوع الرحلة مفككا. ولو أنه صب أفكاره الرئيسية في المدخل لحافظ على وحدة وتسلسل النص. والغريب ان الدكتور نوريس لم يصف شكل الرحلة فلا نعرف عدد صفحاتها (1) ولا ما اذا كانت مبوبة في الأصل بالطريقة التي اتبعها هو، مكتفيا بقوله انها نسخة جيدة *Fine copy* . كما انه من الغريب ان لا يضع لطبعته ثبتا عاما في آخرها يضم الاعلام وغيرها .

ورغم ان الرحلة تعتبر في المصطلح رحلة حجازية فان الدكتور نوريس قد وضع عنوانها هكذا : *The pilgrimage of Ahmed*

والملاحظ أن الدكتور خلوصي قد ترجم نفس التعبير الى العربية هكذا (كتاب حجة أحمد بن طوير الجنة) بدل (رحلة...) . وقد اعتاد المغاربة ان يطلقوا على سفرهم للحج من بلادهم الى الحرمين اسم رحلة. فهناك رحلة الورتلاني (نزهة الأنظار) ورحلة العياشي (ماء الموائد) وغيرهما. والرحلة تعني عادة تسجيل الحاج للمشاعر والحوادث والمشاهدات التي تقع له منذ خروجه من بلدته الى عودته اليها. أما كلمة «حجة» فهي لا تعني تسجيل المشاعر والحوادث والمشاهدات، وقد ذكر ابن طوير الجنة ان عنوان رحلته هو (رحلة المنى والمنة) وهو عنوان جميل ومفيد ويتماشى مع تقاليد الرحلات المغربية (2) . وهو العنوان الذي حافظ عليه السيد ديستان في مقاله المذكور، ولكن الدكتور نوريس أهمل هذا العنوان تماما ولم يذكره الا في ثنايا النص داخل الكتاب .

---

1) حسب نسخة ديستان تبلغ ورقات الرحلة 76 ورقة 22×16,5 .

2) انظر: بحثي عن «الرحلات الجزائرية الحجازية» في كتابي (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر). الجزائر، 1978. وهو البحث الذي ساهمت به في المؤتمر الأول لتاريخ الجزيرة العربية، الرياض، 1977 .

وقد يكون اهمال هذه المسائل غير هام اذا قيس باهمال الدكتور نوريس الرجوع الى نسخة أخرى على الاقل من الرحلة، خصوصا وان نسخها قد تعددت، حقا ان نسخته قد كتبت اثناء حياة المؤلف سنة 1253هـ، بينما توفي ابن طوير الجنة سنة 1256، وانه وصفها بالجودة كما سبق، ولكن هذا لا يعفيه من مقارنتها بغيرها. وقد اشار نوريس نفسه الى النسخة التي لخصها ديستان، فاذا ناسخ هذه هو لحبيب بن الحنبل بن المختار بن عمر أما ناسخ نسخة الدكتور نويس فهو الحاج عمر بن سيدنا بن الحاج عمر. كما ان تاريخ كتابتهما يختلف .

ولو اقتصر الأمر على هذه النواحي لهان، ولكن اختلاف النسخ قد اظهر ان هناك اختلافا في المحتوى أيضا. ورغم انني لا أملك الآن نسخة كاملة من هذه الرحلة فان مقارنة بعض ما أورده ديستان منها بما جاء في نسخة نوريس يؤكد ذلك. وسأكتفي هنا بمثالين يتعلقان بالجزائر التي من أجلها اهتممت بهذه الرحلة .

المثال الأول : ان نسخة ديستان تثبت ان ابن طوير الجنة كان عازما على السفر الى الحج عن طريق البر عبر الجزائر، ولكنه عندما وصل الى فاس سمع باحتلال الفرنسيين للجزائر فعدل عن خطته وكتب بذلك الى السلطان عبد الرحمن الذي وجه الركب الى مدينة العرائش لركوب البحر. وهذا نص عبارة ابن طوير الجنة «فلما قدمنا فاسا وجدنا الجزائر أخذتها النصارى افرانسيس، كتبنا الى مولاي عبد الرحمن، وهو بمكناسة الزيتون، ان البر لا يمكن السير فيه لأنه صار أرضا سائبة وانا نحب الركوب في البحر، فبقينا في حيرة ... فكتب هو، نصره الله، الى قائده بالعرائش مكتوبا الخ» (1) .

ان هذه الفقرة الهامة محذوفة من نسخة نوريس رغم أنها تتعلق بحادث غيّر مجرى الحياة في المغرب العربي عندئذ وجعل صاحب الرحلة نفسه يضطر لركوب البحر ذهابا كما اضطر اليه عودة. ذلك ان نسخة نوريس تجعل ابن طوير الجنة يتوجه من فاس الى العرائش بدون مبرر وكأنه كان قد خطط لذلك منذ خروجه من ودّان . ولو اتبعنا نسخة نوريس فقط لوجدنا ان صاحب الرحلة لا يذكر احتلال الفرنسيين للجزائر الا عندما وصل الى الاسكندرية .

---

1) المجلة الافريقية، 1911، ص: 219 .

أما المثال الثاني فهو أن عبد الرحمن المجذوب (ويكتبه نوريس سيدي الرحمن فقط !) (1) دفين مكناس قد تنبأ بأن الجزائر ستحتل لا محالة : إما من سلطان المغرب وإما من النصارى، وأن الذي سيحتلها أولا هو الذي سيحتفظ بها الى الأبد. وبناء على نسخة ديستان يسوق ابن طوير الجنة هذا الخبر قبل وصوله الى الاسكندرية، أما نسخة نوريس فتسوقه بعد وصوله اليها . ومن جهة أخرى أورد ابن طوير الجنة خبر اجتماع ديوان الأولياء واتفاقهم على أخذ الجزائر من أيدي المسلمين لطغيانهم الخ. في نسخة ديستان يأتي الخبر بعد وصول ابن طوير الجنة الى مدينة الجزائر عائدا من الحج، أما نسخة نوريس فتورده عندما كان صاحب الرحلة في بجاية، وهناك أمثلة أخرى على اختلاف النسختين. ولو كان لدينا نسخة أخرى كاملة من الرحلة لوجد المقارنون اختلافات أخرى قد تكون أهم موضوعا وفكرة .

3 ـ التعليق على الرحلة :

قام نوريس بترجمة تكاد تكون حرفية للنسخة التي يملكها من الرحلة. وما دامت هذه الترجمة موجهة الى القاريء الغربي والمستشرق فاني اعتقد أنه سيجدها ثقيلة. ذلك ان الرحلة مليئة بالخرافات وحكايات الدراويش التي قد لا تستسيغها عقلية الغربيين. وهي تذكر المرء ببعض ما جاء في رحلة الورتلاني في نفس الموضوع. ولعل الذي حدا بالدكتور نوريس الى ترجمتها، رغم ذلك. عاملان :

1 ـ تقديم نص في نطاق اختصاصه، وهو افريقية الغربية، الفه أحد المرابطين البارزين في وقته، وهو الطالب أحمد المصطفى بن طوير الجنة الذي امتد نفوذه الروحي أوائل القرن الثالث عشر (19م) من المغرب شمالا الى السنغال جنوبا، وكانت له علائق مع سلاطين المغرب ورؤساء العشائر في شنقيط .

2 ـ اظهار حكم ابن طوير الجنة على الفرنسيين والانكليز الذين كانوا يتنافسون على تقسيم العالم . وتظهر الرحلة، حسب نسخة الدكتور نوريس، ميول ابن طوير الجنة نحو الانكليز ضد الفرنسيين. فقد استقبله ممثل فرنسا في الجزائر (وهو الدوق دي ريفيقو) وعامله معاملة «الضيف الأسير» وحاول، عن طريق التراجمة. التعرف على ما في بلاده من تجارة وعلائق سياسية. اما ممثل الانكليز في جبل طارق

1) صفحــة 26

(وهو القنصل ويليام هوستون) فقد احتفى به وعامله معاملة الملوك والأمراء وأقام له التشريفات والحفلات ، ولا شك ان النصين الفرنسي والانكليزي اللذين أوردهما الدكتور نوريس يعطيان صورة واضحة عن نظرة وحكم ممثلي فرنسا وانكلترا على ابن طوير الجنة عندئذ (أول سنة 1833) .

ونحن نتمنى ان يتقدم أحد الباحثين العرب والمسلمين لتحقيق (رحلة المنى والمنة) باللغة العربية رغم ما فيها من استطرادات وخرافات مملة. فهي قبل كل شيء جزء من التراث العربي الاسلامي لأهل شنقيط (موريطانيا). ونعتقد ان كل عربي مسلم يتصدى لهذه الرحلة سيستفيد من تجربة الدكتور نوريس معها، ولكنها لن تكون التجربة الوحيدة التي سيستفيد منها .

مدينة آن آربر ـ جامعة ميشيغان

رحلة الأمير الألماني موسكاو في عنابة

مقدمة المترجم :

زار الجزائر سنة 1835 الأمير الألماني بوكلر موسكاو (*) . وقد تجول في بعض مدنها، وخاصة مدينة عنابة التي تابع منها جولته الى تونس، وبعد عودته الى بلاده كتب رحلته في ثلاثة أجزاء. وخلال مدة قصيرة نفذت طبعتها الأولى فأعاد طبعها سنة 1837. وقد رأينا أن نترجم من رحلته مايتعلق بمدينة عنابة وضواحيها .

وينتمي هذا الأمير الىالحركة الرومانتيكية التي كانت تسود الثقافة الاروبية في عصره ، وخاصة الأدب ، لذلك لا نستغرب أن نجد له تعاليق وآراء من صميم هذه الحركة سواء فيما يتعلق ببلاده أو ببلادنا . ولعل العاطفة الرومانتيكية هي دافعه الأول في مغامراته التي سماها (سيميلاسو في افريقيا (*) وسيتضح من كلامه أنه كان مندفعا بتلك العاطفة في اهتماماته كلها تقريبا . فموضوع حديثه لا يكاد يخرج عن وصف الطبيعة والآثار والجمال والمرأة والحيوانات والنباتات والزهور والمغامرات والطقس ونحو ذلك .

ومع ذلك فان له لدغات قاسية سواء في حكمه على الاستعمار الفرنسي الوليد عندئذ، أو في حكمه على الأهالي الجزائريين. فهو كألماني كثيرا ما يشير، تصريحا أو تلويحا، الى سلوك بعض القادة الفرنسيين والى آرائهم الغريبة. كما أنه كثيرا ما يظهر الترفع الحضاري على السكان الجزائريين (وهو في هذا يساير الاتجاه

(*) نشرت في مجلة الثقافة على حلقتين . عدد 38 ، 39 سنة 1977 .

(*) Puckler Muskau, *Semilasso in Africa Adventures* in Algiers, vol. 2, London, 1837, 2e édition.

الفرنسي عندئذ بل الاتجاه الأروبي عامة). وهو يخلط بينهم وبين الأتراك أحيانا، الذين يبدو قاسيا عليهم أكثر من غيرهم. وهو بشكل عام كان مهتما بمغامراته الخاصة أكثر من اهتمامه بالجزائريين ولا حتى بالفرنسيين. كما كان مهتما بالآثار الرومانية التي كان يحس برابطة روحية بينها وبينه، وهذا الشعور في الواقع كان يسود لدى قادة الحملة الفرنسية أيضا ولدى أشباه العلماء الذين تبعوها .

أما الترجمة فقد سلكنا فيها طريقين : طريق التلخيص ، وذلك في الأمور التي يستطرد فيها الأمير موسكاو كثيرا ويستغرق أثناءها في أمور شخصية لا تهم قارئنا في نظرنا، وفي هذه الحالة لم نضع علامات التنصيص لما نترجمه. أما الطريق الثاني فهو طريق الترجمة الكاملة المتتابعة لكلامه. وفي هذه الحالة وضعنا علامات التنصيص . والهدف من ذلك هو أن يميز القاريء بين الكلام الملخص والنص الحـرفي .

ونعتقد أن القاريء سيجد متعة كبيرة وهو يتتبع حديث الأمير موسكاو إلى أصدقائه في أروبا . فقد كتب رحلته في شكل رسائل يوجهها الى أصحابه ، نساء ورجالا ، وجهاء وعلماء فكانت رسائل خفيفة الروح ، مليئة أحيانا بالنكت والتلميحات السياسية والأدبية والعاطفية . حقيقة أن لغته فضفاضة وأسلوبه وصفي ، وحقيقة أيضا أن القيمة الوثائقية لهذه الرحلة تكاد تكون غير موجودة ، ولكن القاريء سيجد متعة أدبية فائقة ، بالاضافة الى تعلمه أشياء كثيرة عن عنابة وأهلها وطبيعتها ابان الحكم الفرنسي .

ومن الجدير بالذكر اننا ترجمنا هذه الرسائل من الأنكليزية وليس عن الألمانية ، كما أننا قد عدنا إلى الجزء الثاني من الطبعة الثانية . أما التعاليق فهي جميعا من عمل المترجم .

* * *

رسالة الى صديقي البارون
عنابة في 4 أبريل، 1835

الآن يستطيع أن يسافر بدون خوف من قطع رأسه. وهذا يعود الى الادارة الحازمة للجنرال دوزير (1) D'uzer أن هذا الجنرال يستطيع أن يملك قسنطينة لو أذنت له حكومته . وان هذا الإذن ليس فقط مرغوبا فيه بل ضرورة قصوى ، للقضاء على روح التمرد (2) . وقد دعاه الجنرال للعشاء . والمؤلف مغروم بالحيوانات . واجتمع بالسيد دارماندي (3) ، وسان ليون (4) (ضابط) . وقام بجولة على الأحصنة ، (هيبون) القديمة. فلم يجد شيئا بقي منها باستثناء بقايا من بنايات رسمية وبعض الأقواس والساحات التي لعلها دلالة على قصور كانت موجودة، وعلى بقايا قناة مياه كانت تمتد عبر السهل. وتحدث موسكاو عن نهر سيبوس وغيره من الوديان وجبال ايدوغ (5) وزهور الوادي وأشجار الزيتون والخروب .

«ان قصبة بونة وقلعة جنوة الواقعة على رأس الحمراء ، وصخرة ممتدة في البحر تسمى الأسد وعددا من السفن والمنازل الممتدة عبر المرتفعات وثلاثة أو أربعة

1) هو الجنرال مونك دوزير أحد ضباط الاحتلال الفرنسي، تولى أمر عنابة بين سنوات 1832 ـ 1836، وكان يدعو الى القيام بحملة ضد قسنطينة. وهو الذي يشير اليه الكاتب خلال عمله باسم «الجنرال».

2) يردد الأمير الألماني هنا وجهة نظر الجنرال الفرنسي. وقد اثبتت التجربة ان احتلال قسنطينة ليس بالأمر السهل اذ أن الحملة الأولى عليها كانت نكبة على الفرنسيين .

3) كان دارماندي ضابطا في الحملة الفرنسية على عنابة ، وكان يتقن العربية ، وكان قبل الجزائر قنصلا لبلاده في مكة المكرمة . وكان له رأي في مصير الجزائر أبداه إلى اللجنة الافريقية سنة 1833

4) سيأتي اسمه مرات، وكان سفيرا لفرنسا في مؤتمر فيينا الذي سيأتي ذكره أيضا .

5) جبل ايدوغ المطل على عنابة، ارتفاعه 1008 أمتار ، بالاضافة إلى السلسلة الملحقة به .

صفوف من الجبال المتصاعدة بعضها فوق بعض ، وخيام البدو في السهل ، وأضرحه المرابطين البيضاء - كل هذه تشكل، عندما تسطع عليهاشمس افريقية العظيمة، الملامح الأساسية للمناظر الافريقية » وبعد جولة في هذه المنطقة اكتشف هوومن معه بحيرة الفزارة (فتزارة) وقال ان المستنقعات المحيطة بعنابة يمكن تجفيفها بسهولة ولكنه لاحظ أن ذلك سوف يحتاج الى ملايين الفرنكات .

«ان الجبل الذي كنا نقف عليه يسميه العرب بوحمرة لأن صخوره التي تحتوي على كمية كبيرة من الحديد تكتسي بلون الحمرة. وعند النزول منه شاهدت أنواعا من الأزهار الملونة على اختلاف الألوان والأشكال حتى لقد تجاوز جمالها الأثر الذي تحدثه في النفس أجمل حدائق انكلترا .

««ودعني الآن أصف لك مغامرة حربية شاركت فيها غير أن الدم لم يسل فيها بغزارة. في مساء أحد الأيام أرسل الي الجنرال قائلا انه ينوي القيام بغارة على قبيلة ثائرة وطلب مني اذا كنت أريد أن أرافقه فعلي أن أنهض الساعة الخامسة صباحا في اليوم التالي، وسيكون هناك عشرون من الصباحية وحصانان أحدهما لنفسي والآخر لكاتبي. ولما كنت لا أميل الى النهوض المبكر فقد قررت عدم النوم أصلا. وفي الساعة المعينة وجدت الحصانين ولكن لم أجد من سيرافقونني .

«ومع ذلك عزمنا على السير وتعزيز جانبنا بوجود السيد سان ليون معنا. وبعد حوالي ساعة وصلنا الى قنطرة قسنطينة، التي ينسبها بعضهم الى صنع القرطاجيين، وهناك لحقنا بالمشاة وبمدفعية (دار ماندي) الذي كان يجد صعوبة في السير في الوحل. وقد اندهشت من الحالة التي كان عليها الجنود. فقد كان بعضهم بدون بنادق وآخرون موزعين هنا وهناك في السهل، وهو الأمر الذي لم يكن مسموحا به عندنا أثناء الحملة. فلو أن أربعمائة فارس هاجمت فجأة هذه الفرقة لأفنتها عن آخرها. (1) .

«أما عن المرافقة الموعودة لنا فلا شيء قد تحقق منها. وقد أمرت الجنود بالتوقف وظل سان ليون ودار مندي مع المدفعية . ومن سوء الحظ أنه لا أحد من الفرسان

---

1) مثل هذه الملاحظات هي التي يحاول الأمير الألماني ان يلدغ بها النظام العسكري الفرنسي. وستأتي ملاحظات أخرى شبيهة بها .

كان يعرف الطريق الى جبل ابن يعقوب حيث الجنرال كان مفروضا هناك. وقد أكد لي الجنود بأنه في الوقت الذي كانت فيه جنود باي قسنطينة بالجوار فان تقدم المرء وحده غير منصوح به، بالاضافة الى أنه ليس من المؤكد أن الجنرال كان ما يزال في ابن يعقوب، مع ما في ذلك من المخاطر لو وقع التقدم. ولكن البقاء في المؤخرة أيضا لم يكن حسنا ما دام الجنرال قد دعاني لمرافقته» .

وتقدم الأمير بوكلر موسكاو قليلا نحو المراكز الامامية وسمع بعض الطلقات هنا وهناك وعرف أن ذلك يدل على معركة بين جنود الجنرال والعرب، لكنه لم يتشجع للتقدم ما دام لا يعرف مكان الطلقات. وافتخر بأنهم في بروسيا يعتبرون كلمة «الى الامام» هي شعارهم. لكن يبدو أن هذه الحملة الفرنسية لم تكن سعيدة اليوم . ثم أجاب مازحا بأن هذا اليوم هو الأول من أبريل . وبينما هم كذلك رأوا مجموعة من الصباحية عائدة مع البقر ، فدلهم ذلك على أنها غنائم الحرب فرجعوا معهم . كما رأوا بعض العرب من القبائل الصديقة عائدين «بمسروقاتهم» وقدر عدد القطيع مع الأبقار بحوالي ثلاثة آلاف رأس (1) .

ومع ذلك لم يسمعوا ولم يعرفوا شيئا عن مصير الجنرال . ورشا موسكاو بعض الصبايحية ليكونوا مرشدين له فأخذوه إلى مقدمة السهل وحول بحيرة فتزارة . وكانت الأزهار من الوفرة والطول بحيث تلامس بطون الجياد . وبينما هم كذلك التقوا بفرقة من «قناصة افريقية» (2) التي كانت قد رافقت الجنرال . وقد عجب الجنرال من كونهم (موسكاو ورفاقه) لم يحصلوا على المرافقين الموعودين واعتذر لهم عما وقع في حقهم. ونادى الجنرال على الضابط المكلف بالمرافقة والذي أهمل الأمر فأجابه هذا بأنه لم يفهم أوامر الجنرال. وانتهت القضية عند هذا الحد. لكن الأمير موسكاو قال ان الأمر لو كان في بلاده لما انتهى عند هذا الحد .

---

1) يبرهن الأمير موسكاو على محاباته في تعبيراته المختلفة. فهو اذا تكلم على اسلاب الفرنسيين سماها «غنائم» واذا تكلم على اسلاب الأهالي سماها «مسروقات» .

2) فرقة عسكرية مختلطة (أهالي وفرنسيون) في بادي الأمر، تكونت سنة 1831، وكانت من الفرسان. وقد اشتهرت بالتمرد وسوء الانضباط وانتهاك حرمات الأهالي. وكانت تضم من الجانب الفرنسي العصاة «والرؤوس الخشنة» كما سماها بعضهم .

ولكنه لاحظ أن الانضباط في الجيش الفرنسي عندئذ أقل بكثير مما كان عليه في عهد نابليون .

«ان كوكبة الفرسان كانت أثناء الليل قد هاجمت وحرقت دوارا عربيا بأكمله وقتلت العدو الذي أخذ على غرة وهو نائم. أما عن الجانب الفرنسي فالخسارة لم تكن سوى جرح حصانين وجرح عربي في يده من القبائل الصديقة». ثم تناولوا فطور الصباح. وقد أشاد الأمير موسكاو بالفرسان الفرنسيين وقال انهم قادرون على انجازات كثيرة كما اشاد بالجنرال الشجاع الذي قال عنه انه لو تمكن من عدد أكبر من هؤلاء الفرسان لسمع الناس كثيرا من الأخبار الهامة في الصحف عن شمال افريقية «وهكذا انتهت حملتي السلمية في بونة» .

«وكم كنت أود أن تكون معنا أنت الذي تنصت أثناء الحديث اكثر مما تتكلم ونحن متحلقون حول نار المساء لنستمع إلى السيد دارماندي وهو يتحدث عن رحلاته في المشرق ، تلك الرحلات ، التي ارجو ان يقدمها للنشر قريبا ، والى السيد سان ليون وهو يتحدث عن (مؤتمر فيينا) (1) حيث ارسل اليه كسفير من قبل مورات *Murat* (2) . فقد كان من المقرر أن يتزوج الدوقة (2) ولكن المشروع فشل لخطأ ارتكب من جانبه، ولو تم له ذلك لأصبح جارا لي في (م). انه يتحدث الالمانية جيدا، وقد كان مندهشا لكوننا تفرنسنا كثيرا في أجزاء عديدة من المانيا. وله ذكريات لطيفة مع نساء فيينا وهو يقدرهن أكثر مما يقدر العرب هنا الجميلات الفرنسيات. فهؤلاء (العرب) وهم أطفال الطبيعة لهم مقياس للجمال خاص بهم. فعندما رأى أحد شيوخهم السيدة (د) الجميلة كادت تزهق روحه من سحرها.

1) المؤتمر الذي قرر مصير امبراطورية نابليون الأول ووضع أسسا جديدة للدبلوماسية الأوروبية وقد انعقد في فيينا ، عاصمة امبراطورية النمسا عندئذ خلال سنتي 1814 ـ 1815 .

2) حواخيم مورات كان من كبار ضباط جيش نابليون وخاض معه أكبر معاركه مثل معركة الأهرام ومعركة موسكو ولا يبزيغ وغيرها. ولاه نابليون مملكة نابولي سنة 1808 ولكنه تخلى عن نابليون وعرض تحالفه على اعدائه ووقع معاهدة بذلك مع النمسا وانكلترا في مقابل الاحتفاظ بعرشه ثم نقض العهد وانضم الى نابليون من جديد بعد هروب هذا من جزيرة (البا) حكم عليه بالاعدام ونفذ فيه الحكم في 13 أكتوبر سنة 1815 .

3) يستعمل المؤلف الحروف الأولى لأسماء اعلام أو أماكن لم نهتد الى أصحابها. وهو لا شك لا يريد الافصاح عنها حتى لا يضر بأصحابها أو يسيء العلاقات معهم لمعاصرتهم له .

ولما سأله ضابط كان حاضرا عما يمكن أن يقدمه للحصول على هذه السيدة أجاب العربي بحماس «وحق النبي ! انني أقدم لها ثلاثة ثيران وعجلا» . وهذه منه تحية كبيرة لها، لكن السيدة الجميلة اعتبرتها منه اهانة بالغة !.

«لقد رسم لنا السيد دار ماندي صورة رائعة عن بلاد فارس التي يفضلها على كل البلدان الأخرى. ولكنه لم يستطع أن يمتدح تمدن الناس هناك ولا جمال المناظر ولا لطافة نمط حياتهم. ورغم أنه من المعجبين بالحرية في أوربا فانه اعترف بأن الانسان الغريب يستطيع أن يعيش تحت الاستبداد الفارسي أكثر استقلالا من عيشه تحت أكثر الدول الليبرالية في أوربا (1) . فقد عمل (دارماندي) مدة طويلة عند الأمير محمد علي ميرزا (2) في كرمان شاه حيث ترقى إلى رتبة شاه وخلع عليه وسام الشمس الكبير. انني لم أتمالك نفسي من الضحك وهو يقص علي قصة خاصة بضابط روسي كان يشغل مركزا غير عادي لدى الأميرة وهو مركز المخصي الأول . وهذا الروسي قد خضع لعملية الخصي نتيجة محاولة فراره مع اثنى عشر من مواطنيه. وجميعهم قد توفوا بعد العملية الا هو» .

ثم قص الأمير موسكاو حكايات دار ماندي مع زهور وخمر ونساء شيراز ومغامراته في صيد النمور البنغالية. ثم تحدث عن رحلة له هو في نواحي عنابة لصيد الخنزير البري رفقة 20 من الصبايحية أعدهم له الجنرال، على ضفة نهر سيبوس وأشاد بالخيل العربية التي بفضل قوتها ونشاطها وصدق حافرها استطاعوا صيد الخنزير البري. وهي في ذلك تفوق في نظره الخيل الأوروبية. وقد وصف صعوبة الأرض التي اصطادوا عليها لأن العرب يحفرون فيها المطامير اما للقمح أو لصيد الحيوانات ثم لا يدفنون المطامير فتكون هذه المطامير المغطاة بالأعشاب والأشجار افخاخا أحيانا للعدو. لذلك أصيب عقيد كان على رأس (قناصة افريقية) في ركبته وربما فقدها مدى الحياة. وأثناء رحلة الصيد هذه سقط أحد العرب المرافقين لهم في احدى هذه المطامير. لكنه خرج منها سليما. ثم وصف موسكاو الحصان الذي أعطوه اياه فقال انه سريع ولكنه كان ناعما ازاء الخنزير البري،

1) لعل هذا يمثل وجهة نظر الأمير موسكاو نحو النظام الانيبرالي الأروبي. ونشتم منها انه يحبذ الاستبداد الملكي على التحرر الليبرالي .

2) تولى هذا الأمير الحكم على بلاد فارس من 1833 إلى 1848 .

أن اللجام كان سيئا. ولاحظ أنه الآن يستعمل لجاما عربيا، وهو لجام يكبح حتى أسوأ الخيول، ولذلك فهو الآن أكثر أمنا. وهكذا استطاع أن يصطاد خنزيرا بريا بنفسه. وقد أصبح بذلك فخورا وأشهد عليه الصبايحية وضابطين فرنسيين كانا برفقة الرحلة .

وكان يفكر في لحم الخنزير البري (وقد قتلوا منه ثلاثة في الجملة) فالعرب يمنعهم دينهم من أكله ، والأروبيون أكلوا منه سابقا كثيرا حتى عافوه. لذلك بقيت الجثث السمينة في الميدان. وفي اليوم التالي خرج الجنرال لتلقي طاعة بعض الشيوخ، وخرج هو أيضا فوجد أن أسدين معروفين في المنطقة قد أكلا وشبعا من لحم الخنزير البري. وخلال ذلك مروا بدوارين قبل سكانهما بالعيش في دائرة الفرنسيين بفضل سياسة الجنرال (دوزير) الأبوية والحكيمة «ولكن كلاهم لم تكن صديقة لنا فطاردتهم نابحة غاضبة . وأثناء المرور بالدوار الأخير أشار الضابط الفرنسي الذي كان يرافقه ، إلى فتاة جميلة نظيفة واقفة عند باب الخيمة» .

ولاحظ الأمير موسكاو أن الشريعة الاسلامية تمنع المرأة من الظهور سافرة وأنه وجد ان هذا المنع مطبق حرفيا في المدن ولكنه غير مطبق في الريف. فقد لاحظ ان المرأة في الريف كثيرا ما كانت تظهر أمامهم سافرة بدون أي خشية وانها كانت تلبس أقراطا من الفضة وخلاخيل من الفضة أيضا في قدميها العاريتين. وقد علم الأمير الألماني، وهو مندهش، ان الفتاة المذكورة، رغم كونها قريبة لشيخ الدوار، كانت خليلة لضابط فرنسي كان قد وجد طريقة ما لكسب ود أبيها، ولذلك كان كثيرا ما يقضي معها الليالي في ظلام الخيمة أو في الغابة السوداء القريبة. وكان هذا الضابط يتحدث اللغة العربية وهي الوسيلة التي جعلته يتعرف على الفتاة. فقد كان يتحدث الى أبيها بالعربية فاذا بالفتاة قد تدخلت بسذاجة قائلة لوالدها «أنظر انه يتحدث كما نتحدث نحن!». ولاحظ الأمير أن هذه العلاقة قد انتهت بمأساة لأن القبيلة علمت بالأمر، فحكم بالعقاب الشديد على الوالد المأجور، ووضع السم للفتاة المسكينة (1) ، أما عاشقها فقد سجنه الجنرال بعد أن علم بالأمر.

1) ليس غريبا ان يحدث ما رواه موسكاو في مجتمعنا القديم، ولكن الرواية في حد ذاتها تبرهن على عناية الكاتب بالجوانب الرومانتيكية التي نبهنا اليها في البداية .

وغير بعيد عن هذه القرية، وبالضبط في المكان الذي يدعى ميدان ابن عيسى (1) (لأن الجنرال القسنطيني قد وضع معسكره هنا مدة طويلة قبل احتلال عنابة) تقع فيللا يوسف (2) ذلك التركي المشهور، قرب نخلة تعتبر أجمل نخلة رأيتها في افريقية ولكنها كانت تحمل ثمارا غير حقيقية وصائشة لأنه لا وجود لذكار بالقرب منها لتلقيحها به.

1) كان ابن عيسى العضد الأيمن للحاج أحمد باي قسنطينة في جميع حروبه، وقد قاد عدة معارك ضد الفرنسيين في عنابة ثم عند حملتهم الأولى والثانية على قسنطينة. وبعد احتلال قسنطينة سنة 1837 عينه الجنرال فاليه خليفة على المنطقة الواقعة بين جبل إيدوغ وجيجل

2) كان يوسف هذا مجهول الأصل، قال عنه الحاج أحمد باي قسنطينة في مذكراته انه كان يهوديا. ولكنه ادعى للفرنسيين انه مسلم مملوك وظل يظهر الاسلام الى سنة 1845 حين ارتد عنه الى المسيحية ليتزوج من امرأة كاثوليكية، كما ادعى لهم انه ابن غير شرعي لنابليون الأول. وعلى كل حال فقد ترقى في الوظائف العسكرية حتى وصل الى رتبة (جنرال) وخاض مغامرات وحروبا ضد الأهالي وزعمائهم في المرحلة الأولى من الاحتلال وعانى الناس من معاملته لهم كثيرا.

رسالة إلى الكونت لويس فان ببرلين (*)
عنابة في 15 أبريل ، 1835

«تعال زرني في مسكني فهو بالتأكيد أفضل وأنسب مسكن يمكن لغريب ان يحصل عليه في عنابة. انك لن تجد أكثر من غرفة مستطيلة بيضاء بدون نافذة وليس له ما تفتح عليه سوى باب يظل مفتوحا طول النهار لعدم وجود الضوء. أما السقف فهو عبارة عن قصب عريان تمسكه عصى خشنة وعلى الجانبين لوحتان خشبيتان أروبيتان غير مدهونتين، ووراءهما سريران واحد منهما لنفسي والآخر لكتابي. والحيطان دائما مبتلة لأن المطر ينزل غالبا على السطح. أما الأرضية فمغطاة بثلاث زرابي جيدة (وانا كنت دائما أحملها معي هي ومطرح ومطبخ متنقل). وهناك بالاضافة طاولتان احداهما تستعمل كمغسلة والأخرى للكتابة وتناول فطور الصباح. وهناك أيضا مقعد خشبي مغطى بمطرح. أما تزيين جدران الغرفة فبالملابس والأحذية الطويلة، والساعات. ومع ذلك فغرفتي تعتبر وثيرة بالنسبة لغرفة صديقي (كليمرات) الذي يسكن في منزل مراسل صاحب (بنكه) . وهو منزل صغير ويكاد يخلو من كل أثاث .

«انكم أنتم أيها المترفون قد لا تفكرون في حالتنا الا قليلا، ولكننا نجد أنفسنا مستريحين كثيرا. في الوقت الذي أخطو فيه خارج غرفتي الى السطح أجد نفسي أمام جو منعش ولذيذ ، وأمامي سطوح المنازل المسطحة تبدو أجمل ما يمكن أن يرى الإنسان في الأفق . واذا نزلت يستقبلني مضيفي بمصافحة لطيفة ، وكلما غادرت المكان أجد مفاجأة سارة تنتظرني. ودعني أقص عليك ماحدث لي في اليوم الثالث من هذا الشهر .

(*) أنظر التعاليق في آخر المقال .

«لقد كان يوم جمعة وهو بالضبط الأسبوع الرابع منذ بدأت رحلتي إلى هامل (1) حيث قمت برحلة مشابهة . فقد صعدت جبل العيون السبعة ، وجبل ايدوغ ، وقمة مجردة (2) وهي أعلى نقطة في هذا الجبل» . فقد ذهب إلى هناك رفقة بعض الصبائحية المرافقين له ورئيس الترك الصبائحية وبعض الضباط الفرنسيين . ومدح الأحصنة هنا حيث تقوم بما لا تستطيع ان تقوم به البغال في ايطاليا وسويسرا حيث جربها. وعندما وصلوا الى القمة بدت لهم مدينة عنابة في الأسفل في شكل سداده من الفلين وظهر لهم جبل سيدي عيسى الذي كان يظهر عاليا من المدينة كأنه ربوة صغيرة ازاء البحر. وقد اعجب الأمير باشجار الفلين والبلوط والقسطل وقال ان الأهالي يقشرون أشجار الفلين بطريقة فوضوية لدرجة ان بعضها تموت بالضرورة. وصعدوا قمة ربوة خضراء، ولاحظ ان في وسط صخرة صماء تنبع سبعة عيون بماء بارد عذب. وكانت كبرى هذه العيون مزودة بقناني من الفلين للشرب، وقد شربوا منها كما شربت دوابهم . ورأوا من بعيد صخرة كبيرة ملساء يبلغ ارتفاعها خمسين قدما ، ولا يمكن الصعود اليها الا بطريقة الانبطاح كما تفعل الثعابين . ورأوا في أعلاها صقورا بيضاء ضخمة حسبوها باديءالأمر رجلا إلى أن طارت في الفضاء . وتحدث بعد ذلك عن الزهور التي تكاد تميز عنابة عن كل افريقية . ولاحظ أنه خلال شهور الصيف الحارة يدخل نصف المعسكر المستشفى، وبعضهم لا يخرج منه أبدا والبعض الآخر يحمل معه جرثومة موته في المستقبل .

كما لاحظ أنه قبل مجيء الفرنسيين لم تكن لعنابة سمعة بأنها غير صحية ، وان السكان الأصليين مقتنعون بأن الذي جعل الاقامة في عنابة خطيرة هو فتح القنوات القديمة لحمل الأوساخ .

«وفي اتجاه قسنطينة التي لا تبعد أكثر من ثلاثين فرسخا من هنا والتي لا يستطيع المسافر أن يزورها لأن بايها الحاضر يحب اراقة الدماء وليس له كلمة شرف» (3) . لقد رأوا من هناك جبلا غريب الشكل له أربع أسنمة مثل الجمل . وله قمتان أخريان كأنهما هرمان وفي اتجاه مدينة الجزائر يوجد رأس الحديد بصخرته المذببة ، ومدينة القل، ورأس بوقاروني وخليج ستوريا. ويعتقد ان الرومان كانوا يملكون أعمالا من الحديد حول الرأس الأول. ومن الممكن ان تكون تلك الجبال في ذلك الوقت مغطاة في معظمها بغابات البلوط مثل ما نشاهد اليوم. ولما احرقت

تلك الغابات للوقود ولم يقع تشجيرها من جديد اختفت تدريجيا، بنفس الطريقة التي اختفت بها غابات ارلاندا نتيجة الإهمال الفظيع الذي قام به الانجليز (4) .

وبينما كان يتسلق، رفقة زميل له، قمة الجبل اكتشف في كدس من الصخور ضريح مرابط (5) لم يكن بعد معروفا للفرنسيين . وقد حسباه في الأول ضريحا رومانيا لأن القدم كان باديا عليه ولكنهما تعرفا على أن آثاره حديثة العهد . ولو أنهما لم يأتيا معهما بمرافقين آخرين لخشيا على أنفسهما من مس هذا الضريح أو نبش ما فيه . وقد تعجب من كون الصبايحية لم يأكلا سوى وجبة واحدة وبعض القرنون (الخرشوف) الوحشي وعروق العشب المطرية. ولما أراد هو العودة عبر احدى الغابات حذره الصبايحية (ويطلق عليهم اسم الترك)، الذين لا يوجد بينهم مترجم، من مغبة ذلك. ولكن أحد المرافقين الفرنسيين أبدى استعداده وقال ان العرب دائما يعددون الصعوبات اذا أراد المرء الخروج خطوة عن الطريق المعبد ، ولعلهم كانوا يخشون غضب القبائل المجاورة . وقد أغراه ذلك التعليق فقبل بالمغامرة .

وقد ذهب إلى ما نصح به الفرنسيون . واضطر الترك (الصبايحية) إلى أن يتبعوا على مضض «وكانوا يغلون فيما بينهم كأنهم اليهود في بيعتهم وكان المنظر جميلا ولكنهم لم يجدوا طريقا أو ما يشبه الطريق. وتعقدت الغابة تدريجيا وتكاثفت أشجارها، واختلطت الجذوع الخاوية من الأشجار التي كانت قد سقطت بالنباتات والأشجار الحية الباسقة . وهنا رفض العربي (وهو يعني أيضا الترك) ان يتقدموا خطوة أخرى . ولكننا لم نتخل عن المضي في مشروعنا» . ثم بدأوا في الانحدار عبر أرض مزلاق وصخور ملساء مغطاة بالأشواك، وسقط حصان صديقه، ولكنه لم يصب بأذى وأخيرا وصلوا إلى أسفل المنحدر حيث قطعوا واديا صخريا بصعوبة أشد من الانحدار نفسه .

وعندما كان عليهم أن يصعدوا من جديد صخورا وعرة نفد صبر الترك الذين لا تسمح أحذيتهم الخاصة بالركوب ولا برانيسهم الفضفاضة ـ رفضوا المشي على الأقدام . «وقد بدا من كلامهم أنهم كانوا يلعنوننا وينسبوننا إلى كل الشياطين التي يعرفونها . وقد أحسسنا نحن أيضا بالتعب رغم رومانتيكية المغامرة وكثيرا ما كنا نطيل الوقوف لنسترد أنفاسنا» . وأثناء سيرهم مروا بمضيق تسقط منه المياه واستطاعت

الخيل العربية ان تعبره مما جعل المؤلف يعتقد ان هذه الخيل تقدر حتى على تسلق الحصون. وقد أخذ منهم التعب مأخذه اثر الانتهاء من عبور المضيق الصعب حتى لقد تمددوا مرة ساعة إلى جانب خيولهم بعد الخروج منه . ورغم هذا التعب فقد حقق المؤلف حلمه وهو رؤية غابة افريقية عذراء. وكان التأخير في المغامرة قد سبب له التأخير في حضور العشاء الذي دعاه اليه الجنرال .

«وأما عن القبائل العدوة فلم نر منها أحدا سوى أثناء العودة عندما رأوا منها ثلاثة كانوا تقريبا عرايا وهم يحرقون الفحم. لقد كانوا رجالا وسيمين وكانت أجسامهم قوية ولكن تعابير وجوههم كانت مقطبة وقاسية ولا أشك في أنهم مذنبون بارتكاب القتل المنسوب اليهم (6) . ولكنهم لا يهجمون أبدا إلا إذا كانوا يعرفون تفوقهم المطلق على عدوهم واحتمال نجاحهم مؤكدا ومع ذلك فقلما نجدهم مسلحين بشكل جيد. وبمجرد ما تجاوزناهم أطلقت العنان للفرس» ورغم هذه السرعة فقد تأخر عن موعد العشاء ولكنه وجد الجنرال ينتظره مدة ساعتين ولولا ذلك الانتظار الذي مدحه كثيرا لما وجد عشاء في أي مكان في عنابة في تلك الساعة المتأخرة .

«ومادمت أنت، يا صديقي، عالما فاني أقدم اليك خطوطا عامة عن فلسفة الأعضاء الحية والمثيرة التي جاء بها السيد سان ليون والتي ينوي أن يعلنها على الناس قريبا فالعبارات التي اختارها تذهب هكذا : «مادامت كل التغييرات التي تحدث للأنواع الموجودة يمكن تفسيرها بتأثيرات البيئة والمناخ، والوقت، التي تخضع لها كل الكائنات الحية، فان المرء يمكنه أن يشك ما اذا كانت الطبيعة قد انتجت في أي وقت من الأوقات أنواعا مختلفة . فهي لا تتقدم بتحسين تدريجي ، وهي لا تنتج أي شيء منحط ، ان هذا هو أساس عدد من الملاحظات ، وهي جميعا تبرهن على وحدة الخلق لكل الأنواع ووحدة المكان. ان الوجود الاخلاقي قد يكون له قوانين أخرى، ولكننا لا نعني بها الآن، اننا نتحدث فقط عن القوانين الطبيعية. فإذا استثنينا تلك الأماكن التي يسكنها الانسان البدائي فانه يبدو أنه من خلال كل افريقية والاجزاء الشرقية والشمالية من آسيا أصبحت الأنواع، عبر الزمان، منحطة بشكل كبير، بينما كانت في أمريكا أبعد ما تكون عن الاحتفاظ بنقاوتها الأصلية. أما في أروبا فان هذه الأنواع قد فقدت تقريبا كل خصائصها المميزة.

لذلك فانني أعتقد ان مهد السلالة الانسانية يوجد في البلاد الواقعة بين بلاد فارس ومصر».

وبعد أن برهن سان ليون . حسب رواية الكاتب، على ان القوانين الطبيعية هي التي تؤكد نظريته قال (أي سان ليون) ان كل الدلائل تدل على أن «الإنسان العربي هو الانسان الأصلي وانه من المحتمل ان يكون العرب هم السكان الأصليون للمنطقة الواقعة بين سورية ومصر. ويتبع ذلك أنه من الممكن ان ينتج عرب هذا الأقليم، بفضل تنوع المكان والمناخ، كل الأنواع الأخرى الموجودة على وجه الأرض، كما يمكن باستعمال نفس الطريقة وانطلاقا من نفس النقطة، انتاج كل أنواع الخيول...» وقد علق الكاتب على هذا الاستنتاج بان المقارنة التي عقدها سان ليون بين الإنسان وحيوانه المفضل «الحصان العربي» قد سره كثيرا . ورغم تحفظه من النتائج التي توصل اليها سان ليون فانه حكم بأنها تدعو إلى التأمل الجديه (7) . وقال بأنه يرى أن النوع الإنساني القريب من الكمال ليس هو الذي يؤلف الكتب ويتكلم في السياسة. «رغم ان ذلك قد يجرح كرامتنا» لأن ذلك في نظره قد يكون علامات فوضى ومرض. ولكنه ذلك الانسان الذي يستطيع ان ينظر ويسمع ويتذوق ويشعر ويتأمل .

وقد شعر بحاجة كبيرة ، وهو في عنابة . إلى وجود كنيسة . «فالمرء فيها يكاد يعيش عيشة كافر لأنه لا يستطيع أن يغامر بالذهاب إلى المساجد حتى ولو شعر أنه متأثر كل التأثر بالاسلام . ويظهر أن الفرنسيين هنا قد تركوا دينهم وراءهم في باريس (8) . ولكن من حسن الحظ ان الخالق قد بني حولنا معبدا فخما. ولكنني لا أستطيع ان أتوجه بالدعاء إلى أي شيء مقدس يرفرف على شفتي في رسالة موجهة للنشر» .

ثم تحدث عن تعلمه فن الطهي وهو في عنابة فأخذ أولا من السيدة دار ماندي طريقة طبخ الأرز بالكاري على الطريقة الهندية، واعداد القهوة، ولاحظت له أن وجود مشروبات القهوة هي التي تعد في عين المكان لأن نقل حب القهوة عبر البحار يفقدها نكهتها. أما من العالم الطبيعي، سان ليون، فقد تعلم ان لا يأكل السمك بالزيت والخل، بل بالزيت والليمون . وأخبر هو صاحبه بأن عنابة تنتج أفخر أنواع الجلجل البري ذي الخضرة الداكنة .

وقد أخبر أيضا صاحبه في هذه الرسالة عن مبارزة غريبة جرت في عنابة بين فرنسيين أحدهما ضابط من قناصة افريقية والآخر ضابط بحرية . وعلق على ذلك بأن المسلمين على حق عندما يقولون بأنه إذا لم تحن ساعة الإنسان فإنه لا شيء يؤثر عليه «أليس هذا واضحا مع كل المحاربين ؟ ألم يبق نابليون حيا ، خلال حياته الطويلة ليموت في سانتا هيلينا (9) وهو درس لجميع الأمراء والأمم . ومن الغريب أنه بينما في أروبا تحاول مخلوقات حقيرة ان تنزل به الى مستواها هي نجد أنه في الشرق قد أصبح تقريبا بطلا أسطوريا. ان شهرته هي التي ساعدت على تغير السخط ضد الأروبيين إلى إعجاب .

«فقد أخبرتني السيدة دار ماندي أن من بين الهدايا التي قدمتها الحكومة الفرنسية إلى سلطان مسقط (10) صورة للويس الثامن عشر (11) . فسأل السلطان عمن يكون صاحب الصورة فكان الجواب «حاكم الفرنسيين» لكن السلطان تعجب وقال ان ذلك غير ممكن فانا أعرفه جيدا وسأريكم اياه مباشرة ثم أمر باحضار صورة زيتية جميلة لنابليون، الله يعلم من أين جاءته! وقال لهم «ها هو سلطان الفرنسيين» ويبدو أنه كان معجبا بالصورة لأن صورة لويس الثامن عشر، صاحب الوجه المفرطح، كانت تمثل شيئا آخر بالنسبة الى سلطان مسقط. وما دام نابليون كان خالدا بدنيا فلا يمكن ازالته من ذهن هذا السلطان» .

«ونظرا الى ان سفري الى تونس كان يتأخر في كل مرة لمعاكسة الرياح، فقد كانت لي فرصة لمشاهدة الاحتفال بالعيد عند المسلمين. فبعد طلقات مدفعية طويلة (والعرب يبالغون في حب ضجيج البارود) اجتمع موكب من الصبايحية رؤساء البدو الممتطين صهوات الخيول، واللابسين أفخر الألبسة؛ في ميدان واسع قرب المدينة، وقد أحاط به سكان عنابة في شكل دائرة واسعة. ووسط ذلك الميدان نصبت خيمتان أحداهما للجنرال والثانية لأركان حربه. وعند الاشارة بآخر طلقة نارية بدأ العرب نوعا من السباق الذي أظهروا فيه حركات شبه حربية وألعابا مختلفة. وفي هذه المناسبة فقد شاوش تركي كان قد رافقنا في رحلة صيد الخنزير البري ، حصانه حين دهم بعنف عامودا من حديد فسقط وقتل في الحين .

«وبعد مشاهدة هذا الاحتفال عن كثب بعض الوقت نزلت إلى الهضبة المجاورة لهيبون (بونة) حيث مايزال هناك مناظر خلابة وفي نفس الوقت ودعت هذه الآثار

الفخمة التي من المحتمل جدا أن لا أراها ثانية. ثم تحولت نحو البحر لكي أنظر في السفن الراسية هناك. وقد اندهشت من سفينة حربية فرنسية تحطمت فلم يبق منها فوق الأمواج سوى صاريتين وجزء من مقدمتها . وكل ما بقي من هذه السفينة الفخورة بعض الحبال والصمول . ان هذا المنظر قد أثر علي بعمق . ولو كان من حسن الحظ أن أكون شاعرا لكان ذلك مصدر وحي لي. ووسط تلك الآثار كانت تقف شجرة زيتون قديمة لعلها تعود إلى عهد الحكام الأتراك الأولين لافريقيا» .

فاذا نظر المرء الى المدينة من ثقوب نافذة من حيطان قديمة فان الاجزاء المختلفة للمدينة تظهر كأنها موضوعة داخل أطر . ان المدينة تبدو وكأنها مدينة للأموات، ذلك ان جميع سكانها قد خرجوا الى الاحتفال» .

ثم توجه الى الرأس الأحمر ليقوم بزيارة الى ضريح سيدي عيسى ذلك المرابط المشهور «انه من الصعب ان تجد مكانا أكثر رومانتكية للدفن. فهو ضريح يقع في سفح الجبل المطل على البحر داخل صخرة رخامية من آثار الرومان وحوله الزهور والاعشاب وأشجار الكروم والتين التي تعطى ثمارها. الا يكون من المفضل لأحد الكهان أن يرتمي هكذا على أقدام قديسه ! ذلك أن سيدي عيسى لم يكن مدفونا في الأرض ولكنه كان في غرفة منحوتة من صخرة رخامية يصعد اليها المرء ماشيا على جميع أنواع الأعشاب المشوكة . وقد نصب سرداق على صندوق وضعت فيه بقاياه . وفوق ذلك سقف تتدلى منه الأعلام القديمة . وكانت أوامر الجنرال تقتضي احترام الضريح، ولكن فضول المسيحيين لم يتوقف عنه. وفي أعلى نفس الجبل يوجد ضريح لرابط آخر أقل شهرة» .

«ان ذلك الجزء من الساحل الممتد من بونة نحو الشمال أكثر صحة من غيره. لذلك اقترح السيد دار ماندي ترك آثار بونة القديمة تماما وبدلا من اعادة بنائها بأغلى ثمن، اقترح أن تبني المدينة كلها من جديد في هذا المكان الأكثر بعدا عن الأعاصير، وهو أيضا خليج أوسع من القديم ، ويعتبر أكثر أمنا للسفن الراسية من المرسى الحالي المفتوح كثيرا على البحر كأنه طريق مستقيم. وقد برهنت العاصفة الأخيرة على ذلك حيث لم تمس الباخرة (ستاسنير) ، التي صادف أن كانت في هذا المرسى وقتها، بأي أذى» .

أخيرا أرسل الأمير إلى صاحبه تحياته من بونة الافريقية ، أفروديت (12) القديمة ، متمنيا السعادة لبون الألمانية حيث تمنى عليه أن لا يكرس وقتا طويلا لعبادة أفروديت . كما تمنى عليه أن يظل وفيا لطبيعته الحقيقية ومشاعره لأن الأفـراد لا يمكن أن يشبه أحدهما الآخر تماما. ولكن كل من يعمل لإصلاح نفسه يمكن ان يكون ممتازا وكاملا .

* * *

رسالة رقم 24 بتاريخ طبرقة ، 13 أبريل ، 1835

غادر عنابة على متن سفينة تجارية صغيرة من جنوا. وودعه يوسف ودار ماندي. وقد عانوا من معاكسة الرياح والخوف على غرق السفينة . وحكى أنهم سمعوا قبل مغادرة عنابة بثمانية أيام ان سفينة أخرى قد تحطمت عند بنزرت رغم اعتدال الرياح وان خمسة من ركابها قد ماتوا ومن بينهم الضابط الذي روي أنه كان عشيق الفتاة البدوية .

ابن عكنون، ربيع ، 1976.

التعاليق

1 ـ يكتبها باللاتيني هكذا Hammal ولم نهتد الى مقصده منها .

2 ـ هكذا يكتبها باللاتيني Mertschia وهي تدل على مدى تحريف أسمائنا في أوربا .

3 ـ هو الحاج أحمد ، باي قسنطينة عندئذ . وقد فقد ملكه سنة 1837 عند تغلب الفرنسيين عليه بعد قتال شديد . وظل يحارب الفرنسيين بعد ذلك الى سنة 1848 حينما وعده الفرنسيون بتركه يرحل الى المشرق العربي ولكنهم لم يوفوا له بوعدهم فمات في سجنه بمدينة الجزائر سنة 1852 .

4 ـ تعريض من المؤلف بالسياسة الانكليزية في أرلاندا ، وقد كان الارلانديون في وقته محرومين من حقوق كثيرة ، وكان الأوربيون يتعاطفون معهم ، مثل المؤلف .

5 ـ لم يكشف المؤلف عن اسم صاحب الضريح .

6 ـ هذا موقف آخر من المؤلف نحو الجزائريين ، ولاشك أنه قلد فيه الرأي الشائع عندئذ لدى الفرنسيين ، فهو شخصيا لم يشاهد منهم ما نسبه اليهم .

7 ـ ونحن أيضا ندعو الى ذلك . ولتلاحظ أن أفكار سان ليون وأمثاله كانت ارهاصات لنظريات داروين ودي قوبينو واضرابهما حول تطور الأنسان .

8 ـ ليس الأمير موسكاو أول من أشار الى ضعف الايمان عند الجيش الفرنسي ، ولكن كلامه يؤكد ما ذهب اليه علماؤنا أمثال حمدان خوجة والأمير عبد القادر والعربي المشرفي عندما انتقدوا سلوك الفرنسيين .

9 ـ توفي سنة 1821 غريبا بعد انتصاراته العسكرية . ويبدو واضحا تعاطف الأمير موسكاو معه ، وهو يعرض بأمراء وملوك أوربا الذين ورثوا أمبراطورية نابليون ولكنهم لم يكونوا في مستواه .

10 ـ لم نهتد الى اسم هذا السلطان .

11 ـ هوملك فرنسا سنوات 1815 ـ 1824 أي بعد سقوط نابليون .

12 ـ في الأساطير الاغريقية هي الهة الحب والجمال .

فهرس الأعلام

ـ أ ـ

آدم 233
آل خليفة (محمد العيد) 7 ، 24 ، 26 ، 28 ، 35 ـ 37 39 ـ 40 ـ 41 ـ 42 ـ 43 ، 122 ، 135 ، 158 ، 163 ـ 164 169 ، 177 ، 193 ، 210 .
ابراهيم عليه السلام 251
الابراهيمي (م . البشير) 210 211
ابن ابي ربيعة (عمر) 42
ابن ابي سلمى (زهير) 42 ، 160
ابن ابي شنب (محمد) 75 ـ 76 ـ 77 78 ، 81 ، 84 ـ 85 ، 87 ـ 88
ابن ابي الضياف 233
ابن أبي طالب (علي) 93
ابن ابي عكاز (محمد ـ الصخرى) 47
ابن احمد (عمر) 67
ابن الازرق (محمد ـ الاصبحي) 232
ابن الاعلام (محمد الصغير) 7 ، 181 195
ابن الامين (علي) 108
ابن باديس (بركات) 49
ابن باديس (عبد الحميد) 37 ، 97 ـ 98 99 ـ 100 ـ 101 ـ 102 ـ 103 ، 105 122 ، 210 ـ 211 ، 221 ـ 22 ، 259 261
ابن تازروالت (محمد) 214
ابن تاشفين 124
ابن تومرت 124
ابن ثابت (حسان) 42 ، 93
ابن الحاج (النميري) 231
ابن حسان (خليفة ـ القمارى) 257 ، 261
ابن حسون 229
ابن حسين (احمد البدوي) 262
ابن حسين (العربي) 263
ابن حسين (علي ـ باي) 262* ، 264
ابن حمادوش (عبد الرزاق) 45 ، 63 ، 109 ، 204 ، 220 ، 232 ، 234 ، 252
ابن حمدان (العربي) 109
ابن خاقان (الفتح) 64
ابن خروف 226
ابن الخطيب (لسان الدين) 64 ، 211

ابن خلدون (عبد الرحمن) 232
ابن دريد 85
ابن زاكور 203
ابن زيدون 42
ابن سالم (الطاهر) 100
ابن سالم (عبد الله ـ البصري) 67
ابن سحنون 221
ابن سودة 216 ، 266
ابن سينا 219
ابن شاهد (محمد) 71 ، 107 ـ 108
109 ـ 110 ـ 111 ـ 112 ـ 113
ابن شمس (هارون) 226
ابن الصخرى (احمد) 47 ، 52
ابن الصخرى (محمد) 47
ابن طوير الجنة 213 ، 265 ـ 266 ـ 267
268 ـ 269 ـ 270 ـ 271
ابن عاشر 229
ابن عاشور (محمد الطاهر) 100
ابن عباس (عبد الله) 94
ابن عبد الله (ابوالقاسم) 7
ابن عبد الله (عبد العزيز) 238
ابن عبد الله (محمد ـ مولاي) 208
ابن عبد الله (محمد) 221
ابن عبد الكريم (محمد) 63
ابن عبدى باشا 45
ابن عذارى المراكشي 210
ابن عزوز (المكي) 100 ـ 101
ابن عفان (عثمان) ـ انظر = عثمان بن عفان
ابن العفيف (الشريف) 36
ابن علي (محمد بن محمد) 110
ابن علي (نورالذين) 49 ، 63 ـ 64 ـ 65
ابن عمار (احمد) 45 ، 53 ، 63 ـ 64
65 ـ 66 ، 68 ، 75 ، 107 ، 109
110 ـ 111 ، 203 ، 252
ابن عمر (احمد التونسي) 262
ابن عمر (الحبيب) 269
ابن عمر (عبد الله) 50 ، 56
ابن عمر (علي) 101
ابن العنابي (محمد) 71
ابن عيسى 281
ابن عيسى (حنفي) 22 ـ 23 ـ 24 ، 187
ابن قاسم (زيدون) 15
ابن قاسم (احمد ـ البوني) 45 ، 101
ابن قنفذ 203
ابن الكرد بوسى (التوزرى) 232
ابن محمد الطيب (محمد) 262
ابن مروان 50
ابن مشيش 234
ابن مضاء 226
ابن المناصف (ابوعبد الله) 210
ابن منصور 119 ـ 120 ، 214 ، 227
ابن منظور 220
ابن الموهوب (المولود) 36 ، 77
ابن ميسر 84
ابن ميمون (محمد) 45 ، 50 ـ 51 ، 63
232
ابن ناصر (محمد) 260 ـ 261

ابن نبي (مالك) 18 ، 20 ـ 21
ابن النحوى 225
ابن الونان 225
ابن يوسف (الحجاج) 50 ، 56
ابوبكر الصديق 249
ابو تمام 42
ابوحنيفة 90 ، 94
ابو ريشة (عمر) 188
ابو السعد (احمد) 193
ابو سفيان 252
ابو العتاهية 42
ابو عنان ـ سلطان 231
ابوالقاسم الزياني 109
ابومدين الغوث 99 ، 104
ابونواس 217 ، 229
ابو اليقظان (ابراهيم) 36
الاجدابي (ابراهيم الطرابلسي) 234
احمد ـ باى 264
احمد (زهير) 17
احمد البوني 48 ، 51 ، 89
احمد القلي ـ باى 264
ادريس الاكبر ـ مولاى 217
ادريس (سهيل) 8 ، 13 ، 17 ، 19 ـ 20 ـ 22 ـ 23 ـ 24 ، 26 ـ 27 ، 135 ، 237 ، 238
ارون (ريمون) 20
الازهرى (محمد) 99
اسماعيل (محيى الدين) 17 ، 24
افروديت 289
اليغ (بيير) 21
اليوت 163 ، 165
الامام (رشاد) 238 ش
امرؤ القيس 42 ، 160
الانصارى (ابو ايوب) 50 ، 56
الانصارى (عبد الرحمن الطيب) 242 ـ 243 ـ 247
الانصارى (عبد القدوس) 247
الانصارى (على بن عبد الواحد) 47
اوربانو (جانين) 23
اولاد حسين 258 ، 262
ايراني (ناظم) 21
ايوب ـ نبي 95

ـ ب ـ

الباتني (احمد معاش) 155 ، 157 ـ 158
البارودي (محمود سامي) 36
باسية (رينية) 75 ـ 76 ، 78 ، 84
باشا (علي) 257
باش ترزى (مصطفى) 99 ، 101
باش ترزى (عبد الرحمن) 99
البحترى 42
برادة (محمد) 25 ، 218
البرنوسى (احمد رزق الفاسي) 259
بروفنسال (ليفى) 75 ، 216
بغلى (احمد) 215
بكداش (محمد) 45 ، 48 ـ 49 ، 51 ، 52 ، 60

بكير (محمد ـ المغربي) 250
بلاى (روبير) 33
بلمكى (احمد زروق) 259 ـ 260 ـ 262 263
بلمكى (نور الدين) 262
البلوى 203
البنانى (محمد) 111
بوحيرد (جميلة) 21 ـ 22
بوروبة (رشيد) 241 ، 245
بوريه (كلود) 18
بوزاهير (حسين) 26
بوشلاغم (مصطفى ـ باى) 48
البوعبدللي (المهدى) 221 ، 259
بوعزة (جميلة) 21
بوعياد (محمود) 212
بوغديرى (المولود) 263 ـ 264
بوكوشة (حمزة) 121
بومنجل (علي) 19
بونار (رابح) 7 ، 159
البوني ـ انظر = ساسي البوني
البياتي (حسن) 21
بيريز (هنرى) 77
بيل (ألفريد) 75

ـ ت ـ

التازى (عبد الهادي) 238
التبسي (العربي) 261
الترك (اسماعيل) 21
التسولى 233
التمغروتي 203
التميمي (عبد الجليل) 238
التنسى (الحافظ) 212
التومي (محمد) 61
التيفاشي (احمد) 234
الثعالبي (أبو منصور) 45 ـ 46
الثعالبي (عبد الرحمن) 99 ، 104
الثعالبي (عيسى) 47 ، 65 ، 68

ـ ج ـ

الجاسر (الشيخ محمد) 237 ، 247
الجامعي (عبد الرحمن) 50 ، 203
جبران (خليل جبران) 42 ـ 43
الجبل (بدوي) 188
الجرارى (عباس) 214 ، 217 ـ 218 219 ، 221 ـ 222 ـ 223 ـ 224 ، 238
الجرارى (عبد الله) 214 ، 224
الجرجرى (محمد ـ الازهري) 260
جرير 42
الجزولى 225
الجنحاني (الحبيب) 238
الجندى (انور) 193
الجنيدي (خليفة) 21 ، 25 ، 28 ، 174
جندي (رمضان) 122
جواد (كاظم) 17 ، 26
الجواهرى 188
جودت (صالح) 188

جونار ــ حاكم عام 258
جونسون (فرانسيس) 16 ، 24
جونسون (كوليت) 16
جيرمان ــ ضابط 264

- ح -

حافظ (ابراهيم) 42
حجازى (عبد المعطى) 19 ، 21 ، 189
حجي (محمد) 212
حداد (مالك) 25 ، 26 ــ 28 ، 183 ، 193
حروز القماري 252
الحسن الثاني ــ ملك 207 ــ 208
الحضرى (محجوب) 53
الحفناوى (ابو القاسم) 77
الحفني (محمد) 65 ، 67
الحلي (علي) 7 ، 17 ، 21 ــ 22 ، 169 ، 170 ــ 171 .
حماني (احمد) 221
حمزة بن عبد المطلب 249
الحنبلي (عبد الرحمن) 234
الحنفي (عاشور) 258
حوحو (احمد رضا) 7 ، 24 ، 28 ، 117 ، 118 ــ 119 ــ 120 ، 174 ، 247

- خ -

خرفي (صالح) 141 ــ 142 ، 187 ــ 188
الخروبي (محمد بن علي) 234
الخزرجي 225
خضر (سعاد) 193
الخطيب (احمد) 23
الخفاجي (علي) 64
خلوصي (صفاء) 265 ، 268
خمار (ابو القاسم) 7 ، 181 ، 187
الخنقي (الاخضر) 257 ــ 258
الخنقي (رشيد) 260
الخنقي (عبد الحفيظ) 260 ، 262 ــ 263 264
الخنقي (محمود) 262
خوجة (حسين) 233
خوجة (حمدان بن عثمان) 113
الخورى (خليل) 25
خورى (رئيف) 15
الخورى (هنرى صعب) 7 ، 163
خياط (يوسف) 220
خير الدين (محمد) 214

ـ د ـ ذ ـ

دار ماندى ــ ضابط 275 ــ 276 ، 278 279 ، 286 ــ 288 ــ 289
داود (محمد) 219 ــ 220
داودى (نادية) 211
الدخلى (احمد) 67
الدرعى 203
الدروبي (سامي) 17 ، 193
درويش (محمود) 189
الدريدى (عبد الكريم) 258 ــ 259

دغيم (محمد) 267
دودو (ابو العيد) 7 ، 20 ، 28 ، 129
133 ، 135 ـ 136 ـ 137 ـ 138 ، 140
174
دورك (جان) 138
دوزير 275 ، 280
ديب (محمد) 12 ـ 13 ، 16 ، 28 ، 183 ،
193
ديدرو 11
ديستان 266 ، 268 ، 270
الذويب (عبد المجيد) 238

- ر -

الرازي ـ الفخر 94
الراشدى (عبد القادر) 63
الرافعي (مصطفى صادق) 120
الرشيد (ناصر) 239
الرصافي (معروف) 42
ركيبي (عبد الله) 7 ، 124 ـ 125 ، 127
128 ـ 136 ، 174 ، 237
رمضان (محمد صالح) 7 ، 21 ـ 122
روبلس (عمانويل) 13 ، 28
روجيه ـ بارون 267
دى روفيقو ـ دوق 266 ، 270
روى (جول) 26
الرياحي (ابراهيم) 233

- ز -

الزاهرى (سعيد) 36 ، 210
زبادية (عبد القادر) 266
الزركلي (خير الدين) 246
الزروق البوني (احمد) 49
زكريا (مفدى) 122 ، 158
الزلفة (محمد) 239
الزهراوى (حسن) 215 ـ 216
الزياني (ابو القاسم) 203 ، 214 ، 233

- س -

سارتر (ج . بول) 17 ، 20 ـ 21 ، 26
ساسي البوني (محمد) 45 ـ 46 ـ 47 ـ 48
49 ـ 50 ـ 51 ـ 54 ، 56 ، 58 ـ 59
السالمي (صالح) 258
السالمي (مصطفى) 101
السامرائي (جلال) 17
سحنون (أحمد) 156 ، 158
السرحاني (أحمد) 261
سرور (نجيب) 21 ، 25
سعد (علي) 14 ـ 15
سعد الله (البشير) 251
السعدى (ابو عبد الله) 67
سعدى (عثمان) 14 ـ 15 ـ 16 ، 20 ـ 21
22 ـ 23 ـ 24 ، 28
سعيد (ابو الفضل) 67
سقاى (عبد الحميد) 215
السلاوى (احمد الناصرى) 228
سليماني (عبد السلام) 97 ، 100
السنوسي (محمد) 99 ، 104 ، 233
السولامي (ابراهيم) 218
سوناك (جان) 17

سويد (احمد) 25
السياب (بدر شاكر) 15 ، 17 ، 169 ـ 170 ـ 171
السيالة (ابراهيم) 63
سيدىمبارك 263 ـ 264
سيمون (ب . ه .) 20
السيوطى 226

ـ ش ـ

الشابي (ابو القاسم) 152 ، 163 ، 169
الشابي (عبد الصمد) 263 ـ 264
الشابي (مصطفى) 229 ـ 230
شاهين (عبد الصبور) 193
الشاوي (يحيى) 49
شحلان (أحمد) 225 ـ 226 ، 228
شرايبر (سرجان) 19
شرف (السيد عبد العزيز) 193
الشريف (الطيب) 20
شكسبير 137
شلش (علي) 21
شمس الدين (محمد) 17
الشواف 17
شوقي (احمد) 42 ، 161
شيبان (عبد الرحمان) 120

ـ ص ـ

صادق (حبيب) 21
الصائغ (صادق) 22
صبرى (محمود) 21
الصديق (محمد الصالح) 23
الصفاقسي (محمود) 233
صفدى (مطاع) 17

ـ ط ، ظ ـ

طارق بن زياد 124 ، 147
طاع الله (محمد) 7 ، 181
الطاهر ـ مولاى 209 ، 213 ، 215
طاهر (ابو الفضل) 67
الطاهر التليلي (محمد) 89 ، 98
طراد ـ الشيخ 48
طرفة بن العبد 111 ، 160
الطعان (عبد الرضا) 17
طه حسين 21
طوبال (الفضيل) 89
طوقان (فدوى) 189
الطياب (مولود) 121
الظاهر (مزيد) 27

ـ ع ـ

عاقل (محمد) 72 ـ 73
عبد الله (عبد الدائم) 15 ، 20 ، 25 ، 26
عبد الرحمان ـ مولاى 233 ، 269
عبد الصبور (صلاح)) 163 ؛ 169 ، 190
عبد القادر ـ الامير 23 ، 124 ، 142 ، 204 ، 214 ، 233
عبد المؤمن بن علي 124
عبد الوهاب (حسن حسني) 83
العبدرى 203
عبو (فرج) 21

العبيدى (احمد) 100
العبيدى (الطاهر) 97 ـ 98 ـ 99 ـ 100
101 ـ 102 ـ 103
العبيدى (المكي) 100
عثمان باشا (محمد) 216
عثمان بن عفان 93 ، 252
العقاد (عباس محمود) 120
عقبة بن نافع 147 ـ 148 ، 150 ، 227
العقبي (الطيب) 210
العقون (عبد الكريم) 157 ـ 158
العقيلي (محمد) 247
عكاش (احمد) 22
علوش (ناجي) 19 ، 21
العلوى ـ مولاى (احمد) 219 ـ 220
علي باشا 64 ، 108
علي ابن ابي طالب 249
علي البوني 61
العليمي ـ انظر = الحنبلي (عبد الرحمن)
عمر بن الخطاب 249 ، 255
عمروش (جان) 19
العمودي (عبد الرحمان) 100
عميروش ـ العقيد 23
العنابي (الحسين) 90
العنابي (محمد) 90
العنابي (مصطفى) 90 ، 94
عنان (عبد الله) 213
عياد (كامل) 241 ، 245
العياشي (عبد الله ـ المغربي) 257 ، 268
عياض ـ القاضي 224
العيساوية ـ جماعة 224
العيسى (سليمان) 21 ، 25 ، 151 ، 163
169 ، 193
العيسى (ملك الابيض) 25 ، 27

ـ غ ـ

الغزال (احمد) 63 ، 107 ، 109 ـ 110
111
الغزالي (ابوحامد) 111
الغزالي (احمد) 36
الغساني 203
الغسيرى (ميموني) 257
الغمارى (مصطفى) 7 ، 145 ـ 146
147 ـ 149 ، 151

ـ ف ـ

فارس (محيي الدين) 26
الفاسي (عبد السلام) 212
فان (لويس) 282
فانسان (ب .) 110 ، 112 ـ 113
فانون (فرانز) 26 ، 222
فتح الباب (حسن) 22
فرانس (اناتول) 120
الفرزدق 42
فرعون (مولود) 13 ، 27
الفشتالي (عبد العزيز) 216
الفكون (عبد الكريم) 47 ـ 48
الفلالى (عبد الكريم) 233

الفيتوى (محمد) 21 ، 267
فيصل (شكرى) 77 ، 159

- ق -

قباني (نزار) 21 ، 169 ـ 170 ، 188
قدورة (سعيد) 47 ، 51
القلماوى (سهير) 143
قويدر (فارس) 21

- ك -

كامو (البير) 13 ـ 14 ـ 15 ، 23 ـ 24 ـ 28
الكاهنة 124
الكبابطي (مصطفى) 71 ـ 72 ـ 73
الكتاني (محمد ابراهيم) 209 ـ 210 ـ 211 ـ 238 ، 251
كحول (محمود) 77 ، 212
كرد علي (محمد) 75 ـ 76 ـ 77 ـ 78 ـ 81 ـ 82 ـ 87 ـ 88
كرو (ابو القاسم) 234
كريم (عبد الكريم) 214 ـ 215 ـ 216 ـ 217 ـ 238
كريم (مصطفى) 238
كلزى (محمد) 25
كليمرات 282
كمال الدين (جليل) 20 ـ 21
الكمالي (شفيق) 21
كو (جان) 25
الكوراني (محمد) 68
الكيالي (ابراهيم) 193
كيكتيف (ماكسيم) 220

- ل -

دى لا بورت 267
لافنتين 120
اللخمى 226
اللقانى (محمد) 36
لوركا 165
لويس الثامن عشر 285 ـ 286 ـ 87
ليون (سان) 275 ـ 276 ، 278

- م -

المازني (ابراهيم عبد القادر) 120
ماسية (رينيه) 75 ، 78 ، 84
مالك بن أنس 72 ، 74 ، 108 ، 210
المانجلاتي (احمد) 64
المتنبي (ابوالطيب) 42 ، 220
المجاوى (عبد القادر) 77
المجذوب (عبد الرحمان) 270
محمد ـ (صلع) 51 ، 54 ـ 55 ، ' 58 ـ 59 ، 62 67 ، 95 ، 102 ، 9. 251 ـ 252
محمد باشا 214 ، 233
محمد الخامس 207 ـ 208 ـ 209 ، 2 214 ، 218 ، 226 ـ 227
محمد علي 245
المدني (احمد توفيق) 214 ، 216
مراد باي 67

المرادى (محمد خليل) 45 ، 63 ـ 64 ، 65 ، 68 ، 75
مرتاض (عبد المالك) 212 ، 218
مردم (فاروق) 26
المسعدى (محمود) 13
المشرفي 204 ، 211 ، 233
مصباح (مصباحي) 97
المصرى (محمد) 21
المعرى (ابوالعلاء) 42 ، 120
معمرى (مولود) 12 ـ 13 ، 24 ـ 25 ، 28 ، 215
معنينو (الحاج احمد) 221
المقرى (احمد) 53 ، 178 ، 203
المكناسي (عبد القادر) 214
الملائكة (نازك) 17 ، 22 ، 163 ، 169 ، 189
مندور (محمد) 17 ـ 18 ، 218
المنصور الذهبي 216
منصورى (عبد الله) 211
المنفلوطي (مصطفى لطفي) 161
المنوني (محمد) 213 ، 238 ، 266 ، 267
مهرى (عبد الحميد) 20
المهلهل 160
مورات 278
مورياك (فرنسوا) 19
موسكاو ـ امير 273 ـ 274 ـ 275 ، 277 ، 278 ـ 279 ـ 280
موسى (محمد العربي) 100
موسى (المدني) 100
دى موسيه (ألفريد) 217
ميرزا (محمد علي) 279
ميزو مورط (حسين) 108
الميلي (المبارك) 210
الميلي (محمد) 222

ـ ن ـ

النابغة الذبياني 42 ، 160
نابليون الاول 278 ، 287
ناجي ـ سيدي 257 ، 262
نادو (موريس) 16
الناصر (ابوراس) 63 ، 107 ، 109
الناعورى (عيسى) 21
النجدى (محمد) 19 ، 21
نعمون (محمد بن حسن) 46
النعيمي (نعيم) 221
النقاوسي (احمد) 225
النقدى (محمد) 17
نوريس 265 ـ 266 ـ 267 ـ 268 ـ 269 ـ 270 ـ 271
نيازى 17

ـ هـ ـ

الهداوة ـ جماعة 224
هوستون (ويليام) 271

ـ و ـ

الورثلاني (الحسين) 100 ، 109 ، 204

261 ، 268 ، 270
الورززى (احمد) 220
الونشريسي 203
ونيسي (زهور) 143
وهبي (محمد) 22

- ى -

ياسين (كاتب) 16 ، 28 ، 183 ، 193
يعقوب ـ نبي 95
يعقوب المنصور 219
يوسف باشا 45 ـ 46 ـ 47 ـ 48 ، 50 ، 52 ، 54 ، 56 ـ 57 ـ 58
يوسف ـ مولاى 208
يوسف ـ جنرال 281 ، 289

فهرس الأماكن والبلدان

ـ أ ـ

الآستانة 00

آسيا 286

آن آربر 8 ، 271

ابن عكنون 152 ، 255 ، 289

ابن يعقوب 277

ابو حنيفة ـ واد 245

ابو قبيس ـ جبل 252

الابيار 140

الاردن 8 ، 248

ارلاندا 284

اريتريا 181

الازهر ـ جامع 41

اسبانيا 48 ، 213

اسطانبول 8 ، 233

الاسكريال 216

الاسكندرية 71 ، 73 ، 269 ـ 270

افران 218

افريقيا 178 ، 273 ، 276 ـ 277 ، 279 ، 281 ، 283 ، 285 ، 287 ـ 288

افريقيا الشمالية 12 ، 135 ، 241

افريقيا الغربية 265 ـ 266 ، 270

اكسفورد 75 ـ 76

ألمانيا 278

ألمانيا الغربية 246

امريكا 8 ، 33 ، 125 ، 129 ، 133 ، 241

اناضوليا 48

الاندلس 64 ، 203 ، 213 ، 226 ، 232 ، 267

اندونيسيا 241

انكلترا 271 ، 276

اوراس 19 ، 165 ، 261

اوروبا 76 ، 138 ، 274 ، 279 ، 286 ، 287

اوروبا الشرقية 137

اوروبا الغربية 8

اوكلير 125 ، 129 ، 133

ايدوغ ـ جبل 275 ، 283

ايران 240 ، 248

ايطاليا 283
ايكم ــ واد 221

ــ ب ــ

باتنة 39
بادس 264
باريس 12 ــ 13 ، 17 ، 19 ، 26 ، 45
222 ، 226 ، 233 ، 286
بجاية 21 ، 232 ، 270
البرواقية 89
بروسيا 277
بريطانيا 8 ، 266 ــ 267
بسكرة 36 ، 38 ، 41 ، 47 ، 50 ، 232
245 ، 257 ، 259 ، 264
بغداد 20
بلعموري ــ زاوية 146 ، 148
البلقان 241
البليدة 109
بنزرت 289
بوحمرة ــ جبل 276
بوادبيست 53
بورقراق ــ واد 227 ــ 228
بوسعادة 245
بوقاروني 283
بون 289
بونة 278 ، 287 ، 289
بونة ــ القصبة 275
بئر العاتر 101
بيروت 208

ــ ت ــ

تارودانت 216
تازة 216 ، 232
تركيا 240
تشاد 181
تطوان 204 ، 210 ، 216 ، 219 ــ 220
232
تقرت 97 ــ 98 ، 100 ، 103
تلمسان 41 ، 52 ، 99 ، 104 ، 210
211 ، 214 ــ 232 ــ 233
تمارة ــ شاطىء 219
تونس 8 ، 11 ــ 12 ــ 13 ، 18 ، 36
41 ، 49 ، 63 ، 64 ، 89 ، 99 ــ 100
101 ، 109 ، 113 ، 231 ، 232
233 ، 238 ، 241 ، 248 ، 259
261 ، 262 ، 264 ، 273 ، 287
تيبازة 14

ــ ج ــ

جامعة ــ مدينة 100
جبل طارق 270
جدة 208 ، 237 ــ 238 ، 248 ، 251
253 ــ 254
جرجرة 165
الجريد 101
الجزائر 7 ــ 273
الجزائر ــ العاصمة 63 ، 87 ، 89 ــ 90
98 ــ 99 ، 102 ، 108 ــ 109 ــ 110
113 ، 146 ، 218 ، 259 ، 264 ، 266
270 ، 283

الجزيرة الخضراء 103
الجزيرة العربية 7 ـ 8 ، 198 ـ 199 ، 235
236 ، 239 ـ 240 ـ 241 ـ 242 ـ 243
247 ، 255 ، 267
جنوا 289
جنوة ـ قلعة 275

- ح -

الحجاز 49 ، 89 ، 109 ، 247 ، 249
265
حراء ـ جبل 251
الحرم النبوي 249 ـ 250 ـ 251 ـ 252
254
حلب 64 ، 208
حمزة (البويرة) 47 ، 232
حمص 207 ـ 208

- خ -

الخلوتية ـ زاوية 260
خنشلة 259 ـ 260
خنقة سيدي ناجي 8 ، 257 ـ 258 ـ 259
264

- د -

الدار البيضاء ـ مدينة 206 ـ 207 ، 218
221 ـ 222 ، 224 ، 252
الدار البيضاء ـ مطار 206
الدرعية 244 ـ 245 ش
دمشق 17 ، 20 ، 64 ـ 65 ، 75 ـ 76
181 ، 190 ، 208 ، 217
ديار اولاد حسين 258

- ر -

الرأس الحمراء 275 ، 288
الرباط 206 ـ 207 ـ 208 ، 210 ، 212
215 ، 218 ـ 219 ، 221 ـ 222 ـ 223
227 ، 229 ، 266 ـ 267
الربع الخالي 243
روسيا 33
الرياض 235 ـ 236 ـ 237 ـ 238 ـ 239
240 ـ 243 ـ 244 ـ 245 ـ 246 ـ 247
248 ـ 253 ـ 254 ، 267

- ز -

الزاب 231 ، 260
زرهون 217
زريبة 257 ، 263 ـ 264
زواوة 261
الزيبان 47 ، 52
الزيتونة ـ جامع 11 ، 36 ـ 37 ، 41 ـ 43
100 ، 259

- س -

الساقية الحمراء 263
سانت اوجين 87 ـ 88
سانتا هيلينا 287
ستورية ـ خليج 283
سجلماسة 233
سدراته ـ جامع 260
السربون ـ جامعة 20
سطيف 47

سلا 215 ، 228 ـ 229
السنغال 266 ، 270
السودان 233
سور الغزلان 250
سورية 8 ، 18 ، 183 ، 193 ، 240
286
سوف 97 ، 100 ـ 101 ـ 102 ، 252
سويسرا 283
سيبوس ـ نهر 275 ، 279
سيدى عقبة 257
سيدي عيسى ـ جبل 283 ، 288
سيدي مبارك ـ جامع 260 ـ 261

- ش -

الشام 64 ، 75 ، 77 ، 199 ، 255
شراط ـ واد 221
الشرق الاقصى 240 ، 255
شراط ـ واد 221
الشرق الاقصى 240 ، 255
شمال افريقية 17 ـ 18 ، 178 ، 211
278
شنقيط 247 ، 265 ، 270 ـ 271
شيراز 279

- ص -

الصحراء 47
الصخيرات 221
صفاقس 233
الصومال 240
الصومام ـ واد 20
الطائف 208
طبرقة 289
طرابلس (المغرب) 209 ، 218 ، 238
261
طرود 264
طنجة 222 ، 227 ، 267
طولقة 232

- ع -

العادلية 76
العالم الاسلامي 109
العراق 8 ، 17 ، 170 ، 199
العرائش 269
عرفات ـ جبل 251 ، 253
العفرون 252
العلا 248
عمان 208
عنابة 7 ، 45 ـ 46 ـ 47 ـ 48 ـ 49
89 ـ 90 ـ 231 ـ 232 ، 273 ، 275
276 ، 279 ـ 281 ـ 282 ـ 283 ، 286
287
عين البيضاء 36
عين مليلة 39
العيون السبعة ـ جبل 283

- ف -

فارس 279 ، 286
فاس 204 ، 211 ، 263 ، 269

الفاو 243
فتزارة ـ بحيرة 276 ـ 277
فرنسا 8 ، 12 ، 15 ـ 16 ـ 17 ، 19 ، 22 ـ 23 ، 24 ، 28 ، 31 ، 37 ، 75 ، 84 ، 212 ، 218 ، 237 ، 255 ، 267 ، 271
فلسطين 12 ، 164
فيتنام 33
فيينا 109 ، 278

ـ ق ـ

القاهرة 12 ، 15 ، 21 ، 33 ، 127 ، 141 ، 208 ، 214 ، 247 ، 255
القدس 264 ، 208 ، 232 ، 234
القرويين ـ جامعة 41
قسنطينة 41 ، 46 ـ 47 ، 50 ، 52 ، 55 ، 98 ـ 99 ، 102 ، 104 ، 143 ، 231 ، 232 ، 264 ، 275 ـ 276 ، 277 ، 283
القصبة ـ حي 23 ، 26
القل 283
قمار 89 ، 97 ـ 98
القنطرة 232
القنيطرة 218
القيروان 103

ـ ك ـ

كرزدة ـ جامع 260
كرمان شاه 279
الكعبة 251
كوريا 255
الكويت 8 ، 23

ـ ل ـ

لبنان 8 ، 18 ، 147 ـ 148 ، 193 ، 220 ، 222 ، 240
ليبيا 8 ، 146 ، 182 ، 209 ، 240
ليديس 33

ـ م ـ

المالح ـ واد 221
متيجة 222
المحمدية 221 ، 223
مدائن صالح 248
مدريد 216 ، 232
المدية 77 ، 81 ، 232
المدينة المنورة 65 ، 236 ، 241 ، 247 ، 248 ، 250 ، 253 ، 254
مراكش 12 ـ 13 ، 18 ، 41 ، 216 ، 226 ، 266
مرسيليا 71
المزدلفة 251
مستغانم 216
مسقط 287
المشرق العربي 15 ، 35 ، 63 ، 72 ـ 73 ، 77 ـ 78 ، 99 ، 128 ، 151 ، 178 ، 180 ، 182 ، 192 ، 194 ، 195 ـ 197 ، 198 ، 203 ، 204 ، 232 ، 239 ، 278
مصر 8 ، 18 ، 36 ، 41 ، 49 ، 63 ، 77 ، 89 ، 109 ـ 110 ، 184 ، 193 ، 217 ، 240 ، 245 ، 286
المغرب ـ الاقصى 7 ـ 8 ، 12 ـ 13 ، 53

63 ، 78 ، 109 ـ 110 ـ 111 ، 178
180 ، 203 ، 204 ـ 205 ـ 206 ، 209
211 ـ 212 ـ 213 ـ 214 ـ 215 ، 217
218 ـ 219 ـ 220 ـ 221 ـ 222 ـ 223
224 ـ 225 ، 226 ، 228 ، 230 ـ 231
232 ـ 233 ، 234 ، 238 ـ 239 ، 241
254 ، 265 ـ 266 ـ 267 ، 270

المغرب العربي 7 ، 9 ، 12 ـ 13 ، 26 ، 36
98 ، 163 ، 173 ، 178 ـ 179 ـ 180
181 ، 192 ـ 193 ، 196 ـ 197 ـ 198
199 ، 203 ، 209 ـ 210 ـ 211 ، 218
225 ، 232 ، 248 ، 254 ، 269

مقرة 232

مكة 63 ، 78 ، 83 ، 236 ، 239 ، 248
250 ، 252 ـ 253

مكناس 204 ، 216 ، 270

منى 251

موريطانيا 240 ، 271

موسكو220

ـ ن ـ

الناصرية ـ مدرسة 261 ، 263 ـ 264

نقاوس 232

النمسا 140

النواصر ـ مطار 206

نيويورك 222

ـ هـ ـ

الهامل 283

الهند 241

هيئة الامم المتحدة 15 ، 18 ، 22

هيبون 275 ، 287

ـ و ـ

الوادي 97 ، 101 ، 103

وادى العرب 258 ـ 259

ودّان 266 ، 269

الوطن العربي 7 ، 15 ، 18 ، 43 ، 188
195 ، 196 ، 199 ، 225 ، 246

الولايات المتحدة الامريكية 239

وهران 15 ، 19 ، 41 ، 48 ، 50 ـ 51
52 ، 212 ، 218 ، 263

ـ ى ـ

اليمن الجنوبية 240 ، 246 ، 248

الملاحق

رأينا من المفيد أن نضيف لهذا البحث (*) ما نشرته الآداب عن الجزائر أو بأقلام جزائرية منذ ظهورها الى يوليو 1962، تاريخ استقلال الجزائر. وقد رتبنا المادة كما يلي : الكتب، الأبحاث، القصائد، القصص، أما ما نشرته المجلة عن نفس الموضوع في أبواب المناقشات، والمراسلات ، وقرأت العدد الماضي فإننا لم نذكره هنا . ونرجو المعذرة إذا كان قد فاتنا شيء مما قصدناه

(*) كتب في شكل ملحق للبحث الذي طلبته مني مجلة الآداب عن (الثورة الجزائرية في مجلة الآداب) ولكن الدكتور سهيل ادريس اكتفى بنشر البحث دون الملحق .

(أ) ملحق الكتب

المؤلف	العنوان	الناقد أو المترجم	السنة	العدد
آرون ، ريمون	مأساة الجزائر	د. عبد الله عبد الدائم	1957	9
————	التعفن (أو الغنغرينا)	الآداب	1959	8
أوريانو ، جانين	دريس : مأساة إنسان الجزائر	د. سهيل ادريس	1959	8
» »	الانسان العربي ورواية دريس	خميس شاهين	1959	10
اليغ ، بيير	الاستجواب	————	1958	4
بوهازر (؟) حسين	أصوات في القصبة	————	1961	3
جونسون ، كوليت وفرانسيس	الجزائر الخارجة على القانون	(ع)	1956	3
حداد ، مالك	الشقاء في خطر	مزيد الظاهر	1962	4
حوحو ، أحمد رضا	نماذج بشرية	————	1956	4
الخطيب . أحمد	الثورة الجزائرية	محمد وهبي	1959	1
ديب ، محمد	البيت الكبير	————	1953	5.1
» »	في المقهى	————	1956	3
روي ، جول	حرب الجزائر	————	1961	7
سارتر ، جان بول	الجلادون	عائدة مطرجي ادريس	1958	4
» »	عارنا في الجزائر	» »	1958	4
سارجان شرايبر	ليطنان في الجزائر	————	1957	5
سعد الله . أبو القاسم	محمد العيد آل خليفة	عبد الرحمن الزناقي	1961	10
ميمون . ب . ه	ضد التعذيب	————	1957	6
————	جميلـــة	علي شلش	1958	5
الشلقاني ، علي	ثورة الجزائـــر	ناجـي علوش	1958	5.3
فانـــون ، فرانـــز	معذبو الأرض	د. سهيل ادريس	1962	2
فرعـــون ، مولـــود	الأرض والـــــدم	————	1953	5
كبـــه ، ابراهيـــــم	اضواء على القضية الجزائرية	جليل كمال الديـــن	1957	12
مانـــــــدوز	الثورة الجزائرية بالنصوص	————	1961	7

خــوري ، رئيـــف	الحل الوحيد لقضية الجزائر	ــــــــ	1956	3
سارتــر ، جــان بــول	نظام الاستعمار الفرنسي في الجزائر	د . سهيل ادريـس	1956	6
، ،	مجنــدون يشهــدون	الآداب	1957	8
سعد الله ، أبو القاسم	أرض المــلاحــم	ــــــــ	1954	4
سعد الله ، أبو القاسم	تصميم للشعر الجزائري الحديث	ــــــــ	1957	12
، ،	الغزل في الشعر الجزائري	ــــــــ	1958	5
، ،	البطولة في الأدب الجزائري الحديث	ــــــــ	1959	4
، ،	رسالة النوادي والجمعيات في الجزائر	ــــــــ	1959	11
، ،	محمد العيد كبير شعراء الجزائر	ــــــــ	1960	5
، ،	محاولاتنا في النقد الأدبي	ــــــــ	1960	9
، ،	رضا حوحو ونضال الكلمة	ــــــــ	1960	12
سعــدى ، عــثمان	مشكلة الثقافة في الجزائر	ــــــــ	1955	3
، ،	الفن الشعبي في الجزائر	ــــــــ	1955	7
، ،	زيــدون الشهيــد	ــــــــ	1956	2
، ،	مأساة شعب وتبلد ضمير	ــــــــ	1956	5
، ،	الأدب الشعبي والمقاومة الجزائرية	ــــــــ	1957	8
، ،	الفلاح والثورة العربية في الجزائر	ــــــــ	1959	1
، ،	رسـالة الى مناضــل	ــــــــ	1959	8
، ،	مــولـود معمــري	ــــــــ	1960	9-8
ســونــاك ، جــان	رسالة إلى فتى فرنسي في الجزائر	ترجمة (ع)	1956	7
الصديق ، محمد الصالح	إلى البطل القائد عميروش .	ــــــــ	1959	10

معمري ، مولود	الربوة المنسية	ــــــ	1953	5,1
ابن نبي ، مالك	شروط النهضة	ناجي علوش	1958	5
ياسين ، كاتب	نجمة رواية الجزائر المناضلة موريس نادو (الآداب)		1956	3

(ب) ملحق الأبحاث

الكاتب	العنوان	المترجم	السنة	العدد
الآداب	افتتاحية	ــــــ	1956	3
،،	الديمقراطية والابادة	ــــــ	1956	5
،،	تحية الى الجزائر	ــــــ	1959	11
،،	تحية الى الجزائر	ــــــ	1962	4
ادريس (د. سهيل)	القصة العربية في افريقية الشمالية	ــــــ	1954	1
،،	قضية الجزائر . التعذيب والشرف	ــــــ	1957	6
،،	في قضايانا القومية	ــــــ	1959	9
،،	كامو والتمزق	ــــــ	1960	2
،،	الجزائر والحرية	ــــــ	1960	10
اسماعيل ، محي الدين	كامو والبحث عن السعادة (ترجمة)		1960	4
،،	كامو ونظرية التمرد	ــــــ	1960	8
بوريه ، كلود	معركتنا في الجزائر : الخطف الحر الآداب		1956	12
الخطيب ، أحمد	الأمير عبد القادر : بطولة وشعر	ــــــ	1959	2
خليفة ، الجنيدي	رسالة من سجين جزائري	ــــــ	1958	2
،،	الوجود بلا وسيط	ــــــ	1961	11

ع . أ . ق .	الأدب العربي يحتضر في الجزائر	ــــــــ	1961	6
عبد الدايم ، د. عبد الله	مآثر فرنسا في الجزائر	ــــــــ	1956	3
،،	الانسان وأزمة الجزائر	ــــــــ	1960	12
كامو ، البير	رجوع الى تيبازة	عثمان سعدى	1955	10
كمال الدين ، جليل	الجزائر في الفن العراقي	ــــــــ	1958	6
كو ، جان	وثيقة بطولة		1961	12
معمري ، مولود	الأدب الروائي المغربي بالفرنسية	محمد برادة	1961	12
مهري ، عبد الحميد	الجانب الإنشائي من الثورة الجزائرية	ــــــــ	1957	6
ابن نبي ، مالك	أسس فعالية اقتصاد افريقي آسيوي	الطيب الشريف	1957	2-3
،،	من أجل ثقافة افريقاسيوية	الطيب الشريف	1957	10

(ج) ملحق القصائد

الشاعر	القصيدة	السنة	العدد
أحمد ، زهير	الى شاعر جزائري شهيد	1956	7
البياتي ، حسن	ضحكة جميلة	1958	5
جواد ، كاظم	رسالة الى صديقتي	1956	5
جواد ، كاظم	أربع قصائد الى الجزائر الظافرة	1962	5
حجازي ، أحمد عبد المعطي	أوراس	1957	2
حداد ، مالك	أغنيات لمجد الجزائر	1961	8
الحلي ، علي	من جان دارك الى جميلة بوحيرد	1958	6
الحلي ، علي	مولد الثورة الجزائرية	1956	7

الحلـــــي ، علــــي	فـي حقــل الـــدم	1956	11
الخـــوري ، خليـــل	الـى جميلـــة القضيـــة	1960	1
السامـرائي ، جـــلال	الربيــع فــي الجزائـــر	1956	9
الصائـــغ ، صـــادق	غنوة وداد الى جميلة بوحـيرد	1959	1
ســـرور ، نجيـــب	الجمعـــة الحزينـــة	1958	4
ســـرور ، نجيـــب	عـــرس أوراس	1960	8
سعد الله ، أبو القاسم	ثـائــر وحـــب	1956	3
سعد الله ، أبو القاسم	المروحـــة	1956	5
سعد الله ، أبو القاسم	انسانيـــة	1956	8
سعد الله ، أبو القاسم	شعـــارات	1956	10
ســويـد ، أحمـــد	أغنيـــة هـــا	1960	12
السيـــاب ، بـدر شاكـــر	فـي المغـــرب العـــربي	1956	3
السيـــاب ، بـدر شاكـــر	رســـالة مـــن قـــبر	1956	9
شمـــس الديـــن ، محمـــد	أنشـــودة للجـــزائـــر	1956	7
الشـــواف ، خـــالـــد	المغـــرب العربـــي	1956	9
صـــادق ، حبيـــب	رسـم فـي خنـدق جزائـري	1957	5
الطعـــان ، عبـد الرضـــا	هـــؤلاء مـــن شمـــال افريقيـة	1956	8
طـــه ، أيـــوب	أوراس	1957	5
العيســـي ، سليمـــان	مـن ملحمتنـا فـي الجزائـــر	1958	5
العيســـي ، سليمـــان	الـى جميلـــة بوبـاشـــا	1960	8
العيســـي ، سليمـــان	صـــورة لأرض الثـــورة	1961	8
فـارس ، محـــي الديـــن	الجـــزائـــر والســـلام	1962	5
فتـــح البـــاب ، حـــسن	رســـالة مـن جميلـــة	1959	4
فتـــح البـــاب ، حـــسن	أغنيـــة مـن الجـــزائـــر	1959	5
الفيتـــوري ، محمـــد	رســـالـة الـى جميلـــة	1958	1
قبـــاني ، نـــزار	جميلـــــة بوحـــيرد	1958	4
قبطـــي ، بشـــير	مـــاذا يريـــد الداخلـــون	1956	12
قـــويـدر ، فـــارس	جـــزائـــري	1958	12
الكمـــالي ، شفيـــق	تحيـــة	1958	3

الكمالي شفيق	جميلة	1958	4
كلزي ، محمود	ستظل جزائرنا خضراء	1960	4
مريم ، فاروق	مزامير جزائرية	1962	4
المصري ، محمد	جزائرية	1958	4
الملائكة ، نازك	الراقصة المذبوحة	1956	12
الملائكة ، نازك	نحن وجميلة	1959	1
الناعوري ، عيسى	جميلة الجزائرية	1958	4
النجدي ، محمود	رجال من الجزائر	1957	2
النقدي ، محمد	من أناشيد الثوار الجزائريين	1956	7

(د) ملحق القصص

القصص	القصة	السنة	العدد
دودو ، أبو العيد	عذابات (مسرحية)	1957	11
سعدي ، عثمان	اثنان وثلاثون طلقة	1957	10
سعدي ، عثمان	الشيخ حداد	1958	2
، ،	تحت الجسر المعلق	1959	5
، ،	الثلج والشرف	1960	3
صفدى ، مطاع	المزيفون والثورة العظيمة	1956	8
عكاش ، أحمد	الزنزانة السابعة لم تعد تجيب (ترجمة حنفي بن عيسى)	1958	5
ابن عيسى ، حنفي	في حي القصبة	1959	2
، ،	الشمس لا تشرق من باريس	1961	6
، ،	عائدون	1960	10

المحتوى

مقدمة

دراسات ومقالات 7

الثورة الجزائرية في مجلة الآداب 11
الأدب الجزائري الحديث 31
محمد العيد كبير شعراء الجزائر 35
أربع رسائل بين باشاوات الجزائر وعلماء عنابة 45
اجازة ابن عمار الجزائري إلى محمد خليل المرادي الشامي 63
قصيدة في رثاء المفتي الكبابطي 71
من رسائل محمد بن أبي شنب إلى محمد كرد علي 75
اعلام الأحبار، مقامة لأحمد البوني 89
مراسلة غريبة بين ابن باديس وأحد علماء سوف 97
الشاعر المفتي محمد بن الشاهد واحتلال الجزائر 107

مع الكتب

في ظلال النقد : مع حمار الحكيم 117
ديوان ألحان الفتوة 121
مسرحية الطغاة 123
القصة الجزائرية القصيرة 127
مسرحية التراب 129
بحيرة الزيتون 135
شعر المقاومة الجزائرية 141
الرصيف النائم 143

ديوان ألم وثورة 145

مناقشات وأحاديث

حول أرض الملاحم : شعرنا يمثلنا 153
حول النهضة الأدبية في الجزائر 159
حول أسطورة (المروحة) 163
حول (المروحة) أيضا 169
آفاق الأدب في المغرب العربي 173
من قضايا الأدب العربي 181
ـ حديث إلى المرحوم محمد طاع الله 181
ـ حديث إلى الشاعر محمد أبي القاسم خمار 187
ـ حديث إلى الأستاذ أبي القاسم بن عبد الله 195

رحلات

رحلتي إلى المغرب 203
رحلتي إلى الجزيرة العربية 235
زيارة لخنقة سيدي ناجي 257
حول رحلة ابن طوير الجنة 265
رحلة الأمير الألماني موسكاو إلى عنابة 273

الملاحق

فهرس الاعلام 291
فهرس الاماكن والبلدان 303
ملحق الكتب 311
ملحق الابحاث 313
ملحق القصائد 314
ملحق القصص 316

كتب للمؤلف

في الأدب :

- النصر للجزائر (شعر) ، دار الفكر ، القاهرة ، 1957
- ثائر وحب (شعر) ، دار الآدب ، بيروت ، ط 2 . 1977
- محمد العيد رائد الشعر الجزائري ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 2 ، 1976 .
- محمد الشاذلي القسنطيني ، الشركة الوطنية ، الجزائر ، 1974
- دراسات في الأدب الجزائري الحديث ، دار الادب ، بيروت ، ط 2 ، 1977 .
- حكاية العشاق (تحقيق) ، الشركة الوطنية ، الجزائر ، 1977
- تجارب في الأدب والرحلة ، الشركة الوطنية الجزائر ، 1983 .
- ديوان (معد للطبع) .

في التاريخ :

- تاريخ الجزائر الثقافي ، الشركة الوطنية ، الجزائر ، 1981 (صدر منه جزآن)
الحركة الوطنية الجزائرية ، الشركة الوطنية ، الجزائر 1983 ط 3 (الثاني) .
- الحركة الوطنية الجزائرية ، القاهرة ، 1977 ، ط 2 . ج 3
- محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث ، الشركة الوطنية الجزائر ، ط 3 ، 1982 .
- أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر (القسم الأول) ، الشركة الوطنية الجزائر ، 1982 ، ط 2 .
- حياة الأمير عبد القادر ، ترجمة كتاب تشرشل ، الشركة الوطنية ، الجزائر ، 1982 ، ط 2 .
- أبحاث وآراء في تاريخ (القسم الثاني) ـ معد للطبع .

دراسات عامة :

- منطلقات فكرية ، الدار العربية للكتاب ، تونس ـ ليبيا ، ط 2 ، 1982 .
- المفتي ابن العنابي ، رائد الاصلاح الاسلامي ، الشركة الوطنية ، الجزائر ، 1976 .
- الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1982 .
- رحلة ابن حمادوش الجزائري (لسان المقال) ، نشر مشترك بين المكتبة الوطنية والشركة الوطنية ، الجزائر ، 1983 .

بلغة أجنبية :

طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
وحدة الرغاية ـــ 1983 .